تفسير من هدى القرآن

الجزء الرابع عشر

سورة الذاريات

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال : " من قرأ سورة " الذاريات " في يومه أو في ليلته أصلح الله له معيشته ، و أتاه برزق واسع ، و نور له في قبره بسراج يزهر إلى يوم القيامة "تفسير نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٢٠

الإطار العام

مثلما نذر و الأعاصير الحطام ذروا ، مثلما تحمل السحب و قر الغيث إلى الأرض العطشى ، مثلما تجري السفن الثقيلة في البحر سيرا ، و كما يقسم ملائكة الله أرزاق العباد أمرا ، كذلك وعد الله صدق حقا حقا . متى ؟ في يوم الجزاء الذي لا ريب فيه.

هكذا تنتظم آيات سورة الذاريات حول محور المسؤولية التي يهدينا إليها التدبير القائم في الخليقة ، و أن كل شيء خلق بقدر ، و إلى أجل ، و لحكمة بالغة . أفيترك هذا الإنسان الذي سخرت له الأشياء سدى أو يمكن أن يكون خلقه عبثا بلا حكمة ولا هدف ؟

كلا .. قسما بالسماء المنتظمة كحلقات الدرع المتينة إن الرسالة حق ، و إنما أختلفوا فيها أو انحرفوا عنها لأنهم خراصون إن يتبعون إلا ظنا ، و لم ياخذوا الأمور بجد ، بل تغمرهم أمواج الأماني ، ساهين عما ينتظرهم ، و يسألون باستهزاء : متى يأتي الجزاء ؟ هل يدرون أيان يوم الجزاء عندما يعرضون على النار عرضا ، و قبل أنيلقوا فيها يقال لهم : " ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون. "

أوليس هذا الجزاء الحق كان لإيقاظ الإنسان من سباته ، و إنقاذه من غمرات السهو ؟ بلى . وفي الجانب الآخر أنظر إلى المتقين الذين آمنوا بالجزاء فتجنبوا النار وما يجرهم إليها في الدنيا . أين تراهم اليوم ؟ إنهم في جنات و عيون ، و كما أحسنوا في الدنيا بالعطاء تراهم اليوم ياخذون عطاءهم من ربهم . أي عمل عظيم قاموا به فبلغوا هذه الدرجات العلى ؟ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون تبتلا إلى الله ، و بالأسحار هم يستغفرون تطهرا من الذنوب و تطلعا إلى المغفرة و الرضوان ، و قد وضعوا على أنفسهم في أموالهم حقا مفروضللسائل و المحروم غير الواجبات التي فرضت عليهم إحسانا و فضلا.

أفلا يكفي ذلك باعثا للصالحات ، داعيا إلى المكرمات . افلا يكفينا سهوا و غفلة و هزلا ؟

و إذا نظرت إلى الأرض كيف مهدت للحياة ، و إلى النفس كيف انطوت على عالم كبير اختصرت آيات الخليقة في كل خلية منها ، و إلى السماء كيف يتنزل منها رزق الله و ما وعده الداعين من فضله .. لعرفت أنه الحق كما أنك لاترتاب في نطقك.

و يضرب القرآن مثلا من ضيف إبراهيم المكرمين : كيف بشروه بغلام عليم لأنه أطاع الله ، و حملوا العذاب

إلى قوم لوط لأنهم كذبوه . أوليس ذلك دليلا على أن وعد الله صادق ، و أن الدين لواقع ، و أن الرسالة حق لا يحتمل السهو و اللهو و السخرية.

كما أن استجابة الدعاء لامرأة إبراهيم العجوز العقيم لشاهد صدق على تدبيرالله للخلق ، و أن وعده لصادق عندما أمرنا بالدعاء و ضمن الإجابة.

و يقص السياق عاقبة فرعون الذي كذب برسالة موسى الذي جاءه بسلطان مبين فأخذه الله - و جنوده -فألقاه في اليم غير مأسوف عليه .. كذلك يشير إلى قصة عاد الذين أرسل عليهم ريحا مدمرة ، و قصة ثمود الذين أخذتهم الصيحة ، و قصة قوم نوح الذين لفهم الطوفان ، كل أولئك الذين فسقوا عن أمر الله فدمر عليهم ، فهل هذا سهو أم هزل ؟

كلا .. ما خلق الله السماوات و الأرض إلا بالحق و الحكمة . فما هي حكمة خلق الجن و الإنسان (بما أوتيا من حرية القرار) ؟

تعال ننظر إلى السماء التي بناها الله بقوة و إنه لموسعها ، و إلى الأرض فرشها برحمته ، و خلق من كل شيء زوجين ، لعلنا نذكر وحدته و حسن تأليفه و تدبيره .

على أي بصيرة تشهد كل هذه الحقائق ؟ أوليس على أنه سبحانه المدبر و السلطان المهيمن ؟ ألا نفر إليه لنأمن في كهفه عواصف الفتن ، و قواصف العذاب ، سالمين من فتنة الشركاء و الأنداد الذين ينبهون في الدنيا حقوقنا و يقودوننا في الآخرة الى سواء الجحيم ؟

من أجل هذا جاء الرسول و جاءت سائر الرسالات ، و لكن الناس تمردوا و قالوا عن كل واحد منهم شاعرا او مجنونا ، فهل تواصوا بذلك أم هم قوم طاغون ؟

ذرهم في غيهم غير ملوم عليهم ، و توجه للقاء المؤمنين فذكرهم . إن الذكرى تنفعهم.

و كذلك جاء الرسل لتحرير الإنسان من نير العبودية الشركية إلى رحاب عبوديةالرب الواحد ، و إنها لحكمة خلق الجن و الإنس ، فما خلقهم الله ليربح عليهم أو يعطوه شيئا ، تعالى الله ذو القوة المتين أن يصل إليه نفع من عباده أنى كان صغيرا.

إذا فما هي عاقبة هؤلاء الظالمين و الكافرين ؟ دعهم يستعجلون العذاب فإن نصيبهم منه مضمون ،ـ و إنهم لمعذبون مثل سلفهم العابر ، و إن لهم الويل في يوم المعاد عندما يحيق بهم ما استهزأوا به.

و هكذا تختم السورة بما يبدو أنه محور السورة الأساس أي حكمة خلق الله للإنس و الجن المتمثلة في عبادته.

يسألون أيان يوم الدين ؟

هدى من الآيات

في سورة الذاريات المكية التي تحتوي على ستين آية مباركة نقرأ قول الله سبحانه و تعالى في الآية السادسة بعد الخمسين : " وما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون " ، و كما سبق و نوهنا إلى أن بعض الآيات القرآنية تعتبر محورا للسياق القرآني في السورة ،و ربما تكون الآية الواحدة في السورة مفتاحا لفهم السورة بأكملها ، و الآية (المحور) التي جاءت السورة من أجلها و من أجل تكريس مفهومها و مضمونها ، كما مثلا آية الشورى في سورة الشورى أو آية النور في سورة النور وآية الحديد في سورة الحديد أو ما أشبه .

و لعل الآية الكريمة : " و ما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون "هي الآية (المحور) في سورة الذاريات ، حيث تبعثنا - نحن البشر - إلى التوجه بكليتنا لرب العالمين ، و التخلص من الأثقال المادية و الأصر النفسية و الأغلال الإجتماعية ، و فارين إليهمن ذنوبنا وجهالتنا ، هاربين إلى قوته و قدرته من الضعف و العجز اللذينترتكس فيهما ارتكاسا.

و إن عبادة الله تعني التحرر من كل عبودية أخرى ، من عبودية الهوى و الشهوة و المال و السلطة ، و التقاليد و الأعراف ، مما يمنح الإنسان الكرامة التامة ، و آنئذ يرتفع إلى مستوى التقرب إلى الله حتى يهب له الرب قدرة لا تحد ، و حياة لا تنتهي ، جاء في حديثقدسي عن رب العزة سبحانه أنه يقول " : يابن آدم : أنا غني لا أفتقر أطعني فيما أمرتك أجعلك غنيا لا تفتقر ، يابن آدم : أنا حي لا أموت أطعني فيما أمرتك أجعلك حيا لا تموت ، أنا أقول للشيء كن فيكون أطعني فيما أمرتك تقول للشيء كن فيكون " (١. (

إنه آنئذ يكون خليفة الله ليس في الأرض فقط بل في الطبيعة أيضا ، ففي الحديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق - عليهما السلام - أنه قال : " من خاف الله عز وجل أخاف الله منه كل شيء " (٢. (

بينما يكون العكس حينما يعبد غير الله ، حيث يصبح ضعيفا حقيرا أمامه ، لا يملك من حول أو قوة : " ومن لم يخف الله عز وجل _خافه الله من كل شيء " (٣. (

بينات من الآيات

وفي السماء رزقكم وما توعدون

هدى من الآيات

مثلما تتصل حقائق السماء و الأرض بما في بدنك ، لابد أن تتواصل عبرها وآياتها و ما في عقلك من وعي ، و يبدو أن الموقنين وحدهم يبصرون آيات الله في الأرض ، و في النفس وفي السماء التي قدر الله فيها الرزق ، و جعل فيها ما نتطلع إليه من فضله ، و ما نحذر من نقماته .. وفي قصة ضيف إبراهيم تصديق ذلك ، فقد جاؤوه بالبشرى (حيث رزق من عجوز عقيم غلاما عليما هو إسحاق) ، و أرسلوا إلى قوم لوط المجرمين بالعذاب متمثلا في حجارة من طين قد هيأت لأولئك المسرفين (الشاذين جنسيا. (

و كان العذاب مقدرا بحكمة بالغة ، فلم يشمل بيتا واحدا كان فيه مسلمون وهم آل لوط الذين أخرجهم الله منها سحرا ، و قد ترك هذا البيت كما آثار تلك القرية لكي يكونا آية بينه لمن يخشى العذاب (أما قساة القلب فإنهم لن يستفيدوا من هذه الآية. (

و قصة فرعون هي الأخرى عبرة لمن يعتبر حيث أرسل الله إليه موسى بحجة بالغة و لكنه تولى بكل وجوده وقواه (حتى أنه لم يعرف كيف يفسر كفره) فقال : هذا ساحر أو مجنون ، فأخذه الله و جنوده بقوته ، و نبذهم في البحر بذنوبهم.

و مأساة عاد كانت أيضا عبرة هامة حيث أرسل الله عليهم الريح العقيم التي أتت على كل آثار الحياة في بلادهم (بما كفروا بنعمة الله و كذبوا رسله. (

و كذلك فعل بثمود الذين عتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة (نار فيها عذاب (، و بالرغم من أنهم كانوا ينتظرونه لم يقدروا على الدفاع ، ولهم ينصرهم أحد ، و ما كان يمكن نصرهم أبدا.

و بعد ان يشير السياق إلى قصة نوح يختم الدرس الذي نستوحي منه سنة الجزاء في الخلق ، و أنها لا تختص بقوم ولا بذنب ، فكل فسق و جريمة و إسراف يلقى جزاءه ، و هذا الجزاء دليل هيمنة الرب و عدالته و قدرته ، و كل ذلك يهدينا إلى الجزاء الأكبر في الآخرة.

بينات من الآيات

[20]لو اطلعت ضحى من فوق ربوة على مروج خضراء ، تحيط بها أشجار مثمرة ، و على اليمين منها ابتسم لك حقل من ورود متنوعة ، لابد أن جمال المنظر يشغلك عن تذكر الحقيقة التالية : أنه لولا ضياء الشمس الذي ينعكس على الطبيعة إذا ما ظهرت هذه الألوان الجذابة عليها . أليس كذلك ؟

وإذا تذكرت هذه الحقيقة عرفت آنئذ أن كل ورقة زاهية من هذه الورود و كل نبتة خضراء رائعة في تلك المروج علامة واضحة على وجود ضياء الشمس.

أصحاب البصائر يتذكرون هذه الحقيقة ، و ينفذون بعقولهم إلى غيب الواقعالمشهود فيما يتصل بخالق الطبيعة ، و يعرفون أن كل شيء في الخليقة آية ظاهرة لخالقها العظيم ، كما أن انعكاسات النور شاهدة على وجود مصدره (الشمس (، و تعالى الله عن الامثال.

ومن هنا كانت آيات الله في الأرض تتجلى للمؤمنين بصورة أبهى و أسنى ، أما غيرهم فإن جمال المظهر يشغلهم عن ينبوع النور و الجمال و البهاء ، لأن نظرتهم قاصرة ، و همتهم محدودة ، فلا تتجاوز الحقائق الجزئية و الذاتية.

]و في الأرض ءآيات للموقنين[

المنهج القرآني الذي يكشف حجب العناد و الريب و الغفلة عن بصائر الناس ، و يجعلهم يتفكرون في غيب السماوات و الأرض ، ولا ينظرون فقط إلى ظاهر الحياة الدنيا ، بل يجعلون كل ظاهرة جسرا إلى غيبها ، وكل حدث نافذة إلى رحاب الحقيقة الأكبر منه.

بلى . هذا المنهج القرآني المعجز يصل الإنسان بالخليقة عبر جسر الإيمان ، حتى ليصبح كل شيء من حوله ناطقا يناجيه بسر الكائنات ، و يتناجى هو معه بلغة العارفين.

إن حقائق الخلق ، من حجر و شجر و أحياء .. من سحب تلبد السماء ، و غيث يسقي الأرض ، و عواصف و رعد و برق .. من أمواج البحر ، و شعاع الشمس ، و نور القمر ، إنها جميعا في وعي المؤمنين تجليات لأسماء الله ، و منافذ إلى غيب قدرته و حكمته .. رحمته و عزته .. جماله و جلاله .. فلا ينظرون إلى شيء إلا عبر هذه الرؤية ، مما يجعله مسبحا بحمد ربه ، ناطقا بآياته ، داعيا إليه ، يبث في روعهم حكمة الحياة ، و يعكس جمالها و جلالها ، و يهديهم إلى سرها العظيم.

فهم إذا نظروا إلى الأرض و حجم هذه الكرة الوحيدة التي تحتضن الحياة فيما نعرف من الكرات يتساءلون : ما الذي قدر حجمها ، و طبيعة حركتها حول نفسها و حول الشمس ، و المسافة المحددة التي تفصلها عنها .. حتى لو أنها اقتربت أو ابتعدت تباطأت أو تعجلت لما أمكن نشوء الحياة فيها أبدا ؟

و سمك الأرض بهذا القدر المحدد بدقة ما الذي نظمه حتى لو كانت أسمك عشرة بوصات لما وجدت مادة الأوكسجين الضرورية للحياة .. و لو كانت الحبار أعمق عدة بوصات من عمقها الحالي لابتلعت كل مافي الجو من هذه المادة الضرورية ؟

و كذلك الغلاف الواقي المحيط بأرضنا لو كان أدق قليلا مما هو عليه لكانت الأرض معرضة لملايين الشهب المتوجهة إليها من الفضاء الخارجي و لاستحالت الحياة عليها .. و الغازات المتنوعة التي نحتاج إلى كل واحد منها بذات النسبة الموجودة في الجو ، و التي تكونت عبر السنين المتطاولة من مصادر عديدة . أليست شاهدة على حكمة المدبر سبحانه ؟ (١)[٢١] وإذا عدت إلى نفسك التي هي خلاصة مباركة لكل ذلك العالم الكبير الواسع ، فإنك تجد آفاقا من العلم لا تحد ، و شواهد لا تحصى على حسن التدبير لخالقها الرحمن ، و لكننا بحاجة إلى بصيرة نافذة لكي لا تحجبنا حاجات الجسم العاجلة المحدودة عن الغور في أعماقها الزاخرة بالمعرفة و الحب و الأحاسيس الزاكية.

]و في أنفسكم أفلا تبصرون[

(1)راجع تفسير نمونة (بالفارسية) ج ٢٢ /ص ٣٣١ - ٣٣٢.

كيف لا نبصر ما في أقرب الأشِياء إلينا ، و هل يستحق الاكرام من يغفل عن آيات الله في ضميره و وجدانه .. في عواطفه الخيرة .. في إرادته الماضية .. في عقله الوقاد .. في تركيبة عينه و إذنه .. في أعصاب دماغه .. في حلقه و ما أطبقت عليه شفتاه من لسانه ذيالوظائف المتعددة ، إلى أضراسه و أسنانه ، إلى حلقه و بلعومه ؟

دعنا نتفكر قليلا في هذه الشبكة المعقدة من الأعصاب ، و هذه المنظومة الواسعة من الأوردة و الشرايين التي تقدر بعشرات الألوف من الكيلومترات .. والى هذا الحشد الهائل من الخلايا التي تقدر بشعرة ملايين مليار ، و كل خلية عالم عظيم تعكس آيات الصنع الالهي.
أو تدري ان الخلية الواحدة هي في الواقع مدينة صناعية ضخمة بحيث لو استطاع الانسان فرضا تقليدها لكان عليه ان يبني مصانع في ساحة ألف هكتار يزرعها بمختلف الاجهزة المعقدة و المتطورة ؟ (١) ، و لكن أين تلك البصيرة التي تنفذ الى أعماق وجود الانسان لعلها تهتديالى بعض آيات الله العظيمة .. و تؤمن بالبعث من بعد الموت من خلال الايمان بقدرة الله و حكمته ؟

[22]و بعد ذكر الأرض و آياتها ، و الإنسان وما فيه من تجليات القدرة ، يذكرنا السياق بالسماء و آياتها ، و كيف يرزقنا الله منها ، فهذا الغيث ألا ترى كيف يتنزل من السماء برزق مبارك ، و هذه الأشعة التي تبث الينا من الشمس و النجوم وما فيها من فوائد عظيمة نعرف بعضها و نجهل الكثير ؟ كلها آيات التدبير الدقيق . أفلا نتذكر ؟

]وفي السماء رزقكم وما توعدون[

وفي السماء تلك الإمكانات المستقبلية التي يهدينا الرب إليها ففيها من البركات أضعاف ما ننتفع به حاليا كما فيها من النقمات ما ينبغي اتقاؤها بالعمل(١ (راجع المصدر / ص ٣٣٣.

الصالح ، و يبدو أن الآيات التالية تأويل لهذه الكلمة ، حيث أن ربنا سبحانه قد وعد - و وعده الصدق - ابراهيم بأن يرزقه ذرية كما أوعد قوم لوط بالعذاب فجاءته الملائكة بها جميعا.

و قال البعض : معنى " وما توعدون " الجنة جعلها الله في السماء . و لعل هذا صحيح في بعض رياض الجنة أما الجنة جميعا فعرضها كعرض السماوات و الله العالم.

وفي الاية تفسير آخر : هو ان الله قد قدر عنده في السماء (الجهة الاعلى) كل أرزاق العباد فلماذا الحرص و التكالب ؟

بلى .السعي واجب ولكن الفرق كبير بين السعي و راء الرزق بل و حتى الكد و الكدح من أجله و بين التهالك عليه (الذوبان في بوتقته) حتى لا يكون لدى المرء هم سواه ، فتمسخ شخصيته ، و تختصر انسانيته في آلة اقتصادية ، كلا ..ان للانسان تطلعات سامية و انما الرزق وسيلة البلوغ اليها فقط . لذلك جاء في الحديث الماثور عن النبي صلى الله عليه و آله أنه قال : " الرزق لا يجره حرص حريص ولا يصرفه كره كاره " (١. (

بل اننا نجد ان الرزق يرتبط بجوانب عديدة من حياة الانسان منها السعي و الكدح . فمن ألغى سائر جوانب حياته و اختصر نفسه في البحث عن الطعام لم يوفق فيه كيف ؟

أليست الأمة الجاهلية المفككة التي لا تهتم بالسياسة ولا تعي التطورات الكبرى في العالم ولا تتكامل عواطفها أدبيا وفنيا هذه أمة متخلفة ، و هل نصيب الأمة(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٢٦.

المتخلفة غير الفقر و المسكنة حتى لو واصل أبناؤها الليل و النهار في طلب الرزق ؟

و كما في الأمة كذلك في الفرد فمن تدانت عزيمته و همته ، و ضاق أفق علمه و وعيه ، و ساءت أخلاقه و آدابه ، لم ينفعه اجتهاده في طلب الرزق ، بينما الآخر الذي تسامت همته ، و ازداد علمه و وعيه ، و حسنت أخلاقه و آدابه اكتفى بقليل من الجهد المركز ، و حصل علىالكثير من المكاسب أليس كذلك ؟ من هنا جاء في الحديث الماثور عن الامام الصادق عليه السلام:

"و الذي بعث جدي بالحق نبيا إن الله تبارك و تعالى يرزق العبد على قدر المروة ، و ان المعونة تنزل

على قدر شدة البلاء " (١) ، و قال عليه السلام : " كف الأذى و قلة الصخب يزيدان في الرزق " (٢) ، و روي عن الرسول صلى الله عليه و آله انه قال : " التوحيد نصف الدين ، و استنزل الرزق بالصدقة " (٣) و اخطر ما في التهالك على طلب الدنيا انه يشغلك عن ذكر الله ، و التسامي الى قربه ، و النظر الى آيات قدرته في نفسك و الخليقة ، و الاجتهاد في طلب الآخرة التي هي دار مقرك.

و كلمة أخيرة:

لان ما وعدنا الله من رحمته في السماء فقد أمرنا بالتوجه اليها عند الدعاء . جاء في حديث مأثور عن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال:

"اذا فرغ أحدكم من صلاته فليرفع يديه الى السماء ، و لينصب في الدعاء " . فقال ابن سبا : يا أمير المؤمنين أليس الله في كل مكان ؟ قال : " بلى " . قال : فلم يرفع يديه الى السماء ؟ فقال : " أو ما تقرأ : " وفي السماء رزقكم وما

(1)المصدر ص ١٢٥.

(2)المصدر ص ١٢٦.

(3)المصدر.

توعدون " فمن أين تطلب الرزق إلا من موضع الرزق ، و موضع الرزق وما وعد الله عز وجل السماء. (1) "

[23]أقرب الأشياء اليك نفسك ، و تتجلى النفس لذاتها حين تفكر ، و أعظم لحظات التفكر هي عندما تنطق ، و اذا قال بعضهم : أنا أفكر فاذا أنا موجود .و قال آخر : الانسان حيوان ناطق فلأن التفكر حالة يقظة النفس لذاتها ، أما النطق فهو ذروة هذه اليقظة . و قديشك العقل في معطيات الحواس لان بعض أحاسيس الاذن طنين الدم من داخل البدن ، و البصر قد يزيغ واليد قد تصاب بالبرد دون سبب خارجي . أما النطق فلا يشك العقل فيه لانه من أعظم آيات الله في البدن ، و من أصعب الفعاليات عند البشر ، حيث يشترك فيه الجسم و الروح معا . انه قمة الوعي عند الإنسان ، لا يشك فيه أحد حتى المثاليون و السوفسطائيون يزعمون بأنهم على يقين من أنهم ينطقون ، و على ثقة بما يقولون.

من هنا يحلف القرآن يمينا برب السماء ان وعد الله حق ، و أن البعث و النشور حق ، كما أن نطق الانسان حق عند نفسه .

]فورب السماء و الأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون]و حين يكون القسم برب السماء و الأرض يكون أقرب الى وعينا - نحن البشر - لأننا نعرف شيئا من ضخامة السماء و الأرض ، فلابد أن نهتدي بذلك إلى بعض جوانب قدرة الرب و تدبيره اذا عرفنا انه - سبحانه - هو رب السماء و الأرض.

ثم يكون التأكيد بالغا حيث يضاف الى القسم ان ولام التأكيد ، و يشتد التأكيد بأن يضرب له مثل الحق بحالة النطق.

(1)المصدر / ص ١٢٤.

و قال البعض : ان النطق هو سمة أساية في حضارة الإنسان ، فمن دونه كيف كانت التجارب تنتقل من شخص لآخر ، و من جيل لجيل ناشىء.

و قالوا : ان القسم هو على ضمان الرزق و على استجابة الدعاء اللذين ذكرا في الآية السابقة ، و يبدو

لي أنه على كل الحقائق التي تواصلت في الآيات السابقة و أبرزها حقيقة الجزاء في الدنيا و الآخرة.

[24]و هذا مثل ظاهر لما في السماء من رزق و من وعد مستوحى من قصة إبراهيم الخليل) عليه السلام) حينما جاءته الملائكة يبشرونه باستجابة دعائه في نفسه) بغلام) و في قوم لوط (بإهلاك الكافرين. [

إن استجابة الدعاء في الذرية التي نزلت بها الملائكة كانت أعظم نعمة ينزلها الله على بشر ، فلقد و هب الله له غلاما زكيا يرفع اسمه ، و يصبح امتدادا لرسالته كما أن الوعد بإهلاك قوم لوط كان أعظم ما ينتظره الرسول بعد أن يكمل رسالته.

]هل أتاك حديث ضيف إبراهيم[

ان الضيافة كانت جانبا هاما من ثقافة العرب ، و كانت للضيف مكانة خاصة عندهم ، و لعله لذلك يتخذه القرآن وسيلة لبيان الحقائق التاريخية ، و يقول عن ضيوف إبراهيم:

]المكرمين[

لقد أكرمهم إبراهيم بضيافته و خدمته لهم.

[[25]إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلاما[

حينما دخلوا عليه قالوا : سلاما ، فرد سلامهم قائلا : سلام ، و كأنهم استأذنوه فأذن لهم . و لكنه لم يعرفهم ، فقال لهم : انا لا نعرفكم أو أسره في نفسه.

]قوم منكرون[

حيث نظر اليهم فعرف بأنهم ليسوا من أهل بلده ، و لعل صورهم لم تكن مطابقة مع صور البشر ، انما كانوا يشبهون البشر فقط .

[26]بعد ذلك جلسوا ، فتسلل نبي الله الكريم الى أهله:

]فراغ إلى أهله[

أي ذهب بخفية . و هذه من الآداب التي تتعلق بإكرام الضيف ، اذا ليس من اللائق أن يقول المضيف لضيفه : أتأكل كذا ، او ماذا تشرب ؟

]فجاء بعجل سمين[

جلب لهم عجلا قد شوي على النار ، و لعله فعل ذلك بالرغم من قلة عدد الضيوف (٣ أو ٤ أو على الأكثر ٩] لمزيد من الاكرام ، أو لانهم كانوا ضخاما ، أو لكي يطعم بفاضل طعامهم سائر المساكين ، و هذا كان ولا يزال من سنن الكرماء.

[[27]فقربه إليهم[

و دعاهم الى الطعام ، فلم ير أيديهم تصل الى العجل.

]قال ألا تأكلون[

]فأوجس منهم خيفة[

و لعل السبب في إحساسه بالخوف منهم انه كان من عادة من يضمر شرا ألا يأكل من بيت عدوه حتى لا يتصف بالغدر.

و هكذا قالوا : من لم يأكل طعامك لم يحفظ ذمامك.

]قالوا لا تخف[

وما لبثوا أن بشروه بتحقق أمنيته التي كادت تخيب لكبر سنه . و قد جاءت البشارة بعد الخوف ليكون أبلغ أثرا و أحلى.

]و بشروه بغلام عليم[

و يبدو أن الغلام ليس مجرد الذكر من الأولاد - حسب بعض علماء اللغة - بل " يلحظ في المادة معنى أخص من النشاط لما هو أصل الحياة ، فيقال : غلم كفرح :هاج شهوة ، و الغلمة : شهوة الضراب ، و من هذا يطلق الغلام على الفتى الذكر الطار الشارب ، لاكتمال حيويته " (١. (

و إذا صح هذا التفسير فقد بشرته الملائكة بولد ذكر ، يرعاه الرب حتى يبلغ أشده ، و لعل وصفه بـ " عليم " يدل على ذلك ، إذ من المعروف أن الغلام لم يولد عليما ، بل نمى حتى أضحى كذلك عندما أصبح غلاما.

يا لها من بشارة كبرى لمن بلغ من العمر عتيا ، و حسب التوراة ، و بعض المفسرين : كان قد جاوز سنه المائة ، أما زوجته سارة فقد بلغت التسعين.

انه قد قضى عمرا ممتدا ، يدعو إلى ربه و لم يؤمن به إلا قليل ، و الآن حيث يكاد يودع الحياة لا يفكر إلا فيمن يحمل مشعل الدعوة ، و يحقق آمال داعية التوحيد(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم الصادر عن المجمع العلمي / ج ٢ / ص ٢٧٢.

الكبير الذي كاد يكون وحيدا في عالم كان يغوص في دنس الشرك ، و ظلام الجاهلية.

يا لها من بشارة عظيمة : ان يستجيب الرب لعبده رأفة به ، و تخليدا لذكره في الآخرين ، فيرزقه ولدا يرعاه حتى يصبح غلاما و يعلمه حتى يضحى عليما.

[29]و سمعت زوجته (سارة) بهذه البشارة ، ربما لقربها من الضيوف حيث كانت تخدمهم ، أو لأنها جاءت اليهم فأخبرت بها.

]فأقبلت امرأته في صرة[

تصيح صياحا يشبه صوت الريح لما أصابها من فرحة مزيجة بالعجب!!

]فصكت وجهها[

أي ضربته - على عادة النساء العجائز عند مواجهتهن لمواقف لا يحتملنه - و عبرت عن عمق تعجبها من هذه البشارة العظيمة..

]و قالت عجوز عقيم[

فهل ألد و أنا عجوز يائس ؟! بل كيف ألد و أنا امرأة عقيمة ، و لم أنجب في شبابي ؟!

] [30]قالوا كذلك قال ربك[

نعم هكذا قال الله القدير ، فالرزق ، و لأنه أراد إثبات هذه الحقيقة أنه وهب عجوزا عقيما غلاما عليما.

]إنه هو الحكيم العليم[

ولم يذكر القرآن شيئا عن رد فعل إبراهيم (عليه السلام) لماذا ؟ ربما لأن انجاب رجل كبير في مثل سنه ممكن عقلا بعكس امرأة عقيم في مثل عمرها ، و الدليل على ذلك أن ابراهيم (ع) تزوج بهاجر فأنجبت له اسماعيل (ع. (

و المعروف أن الولد كان (اسحاق (و تدل على ذلك الآية المباركة : " فبشرناه بإسحاق. "

و هذه الحادثة توحي ببصائر ثلاثة:

أولا : إن الله قادر على تغيير ما نعرفه من السنن بقضائه النافذ ، و حكمه الذي يرد.

ثانيا :إنه يستجيب دعاء من دعاه بفضله و بوسائل غير معروفة لدينا ، و علينا ألا نقنط من رحمته في أشد حالات الأزمة ، و ألا نحرص على الدنيا خشية المستقبل فهو الرزاق ذو القوة المتين.

و الى هذا تشير الرواية المأثورة عن الإمام زين العابدين (عليه السلام) : " قال : خرجت حتى انتهيت إلى هذا الحائط ، فاتكيت عليه ، فاذا رجل عليه ثوبان أبيضان ، ينظر في وجهي ، ثم قال لي : يا علي بن الحسين ! مالي أراك كئيبا حزينا ؟! أعلى الدنيا حزنك فرزق الله حاضر للبر و الفاجر ، فقلت : ما على هذا أحزن ، و إنه لكما تقول ، قال : يا علي بن الحسين ! هل رأيت أحدا سأل الله عز وجل فلم يعطه ؟! قلت :لا ، قال : نظرت فاذا ليس قدامي أحد " (١. (

ثالثا : إن كل ذلك دليل يهدينا الى البعث بعد الموت . أليست العقبة الرئيسية عند الكفار به هي جهلهم بقدرة الله على إحياء الموتى ، او خرق الأنظمة السائدة على(١ (نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٢٦.

الخليقة ، فهذه القصص تزيل عنهم هذه العقبة ، مما يمهد الطريق أمامهم للإيمان بالآخرة.

[31]بشارة إبراهيم (ع) بالغلام العليم جانب من وعد الله ، أما الآخر فهو عذاب الإستئصال الذي صب على قوم لوط.

و حين عرف إبراهيم الملائكة سألهم عن الأمر العظيم الذي نزلوا من أجله ، اذ حسب نص مأثور عن الإمام الصادق (عليه السلام) : " كانوا أربعة أملاك : جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل و كروبيل عليهم السلام " (١) . و مثل هؤلاء لا ينزلون إلا لخطب جلل.

]قال فما خطبكم أيها المرسلون[

لابد انكم تقومون بعمل عظيم في الأرض فما هو ؟

] [33 - 32]قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين * لنرسل عليهم حجارة من طين [و نتساءل أولا : ما هو هذا الطين ؟ .. هل هو ذلك الطوب الذي بنيت به مدينتهم باعتبار ان المدينة قد ارتفعت ثم هبطت مرة أخرى ساعة تدميرهم ؟ أم هو حمم بركان تفجر عليهم فشبهت بالطين ؟ أم أصل الحجارة التي أهلكوا بها كانت من الطين ؟ .. لا ندري بالضبط ، و لكن الظاهر من الآية أنه ذات " السجيل " التي جاءت في آية أخرى ، و التي قالوا : انها معربة فارسية و أصلها (سنك كل] أي حجارة من الطين ، و الأقرب انها

قطعات من طين متصلب و متحجر.

(1)المصدر / ١٢٧.

ثانيا : ماذا كانت جريمتهم التي استحقوا بها ذلك العذاب الشديد ؟ يبدو انهم كانوا قد تدرجوا في عدة مراحل ، حتى بلغوا الدرك الأسفل ، و الذي مثل في الشذوذ الجنسي ، اما غيره فقد جاء في الحديث : " انهم لم يكونوا يتنظفون من الغائط ولا يتطهرون من الجنابة ، بخلاء ، أشحاء على الطعام " (١. (

[34]و ان هذا الهبوط المستمر كان بسبب إسرافهم المقيت.

]مسومة عند ربك للمسرفين[

يبدو من هذه الآية ان الاسراف ينتهي بالإنسان الى الجريمة ، فهو يسرف حتى يستوعب حقه ، فيبادر على الإعتداء على حقوق الآخرين ، و في الحديث عن الامام علي عليه السلام : " ما رأيت نعمة موفورة إلا و الى جانبها حق مضيع "لان من ياكل أكثر من حقه ياكل - و بشكل طبيعي - حقوق الناس ، و الحجارة التي أصابتهم كانت مسومة ، قد عرفت باسمهم ، و لعل كل حجارة كانت بإسم واحد منهم ، فلم تكن تطيش هنا و هناك ، لأنها كانت مسجلة بإسمه و حسب جريمته.

[35]و كما كانت مسومة باسم المجرمين كانت بعيدة عن المؤمنين الذين أخرجوا من تلك البلاد.

]فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين[

و لكن من كان فيها من المؤمنين ؟

] [36]فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين[

[37]و بعد أن خرجوا من تلك القرى ، أرسل الله الحجارة المسومة ، فأهلكتهم .

(1)المصدر / ص ١٢٩.

أين كانت قرى قوم لوط ؟ يقال انها واقعة اليوم في الأردن ، على مقربة من البحر الميت ، و انها كانت تسمى بـ : (سدوم) ، و أنها هي المؤتفكات أي القرى المنقلبة.

و يقال ان ابراهيم (عليه السلام) الذي بعث لوطا الى تلك القرى ليدعوهم الى ربهم كان يسكن في مدينة (حبرون) قريبا من (سدوم (و قد شاهد آثار العذاب حين نزل عليها.

و يزعم البعض : ان بعض الآثار قد ظهرت في قاع البحر الميت ، مما يدل على أنه يغطي قرى قوم لوط ، ولا ريب ان تلك المناطق تشهد بذلك العذاب الرهيب ، الذي نزل بأولئك المجرمين ، بيد أن هذه الآثار كثيرة في أرضنا ، و ان عبرها كافية للإنسان ليرتدع عن غيه ، بيدأن أكثر الناس في غفلة منها ، و إنما يتعظ بها الخائفون من عذاب الله.

]و تركنا فيها ءاية[

علامة بينة بما وقع فيها ، قيل : أنها آثارهم في القرية الخربة ، و قال البعض : إنها الحجارة المسومة ، و يظهر من حديث مأثور عن النبي (صلى الله عليه وآله (عن جبرئيل (عليه السلام) أن الآية بيت لوط حيث قال وهو يروى كيف دمر بأمر الله تلك القرى:

"و إني نوديت من تلقاء العرش لما طلع الفجر :يا جبرئيل ! حق القول من الله ، تحتم عذاب قوم لوط فاهبط إلى قرية قوم لوط وما حوت فاقلبها من تحت سبع أرضين ، ثم اعرج بها إلى السماء فأوقفها حتى يأتيك أمر الجبار في قلبها ، ودع منها آية بينة من منزل لوط عبرة للسيارة " (١. (

(1)المصدر / ص ١٢٨.

حقا : إنها آية بينة أن تدمر كل تلك القرى شر تدمير و يبقى بينهما بيت واحد عبد الله فيه سالما . أولا يهدينا ذلك إلى الدمار لم يكن بسبب زلزال طبيعي ، بل عذابا مقدرا لجرائم ارتكبوها ؟

]للذين يخافون العذاب الأليم[

أما الغافلون فهم لن ينتفعوا من مثل هذه الآية.

و هذه القصة تذكرنا بسنة الجزاء ، و أن الله لم يخلقنا عبثا ، و أنه سوف يحاسبنا ليجازينا ِإن خيرا فخير و إن شرا فشر.

[38]و مثل آخر يهدينا إلى حقيقة المسؤولية و الجزاء أيضا نقرأه في قصة فرعون التي بقيت هي الأخرى آية بينة للناس.

]و في موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين[

لقد أرسل الله موسى إلى طاغوت عصره فرعون ، وزوده بسلطان مبين يتمثل في كلمة الحق و العصا و اليد البيضاء.

[39]و لكن ماذا كان جواب فرعون ؟

]فتولى بركنه[

كذب بموسى و سلطانه بكل وجوده وقواه سواء قوة جسده أو قوة جيشه.

]و قال ساحر او مجنون[

لقد احتار كيف يفسر حقيقة الرسالة إذا أنكرها ، فإذا كان صاحبه ساحرايبحث عن مال و مقام فلماذ يتحدى سلطانه ؟ لماذا لا يخضع له كما فعل سائر السحرة ؟ وإذا كان مجنونا فما هذه الحجة البالغة لديه و السلطان المبين ؟ ما هذه المعاجز التي تتوالى على يديه ؟

و هذا الترديد شائع عند كل الذين يكفرون بالحق ، و يعاندون أمام الحجج البالغة ، ذلك أن الحق يفرض نفسه على الساحة حتى لا يكاد أحد يقدر على التهرب منه.

[40]أنظر إلى عاقبة أمرهم ، لقد أخذهم الله بقوته فلم يقدروا على الفرار من جزائه العادل بمثل ما تهربوا من الحق الذي دعاهم إليه ، ثم ألقاهم في البحر كما ينبذ شيء يسير لا وزن له ولا قيمة.

]فأخذناه و جنوده فنبذناهم في اليم[

ولا يلام غيره . أفلم ينذره الله ، و أتم الحجة عليه فلم تنفعه شيئا ؟

]و هو مليم[

تلاحقه لعنة الله و الملائكة و الناس إلى يوم القيامة.

[41]و إذا تكررت صورة أخذ الطغاة و المجرمين فإن السنة واحدة ، و تلك السنة تصبح عبرة لمن شاء أن يعتبر ، ففي أرض الأحقاف الواقعة - حسب المفسرين - بين حضرموت و عمان كانت قبائل عاد تطغى و تفسد و تبطش بالناس كما الجبارون ، وجاءهم النذير فلم يستجيبوا له، فأرسل الله عليهم الريح لا لكي تلقح ثمارهم أو تحمل الغيث إلى أرضهم العطشى ، بل لكي تبيد ما أتت عليه من زرع و ضرع و إنسان و أثاث و بناء حتى لا تخلف وراءها شيئا فهي عقيم.

]وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم[

و قالوا في معنى العقيم : أنه الذي لا ينتج غيثا ولا لقاحا . و لعل العقيم هو الذي لا يذر شيئا بعده فتكون الآية التالية تفسيرا له.

[42]و يبدو أن الإعصار كان نارا و سما ، و هكذا لم يدع شيئا قائما على حاله بل أباد الأرض وما عليها و جعلها رميما .

]ما تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالرميم[

قالوا :من الرمة العظم البالي ، و الرمة الحبل البالي ، و الرم ما يقع على الأرض من التبن ، و قال : البعض الرميم الرماد ، و قال آخر : إنه الذي ديس من يابس النبات . إنه التراب المدقوق ، و قال ابن عباس : كالشيء الهالك البالي.

و يبدو لي أن الكلمة توحي بانعدام الشيء ، فإذا كان البناء يتهدم ، و إذا كان العظم أصبح مهشما ، و الحبل باليا ، و التراب رمادا لا حياة فيه .. و إذا صح هذا التفسير فإن تلك الأرض لا تصلح لإعادة الحياة فيها أبدا ، و هذا عاقبة طغيانهم و تحديهم لرسالات ربهم.

[43]و من جنوب الجزيرة العربية إلى شمالها حيث سكنت قبائل ثمود في منطقة) حجر) نقرأ ذات القصة ، و نجد ذات العبرة ، و تتجلى حقيقة المسؤولية و الجزاء.

لقد كفروا بالرسالات ، و تمردوا على رسولهم ، و عقروا الناقة ، فأمهلوا ثلاثة أيام ، فلم يقدروا على الفرار ، ولا نصرهم ما أشركوا به ، ولا نفعتهم الحيلة ، بل دمروا بالصاعقة شر تدمير .. و هكذا كانت في ثمود آية بينة.

]و في ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين[

قالوا :أنها الأيام الثلاثة التي أمهلوا فيها . و لعل المراد الفرصة التي سنحت لهم في الحياة الدنيا ، و الحرية المحدودة التي منحوا ليبتلي الله إرادتهم ، و لكنهم خالفوا رسوله بعقرهم الناقة التي كانت آية مبصرة لهم.

[44]فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون][٤٥] و بالرغم من أن الصاعقة نزلت بهم بعد أن أنذروا بها ، و علموا بوقوعها ، و نظروا إليها بالعين المجردة ، فإنهم لم يقدروا على مقاومتها أو الفرار منها.

]فما استطاعوا من قيام و ما كانوا منتصرين[

فلا قدروا على مقاومتها بأنفسهم ، ولا كان يقدر أحد على نصرهم.

[46]العذاب الذي توالى على المجرمين في الدنيا نذير لنا بأن عذاب الله واقع ، و أن الجزاء حق لا ريب فيه ، و أنه لا أحد يستطيع أن يهرب من مصيره الذي يرسمه بعمله.

]و قوم نوح من قبل[

كذبوا بآيات الله فأخذهم بالطوفان و لم تبق منهم إلا العبرة.

]إنهم كانوا قوما فاسقين[

تجاوزوا حدود الله ، و فسقوا على أمره ، فاختطفهم العذاب و فقا لسنة الله التي لن تجد لها تبديلا.

و ما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون

هدى من الآيات

اذا كان محور سورة " الذاريات " أن الهدف الاساسي من خلقه الجن و الانس هو عبادة الله فان خاتمة السورة تبين ذلك بعد ان تمهد له بتوجيهنا : الى السماء كيف بناها ربنا بقوة ، ولا يزال يوسعها ، و الى الارض كيف فرشها ، و مهدها لنا أفضل تمهيد ، و الى سنة الزوجية في كل شيء مخلوق ، تذكرنا بالخالق الغني المقتدر.

ثم يأمرنا بالاستعاذة بالله و الفرار اليه من ضعفنا ، و عجزنا ، و شرور أنفسنا ، و شرور العالم المحيط بنا.

و لكي لا نستسلم للضغوط يذكرنا : ان الرسول نذير مبين من عند الله ، و انه يحذر من مغبة الشرك بالله ، و الكفر بالرسالة ، و اتهام الرسول بأنه ساحر أو مجنون كما فعل الغابرون جميعا . حتى لكأنهم تواصوا بذلك بينما الحقيقة أنهم جميعا كانوا قوما طاغين ، فاذاتولى عنهم الرسول لا يكون ملوما لانهم جحدوا بالرسالة و لكنيجب الاستمرار في رعاية المؤمنين بالتذكرة لأنها تنفعهم.

و بعد هذا التمهيد الذي فيه تذكرة بآيات الله في الخليقة ، و تبصرة بدور الرسول في الانذار و البلاغ فقط فيما يتصل بالكفار ، و دور التذكرة فيما يتعلق بالمؤمنين .. ذكرنا الله بأهم غاية في الخلق وقال " : وما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون " و حقيقة العبادة التسليم لله و تهيئة النفس لاستقبال نور معرفته ، و تطهيرها من دنس الشرك و الفواحش الباطنة ، ثم العمل بكتابه.

و عبادة الله دليل رحمته ، و هكذا كان الخلق بهدف التفضل على المخلوقين ، ولا تصل أية فائدة من خلقه اليه ، فهو لا يريد منهم رزقا ولا طعاما ، بل هو الرزاق الذي يغمرهم بنعمه ، و هو ذو القوة الدائمة التي لا تزول فلا يحتاج الى نصرهم.

و في الخاتمة يحذر ربنا الظالمين بأن نصيبهم من العذاب مضمون لهم ، فلا يستعجلوه ، كما يحذر الكفار من ويلات اليوم الموعود.

بينات من الآيات

هل نظرت الى السماء في ليلة صافية .. هل حاولت مرة إحصاء نجومها ؟ لا ريب انك لو فعلت ذلك كللت ، لأنه كلما أدرت عينك رأيت نجمة غائرة في الفضاء اللامتناهي ، و إذا علمنا ان كل مجموعة نجوم تشكل مجرة واحدة ؟ لابد ان نذهل فعلا مما اكتشفه العلم من عدد نسبيلعدد المجرات التي تبلغ المليارات ..فهل ياتي يوم يستطيع الانسان أن يحصي نجوم السماء علما بأن ضخامة نجمة واحدة منها قد تبلغ حدا لو ألقى كوكبنا الأرضي فيها لضاعت كما تضيع حبة الرمل في الصحراء.

أي قوة بنت هذه السماء ؟!

]و السماء بنيناها بأيد[

والأيد هي القوة ، و لعل كلمة البناء توحي بالتدريج في الخلق و المتانة فيه ، و الصلة بين جزء و جزء

فيما بني ، و كل ذلك صحيح في أمر السماء.

]و إنا لموسعون[

ذهب المفسرون مذاهب شتى في معنى هذه الكلمة ، فقد قال ابن عباس ان معناها : إنا لقادرون ، و قيل : و إنا لذو سعة ، و قيل : وإنا لموسعون الرزق على خلقنا ، و قال الضحاك : اغنيناكم دليله : " على الموسع قدره " و قيل : جعلنا بينها وبين الأرض سعة)
. (1

و لعل هذا الإختلاف دليل صعوبة استيعاب ظاهر الآية في تلك البيئة العلمية التي كادت لا تعترف إلا بالأرض وما فوقها من اجرام علوية محدودة ، و إنا لنجد مثل هذا الإختلاف في كثير من الآيات التي تهدي الى حقيقة علمية كانت غامضة في تلك الايام.

علما بأن المعنى الظاهر للآية هو : ان ربنا المقتدر يوسع بناء السماء دائما ، و هذا ينسجم مع الحقائق العلمية التالية :

/ 1ان الأرض و سائر الكرات تمتص المواد الأثيرية المبثوثة في الفضاء ، كما لو كانت أجهزة تنظيف عملاقة تكنس الفضاء مما يسمح لها بالنمو دائما ، و قد قالوا : ان حجم المواد المبثوثة في الفضاء هو بحجم الاجرام الموجودة الآن ، أي أنها كافية لتكون المادة الآولية لخلق أجرام جديدة بعدد و بفخامة الأجرام الموجودة و ربما أكثر.

(1)القرطبي / ج ١٧ / ص ٥٢.

/ 2ان السماء في حالة امتداد دائم و كأنها كانت في يوم ما كرة واحدة ، و حدث فيها انفجار عظيم قبل (١٥) مليارد سنة ثم بدأت تتمدد ، و تتسع الفجوة بين أجرامها بصورة منتظمة و سريعة ، و كما يقول جورج كاموف : ان الفضاء المحيط بنا الذي يتشكل من مليارات المجرات هو في امتداد سريع . و في الحقيقة ان عالمنا ليس ساكنا ، و ان انبساطه لأمر مؤكد.

و ان معرفة هذه الحقيقة هي مفتاح ألغاز العالم ، إذ أن العالم لو كان في حالة امتداد الآن فلابد انه كان في وضع انقباض و تركيز شديد في يوم من الايام . (1)

و قد حدد بعضهم سرعة انبساط الاجرام ، و تباعدها عن بعضها بـ (٦٦) ألف كيلو متر في الثانية الواحدة (٢. (

و العجيب انها كلما ابتعدت عن بعضها ازدادت سرعتها كما قالوا.

الى أي مدى ستظل السماء تنبسط و تمتد و تتباعد أجرامها و اين ستقف وما هي عاقبة أمرها ؟

علم ذلك كله عند الله . إلا ان هذا التوسع العظيم لا يجري دونه تدبير و هيمنة من لدن سلطان العالم الذي يحفظ توازنه ، و يدبر أموره (سبحانه. (

/ 3يرى بعض علماء الفضاء : ان هناك أجراما سماوية تتكون مع الزمن ، و قد اكتشفوا في بعض زوايا هذا الفضاء الرحيب ما يبدو عندهم بدايات تكون الشموس التي تبدو أكثر لمعانا من الشموس الموجودة بكثير .

(1)تفسير نمونة / ج ٢٣ / ص ٣٧٤ نقلا عن جورج كاموف في كتابه خلقة العالم.

(2)المصدر / ص ٣٧٣ / نقلا عن فرد هوبل.

إن ألغاز السماوات لا تزال كثيرة و لعل الانسان يحل المزيد منها كلما تقدم في صنع أدوات جديدة لتصوير أجرام السماء ، و تحليل الأشعة التي تصل منها ، و ربما يعي الانسان يومئذ أبعاد هذه الآية وأمثالها بصورة أفضل.

/ 4و يقول الاستاذ بيار روسو ، في كتابه المؤلف عام ١٩٦٣ (من الذرة إلى النجم) : إن المجرات تقع في تسلسل النظام الفلكي فوق النجوم ، فالمجرة مجتمع يتألف من مئات ملايين ، أو مئات مليارات النجوم ، أو قل بالأصح : عددا لا يمكن أن يحصى حتى بأضخم و أدق الكمبيوترات من النجوم.

و المجرة التي نحن جزء منها تحتوي على مالا يقل عن مائتي مليار نجم ، يضاف إليها كتلة من المادة المبعثرة بين النجوم تتراوح بين ٣٠% و ٤٠% من الكتلة العامة.

و نكتفي هنا بالقول : إن عدد المجرات لا يحصى كما يبدو ذلك في الصور الفوتغرافية المأخوذة بواسطة المقاريب الكبرى.

ثم يتحدث عن تكون النجوم من الغيوم (أي المواد ما بين النجوم) : و وجود غيوم من المادة الكونية يحمل على الإعتقاد بان النجوم خرجت من الغيوم عند تكثفها تصبح نجوما ، و ليست هذه الظاهرة مجرد افتراض لأن الفلكيين عثروا في السماء على تحول من هذا النوع تم خلال سنوات معدودة.

أما الآن فما يجب أن نحفظه من هذه النظرة السريعة على العالم المجري أمران:

الأول : هو أن النجوم لم تكن موجودة منذ الأزل لكنها نشأت عن المادة الكونية في أوقات معينة.

الثاني :انها لم تتكون جميعها في آن واحد ، و أنها تتابع تكونها في أيامنا هذه ،و يعتقد الثقاة من علماء الفلك : أن عمر النجوم يدور حول ١٥ مليارد سنة.

و إذا حددنا عمر المجرة بخمسة عشر مليارد سنة ، فلا يعني ذلك أن الكون محتوم بهذه البداية ، و نحن نعلم الان أن المادة تتحول بلا انقطاع إلى طاقة (و بتعبير أصح إلى اشعاع) و في داخل الظاهرات الهائلة العاصفة في الآفاق الفضائية تعيد هذه الطاقة تكوين المادة بدون انقطاع ، و إن كان سياق إعادة الخلق هذا في غاية البطء.

[48]كيف مهد الله الارض لحياة البشر ، كيف تحطمت الصخور التي تكونت أصلا منها حتى أضحت ترابا مرنا ، يصنع منه المساكن ، و يشق فيه الطرق ، و يزرع فيه ما يشاء ؟ ولو كانت صلبة كصخور كوكب الزهرة أو رخوة كتراب القمر هل كنا نرتاح عليها ، و كيف اودع في ضميرها ما نحتاح اليها من مواد تخصب زراعتنا ، و تطهر أجواءنا و تمتص ما يضر بنا ؟!

]و الأرض فرشناها فنعم الماهدون[

بلى . يا ربنا ! أنت نعم الممهد و المهيء للارض لعيشنا سبحانك.

[49]و بين السماء التي هي آية قدرة الله ، و الأرض التي هي آية رحمة الله نجد الاحياء و النباتات و الأشياء التي جعلها الله يكمل بعضها بعضا . فاذا كانت الأرض تكمل الشمس ، و يكملها القمر ، فان البحر يكمل فوائد البر ، و هكذا السهل و الجبل ، و الإنسان وسائر الاحياء ، و كل أنواع النبات يكمل بعضها بعضا كما يكمل سائر المخلوقات.

]و من كل شيء خلقنا زوجين[

و تتجلى هذه الزوجية في أروع صورها بين الذكر و الانثى ، التي نراها في الانسانو الحيوان و النباتات ،

بل وفي كل شيء مخلوق حتى الذرة المتناهية في الصغر تجد فيها الجانب المنفي (المتمثل في الالكترون) و الجانب المثبت (المتمثل في البروتون. (

و هذا التكامل عنوان الحاجة المشتركة بين المخلوقات و التي هي بدورها تهدينا الى بصيرتين:

الف /الحاجة بذاتها نعمة ، و التحسس بها وقود التحرك ، و اشباعها لذة الوجود ، فلو افترضنا حياة بلا حاجة الى الطعام و الشراب و الراحة و الجنس فهل كانت لدينا رغبة فيها . انها اخت الموت ، و كلما ازدادت ، و اشتدت ، و تنوعت الحاجة كلما ازدادت و تنوعت و اشتدت اللذة في قضائها .. اليس الشبع بعد الجوع ، و الأمن بعد الخوف ، و النكاح عند الشبق أشد لذة و أعظم ؟!

باء /التكامل و خصوصا بين الزوجين دليلنا الى ربنا ، لان كل شيء يحتاج الى غيره ، فلا يتصور فيه الاستقلال و الالوهية لشهادة كل محتاج انه فقير محدود و مدبر ، و ان له ربا غنيا ، واسعا مدبرا.

ثم أن تدبير التكامل ، و تأليف التزاوج ، و تنظيم شؤونهما دليل الى المدبر المنظم سبحانه.

وهو في الوقت ذاته شاهد على أن المدبر غير محتاج ، و انه غير محدود ، و انه لا ند له ولا نظير.

جاء في الحديث عن الامام الرضا (عليه السلام) : " بتشعيره المشاعر عرف ألا مشعر له ، و بتجهيره الجواهر عرف ألا جوهر له ، و بمضادته بين الاشياء عرف ألا ضد له ، و بمقارنته بين الاشياء عرف ألا قرين له ، ضاد النور بالظلمة ، و اليبس بالبلل ، و الخشنباللين ، و الصرد بالحرور ، مؤلفا بين متعادياتها ، مفرقا بينمتدانياتها ، دالة بتفريقها على مفرقها ، و بتأليفها على مؤلفها ، و ذلك قوله : " ومن كل شيء خلقنا زوجين اثنين لعلكم تذكرون " . ففرق بين قبل و بعد ليعلم ألا قبل له ولا بعد له ، شاهدة بغرائزها ألا غريزة لمغرزها ، مخبرة بتوقيتها ألا وقت لموقتها ،حجب بعضها عن بعض ليعلم ألا حجاب بينه و بين خلقه " (١. (

]لعلكم تذكرون[

فتزدادون معرفة بالله كلما أحسستم بالحاجة ، و كلما قضيت لكم . حقا إن معرفة الله هي الهدف الأسمى لخلقة العالم . أوليست المعرفة هي السبيل الى التقرب الى الله ، و الأنس بمناجاته ، و الفلاح بذكره.

[50]و لكن كيف نتسامى الى الله وقد أحاطت بنا عوامل النقص و العجز ، فمن نفس أمارة بالسوء تسول لنا الذنوب و تسوفنا التوبة ، الى شيطان يغوينا يزين لنا الموبقات ، و يملأ أفئدتنا بالتمنيات و الوساوس والظنون ، و الى طغاة الأرض الذين يضيقون علينا مذاهب الحياة حتى نسلم لهم أمورنا ، و نشركهم في ديننا و دنيانا ، و الى مجتمع فاسد ، و تربية مفسدة ، و ثقافة ضالة .. و ..و .. كل هذه العوامل تهبط بنا الى واد سحيق . فكيف نتسامى الى الله ، و نحرز الفلاح ؟!

القرآن الكريم يجيب على ذلك:

]ففروا إلى الله[

استعيذوا به من كل شر تذكروه ، ناجوه ، و اعتمدوا مناهجه التي اوحى بها ، أطيعوا من أمركم بطاعته ، و الوا من أمركم بولايته.

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٣٠.

و الادعية المأثورة عن أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله زاخرة بمعاني الاستعاذة بالله ، والالتجاء اليه

، و الفرار من سخطه : واليك بعضا منها:

"الحمد لله ، و الحمد حقه ، كما يستحقه ، حمدا كثيرا ، و أعوذ به من شر نفسي . إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ، و أعوذ به من كل جبار فاجر ، و سلطان جائر ، و عدو قاهر . الله اجعلني من جندك فان جندك هم الغالبون ، و اجعلني من حزبك فان حزبك هم المفلحون ، و اجعلني من أوليائك ، فان أوليائك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون " (١. (

و نحن نفر الى ا لله و نستعيذ به ليس فقط من تلك العوامل ، بل وأيضا من سخطه و عذابه كما نقرأ في دعاء سيد النبيين محمد (صلى الله عليه وآله: (

"أعوذ بنور وجهك الذي أضاءت له السموات و الأرضون ، و انكشفت له الظلمات ، و صلح عليه أمر الأولين و الآخرين من فجاءة نقمتك ، و من تحويل عافيتك ، و من زوال نعمتك " (٢. (

و نقرأ في الدعاء الماثور عن الصادقين عليهما السلام:

"اللهم إني إليك فقير ، و من عذابك خائف مستجير . اللهم لا تبدل إسمي ، و لا تغير جسمي ، ولا تجهد بلائي ، ولا تشمت بي أعدائي ، أعوذ بعفوك من عقابك ، و أعوذ برحمتك من عذابك ، و أعوذ برضاك من سخطك ، و أعوذ بك منك ، جل ثناؤك . أنت كما أثنيت على نفسك ، و فوق ما يقول القائلون " (٣. (

]إني لكم منه نذير مبين[

(1)مفاتيح الجنان / دعاء يوم الثلاثاء.

(2)مفاتيح الجنان / أعمال النصف من شعبان.

(3)المنتخب الحسني / ص ٧٤٧.

و هكذا فالانسان بين خطرين : أحدهما يسير و سريع الانقضاء ، و الثاني عظيم دائم ، فلينظر لنفسه كيف يختار ؟ فلو استسلم للضغوط ، و أشرك بالله فانه يتجنب الخطر اليسير ، و يحيق به الخطر الأكبر ، بينما لو فر الى الله و استجار بذمامه المنيع فانه ليس فقط يتجنب الخطر العظيم المتمثل في غضب الله الجبار ، و عظيم عذابه ، بل ويغيثه الرب و ينقذه من الخطر الآخر.

[51]و هكذا بعث الله النذير المبين ليدعوهم الى نفسه ، و ليحذرهم من عاقبة التمرد عليه ، و الاشراك به.

]ولا تجعلوا مع الله إلها آخر[

فانه لا ينقذكم من أخطار الدنيا ، و يسبب لكم غضب الرب و عذابه.

]إني لكم منه نذير مبين[

وكم تكون خسارة الانسان كبيرة ، و ندمه عظيما حينما تصم أذنه عن هذا النذير المبين.

[52]ما الذي جعل البشر يكفرون بهذا النذير المبين ، و يخسرون أنفسهم وإلى الابد ؟

إنه الطغيان الذي انطوت عليه أنفسهم ، انها الذاتية المقيتة ، لذلك تراهم يتهمون النذير بتهم متناقضة لكي يبرروا كفرهم به.

]كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون][٥٣] كانت تلك تهمة هدفها الطغيان و الكفر ، يكررها كل الكفار على امتداد التاريخ ، حتى ليخيل للانسان ان بعضهم يوحي لبعض بذلك ؛ بيد ان الحقيقة اشتراكهم جميعا في تلك النفسية الطاغية التي تفرز مثل هذه التهم.

]أتواصوا به بل هم قوم طاغون[

ان ذات التهم التي افتراها قوم نوح قبل ألوف السنين ضد نبي الله العظيم) عليه السلام) نجدها اليوم مثلا على ألسنة الذين يخالفون الدعاة الى الله ، المنذرين الناس عذابه ، ذلك أن أشياء كثيرة تتغير في حياة البشر إلا انها لا تمس جوهر وجوده ، و الغرائز التي تنطوي عليها نفسه.

و هكذا ينبغي ألا ننزلق - نحن الذين نتلوا آيات القرآن - في هذا الوادي فكلما دعانا الى الخير داع ، أو أنذرنا عن الشر منذر أتهمناه في عقله أو في نيته.

و لعل أخطر شر يجب أن نفر منه الى الله ، و نجأر اليه ليخلصنا منه هو هذا الطغيان الذي تنطوي عليه أنفسنا (أعاذنا الله من شرورها. (

[54]و حين يبلغ الرسول قومه الانذار تتم الحجة عليهم ، و تنتهي عندئذ مسؤوليته ، فلا يظن أحد أن الرسول يكون وكيلا عنه ، و مسؤولا عن هدايته بطريقة أو بأخرى . كلا .. انه لا يلام على كفرهم بعد الانذار المبين.

]فتول عنهم فما أنت بملوم[

[55]بلى . المؤمنون يظلون موضع رعاية و عناية من لدن رسول الله ، الذي لا يني يذكرهم بربهم ، لأنهم يستفيدون من الذكرى.

]وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين[

و قد روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) انه قال:

"لما نزل : (فتول عنهم فما أنت بملوم) لم يبق أحد منا إلا أيقن بالهلكة حين قيل للنبي (فتول عنهم) فلما نزل (و ذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين (طابت أنفسنا " (١. (

[56]ما هي الغاية الأسمى لخلق الجن و الانس ؟ الخليقة سخرت للانسان ، الشمس و القمر ، و السحاب و الرياح ، و السهل و الجبل ، و الانعام و الطيور و الاسماك و .. و .. كلها مسخرات للانسان . أولا نتفكر هل الممكن أن تكون خلقة البشر بلا هدف ؟

كل شيء يخدم هدفا ، بل لكل جزيئة من جزيئات وجود كل شيء غاية . أفيمكن ألا تكون لوجود الانسان - سيد مخلوقات كوكبنا -أية غاية ؟!

أو يتخذ رب السماوات و الأرض من الخلق لعبا - سبحانه - وهو الغني الحميد ، و العليم الحكيم ؟!

تعالوا اذا نتفكر : هل خلق أي عضو من أعضاء أجسادنا عبثا ، حتى ولو كانت قطعة من المصران ، أو غدة صغيرة ، أو حتى خلية واحدة ، واذا كان الجواب بالنفي حسب كل معلومات الطب و الفسلجة ، فكيف يكون مجمل خلق الانسان بلا هدف ؟!

فما هو الهدف اذن ؟

أو يكفي ان نجعل الهدف الطعام و الشراب . دعنا نستنطق عقولنا ، و وجدان(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص

قلوبنا ؟! أو نقتنع من أنفسنا أن نأكل ، و نشرب ، ونتمتع . أو لأنا نجد فراغا كبيرا لابد أن نملأه بغير اللذات العاجلة.

اننا نسعى جميعا نحو العلم و الفضيلة ، و نعطي لهما قيمة أسمى من قيمة الثروة و القوة ، و نتساءل : ما هي أعلى درجات العلم ؟ أوليست معرفة الله الذي نعرف به حقيقة أنفسنا ، و الواقع المحيط بنا . فمن دون معرفة الله تبقى كل الأسئلة حائرة.

كذلك أسمى درجات الفضيلة تقوى الله ، و ابتغاء مرضاته ، و القرب منه.

و تتلخص معرفة الله و تقواه في كلمة العبادة ، التي يجعلها القرآن الكريم غاية خلقة البشر فيقول:

]وما خلقت الجن و إلانس إلا ليعبدون[

فما هي العبادة ؟ قالوا : اصل العبودية الخضوع و الذل ، و التعبيد : التذليل ، يقال : طريق معبد (١) ، و يبدو لي أن أصل معنى العبودية ليس التذلل و الخضوع - كما قالوا - بالرغم من أن ذلك من لوازمها ، بل صلاح الشيء بحيث يكون مهيأ للاستفادة او بتعبير آخر:
عدم وجود ما يمنع الانتفاع منه ، و لذلك قيل سفينة معبدة وانما سمي الطريق معبدا لانه خال من الثغرات و العثرات ، و الا فان كل الطرق وكل الاراضي خاضعة وذليلة ، فلماذا لا تسمى بالمعبدة ؟ وإنما سمي الرقيق عبدا لانه لا يمتنع عن طاعة مولاه ، وهكذا يكون أصلالكلمة الطاعة و التسليم.

فما معنى عبادة الله وما هي أبعادها ؟ هنالك حقائق لابد أن نعرفها لكي نعرف شيئا عن عبادة الله:

(1)القرطبي / ج ١٧ / ص ٥٦.

أولا :اولئك الذين يخضعون لغير الله ، و يتخذون أهواءهم إلههم من دون الله أو يعبدون الطغاة و المترفين ، أو يقدسون التراث و التقاليد انهم بعيدون عن هدف الخلق ، لأن عبادة الله تعني تحرير الانسان من الشركاء من دونه ، و لعل الآية التالية تشير الى ذلك:

"أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا " (١) . و قال سبحانه : " يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء و الأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون " (٢. (

و جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام : " إن الله عز وجل ما خلق العباد إلا ليعرفوه ، فاذا عرفوه عبدوه ، فاذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه " فقال له رجل : يا ابن رسول الله ! بابي أنت و أمي فما معرفة الله ؟ قال : " معرفة أهل كل زمان إمامهم الذي تجب عليهم طاعته. (3) "

و حسب هذا الحديث يكون تحرر الانسان عن عبادة غير الله الغاية الأسمى للخلق ، كذلك نجد توحيد الله المحور الرئيسي لكل سور الذكر وآياته.

ثانيا : ان عبادة الله لا تتم إلا بمعرفته ، و ان معرفته لا تكتمل إلا بعبادته ، لأن في معرفته التزلف إليه ، و التقرب من رضاه ، و لذلك جعلت معرفة الله أو معرفة آياته هدفا من أهداف الخلق حسبما قرأنا في النص السابق و نقرؤه في قوله سبحانه : " الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير و أن الله قد أحاط بكل شيء علما " (٤. (

(1)الكهف / ١٠٢.

(2)فاطر / ٣.

(3)عن علل الشرائع / تفسير البصائر / ج / 41ص ١٣٤.

(4)الطلاق / ١٢.

و لكن كيف يمكن بلوغ كمال المعرفة الالهية ، من دون التسليم له ، و طاعته و عبادته ، علما بأن معرفته لا تكون إلا به ، وكيف يكون غيره دالا عليه ، و بنوره أشرقت السماوات و الأرض ، أو يكون لغيره من الظهور ما ليس له حتى يكون هو المظهر له سبحانه ؟!

وهو لا يمنح معرفته إلا لمن سلم له ، و عبده وحده ، و هكذا تكون العبادة هدفا للخلق لانها السبيل الى المعرفة.

ثالثا :هل يمكن أن يبلغ الانسان الفلاح في الدنيا و الآخرة من دون شريعة واضحة يسير عليها ، و هل يمكن تطبيق الشريعة بغير الايمان بالله ، و التسليم لأوامره ، و هل يمكن تطهير القلب من أدرانه ، و تحريره من أغلاله بغير معرفة الله ، التي تجعل النفوس في رحاب قدسه ، بعيدة عن الأنانية و الشح ، والغضب ، و نائرة الشهوات ؟! كلا .. إن معرفة الله ، و التسليم له هما السبيل الى طرد جنود الشيطان من القلب ، و تنظيفه من وساوسه ، و ظنونه ، و أمانيه ، و تخلقه بأخلاق الرب ، و تأديبه بادابه السامية من الكرم ، و الايثار ، و الاحسان ، و التقوى ، و حب الخير و اهله ، لذلك نجد في آيات الذكر ما يوحي بان هدف الخلق هو الخلق الرفيع . لنقرأ الآيات التالية:

في تسع آيات قرآنية جعل الله الشكر هدفا لنعمة الخلق أو سائر النعم كقوله سبحانه:

"وجعل لكم السمع و الأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون " (١. (

"لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله و لعلكم تشكرون " (٢. (

(1)النحل / ٧٨.

(2)الجاثية / ١٢.

كما جعلت التذكرة غاية الخلق في قوله سبحانه في هذه السورة:

"ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون " (١. (

وهكذا جعل التعقل هدفا في قوله سبحانه:

"ولتبلغوا أجلا مسمى و لعلكم تعقلون " (٢. (

كما جعل الابتلاء هدفا أساسيا للخلق في آياته عديدة كقوله سبحانه:

"الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا " (٣. (

و الامتحان بدوره سبيل لتكامل الانسان ، و تطهيره من الجوانب السلبية التي فيه.

التكامل .. الهدف الأسمى:

من خلال البصائر التي ذكرت نعرف : أن تسامي الانسان في معارج القرب من الله سبحانه هو الهدف الأسمى لخلقه ، و يتمثل ذلك في تحريره من نير العبوديات ، و تطهير قلبه من غل الهوى و الشهوات ، و تساميه في مدارج المعرفة بالله سبحانه ، و التقرب إليه بالصالحات.

واذا تسامى الانسان الى حيث القرب من الله فان رضوان الله وغفرانه ورحماته وسائر نعمائه وآلائه يكون كل ذلك قد سبقته هناك لتشمله ، و من هو أولى من الله بأن يقري عبده الذي حل بجنابه ضيفا ، و من هنا جعلت الرحمة هدفا للخلق في آية(١ (الذاريات / ٤٩.

(2)غافر / ٦٧.

(3)الملك / ٢.

كريمة حيث يقول سبحانه:

"و لو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم " (١. (

[57]و لكن الغاية التي نتحدث عنها ليست بمعنى العلة التي لدينا فنحن إذا فعلنا شيئا فلابد من علة تدفعنا إليه ، و غاية نسعى إليها . فالعطش علة الشرب ، و الجوع علة الاكل ، و الرقة علة العطف ، أما الارواء و الشبع و الاحسان فهي أهداف و غايات.

و تعالى الله عن أن يكون لفعله سبب و يدفعه ، و علة تجأره ، و تجبره . إنه الغني الحميد ، عطاؤه محض رحمة منه ، و فضله محض إرادة ، لا يبرمه إلحاح الملحين ، و كما جاء في الدعاء:

"تقدس رضاك أن تكون له علة منك فكيف تكون له علة مني . إلهي أنت الغني بذاتك أن يصل اليك النفع منك ، فكيف لا تكون غنيا عني " (٢. (

و ان اللام الذي جيء بها في سياق بيان الهدف من الخلق " ليعبدون " ليس بمعنى : أن الله سبحانه سعى نحو هذه الغاية بهذه الوسيلة - وهو الغني بذاته - و انما بمعنى : أنه قدر و قضى ليكون ذلك وسيلتنا اليه ، و طريق سعينا ابتغاء مرضاته ، و مدارج كمالنا في وجودنا ، كما أن الطهارة غاية الوضوء ، وذكر الله هدف الصلاة ، و التقوى نتيجة الصيام ، فان العبادة غاية الخلق و محتوى ما أمر الاسلام به من واجبات.

(1)هود / ١١٨ - ١١٩.

(2)دعاء عرفة للامام الحسين (عليه السلام) / المنتخب الحسني / ص ٩٢٥.

و لعله لذلك أكد ربنا على أنه غني بذاته عن خلقه ، و عن أي فعل يمارسونه فقال سبحانه:

]ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون[

فلا يتصور أي فائدة تصل الى الله - سبحانه - من خلال خلقه ، و حتى ما قيل) بأن الله سبحانه كان كنزا مخفيا ، فأراد أن يعرف) لم أجد مصدره و حتى لو كان لهذه الكلمة مصدر موثوق فان علينا تأويله بما لا

يتنافى ونص الآية الكريمة ، و حكم العقل بأن الله لا تصل اليه منفعة من لدن خلقه و الظهور بعد الخفاء نوع من المنفعة ، و لذلك نقرأ في الدعاء المأثور:

"كيف يتسدل عليك بما هو في وجوده مفتقر اليك ، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدل عليك " (١. (

و يبدو أن الفارق بين الرزق والاطعام هو أن الرزق يستمر ، بينما قد يكون الطعام مرة واحدة ، و قد لوحظ في كل منهما معنى الاستفادة و المنفعة ، و كأن المرزوق يعتمد في بقائه على الرزق أو الطعام الذي هو مفردة من مفردات الرزق.

[58]و كيف يحتاج الى الرزق من يعتمد عليه الخلائق جميعا في حياتهم، فلولا دوام فضله ، و تواتر نعمه ، و تواصل رزقه لم يبق شيء مخلوق.

]إن الله هو الرزاق[

و الرزاق لا يكون مرزوقا.

(1)المصدر / ٩٢٤.

]ذو القوة المتين[

فلا ضعف فيه حتى يحتاج الى الطعام ، ولا نقص حتى يحتاج الى إتمام ، و قوته ليست عرضية بل هو متين شديد ، فهو سبحانه لا يغلب ولا تلحقه مشقة في أفعاله أو رهق.

و ربما تدل الأية على أن رزق الله - سبحانه - يتوالى على عباده بعبادتهم ، و كذلك قال ربنا سبحانه على لسان نبيه الكريم نوح - عليه السلام - : " فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا * و يمددكم باموال و بنين و يجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . (1) "

[59]و لتبقى مصائر الغابرين عبرة للأجيال ، ولابد أن نعرف أنها خاضعة لسنة إلهية لا تتبدل ولا تتغير ، فلقد أهلك الظالمين لظلمهم ، وسوف يهلك من سار على دربهم عاجلا أو آجلا.

]فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون]وما لهم يستعجلون الله و رسوله في عذاب يصيبهم ، تقدم أو تأخر و هل يستعجل أحد هلاكه ؟!

قالوا :الذنوب : الفرس ذو الذنب الطويل ، و سمي به الدلو الكبير الذي يربط في نهايته الحبل لتسهيل عملية التفريغ ، و يبدو ان العرب كانوا يتعاونون في نزح مثل هذا الدلو على أن يكون كل ذنوب لطائفة منهم و أنشدوا:

(1)نوح / ١٠ - ١٢.

لكم ذنوب ولنا ذنوب فإن أبيتم فلنا القليبو هكذا استخدمت الكلمة بمعنى النصيب ، و لعله النصيب الذي يشترك فيه طائفة من الناس ، فيكون معنى الآية : إن لهم نصيبا من الذنوب يصيبهم بعد نصيب السابقين . أي ان لهم دورهم فلينتظروا ولا يستعجلوا ، كما أن لكل قوم دورهم في تقسيم الماء ذنوبا لهؤلاء وذنوبالأولئك على الترتيب.

و قال بعضهم : باعتبار أن الذنوب هو في الأصل الدلو الذي يصب فان العذاب يصب عليهم صبا.

و يبقى سؤال : لماذا استخدمت كلمة الظلم فيهم مع انهم كانوا كافرين يبدو ان الظلم أعم من الكفر و الشرك ، يشملهما ، و يتسع لغيرهما فيكون المعنى : ان عاقبة الظلم سواء كان بدرجة الكفر و الشرك أو أقل منهما و خيمة ، تستنزل النقمة على صاحبه.

[60]أما الكفار فلهم الويل في يوم الوعيد الصادق ، الذي أنذروا به في فاتحة السورة.

]فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون[

انهم هالكون في ذلك اليوم ولا يأسف لمهلكهم أحد أبدا ، انما تلحقهم اللعنة لانهم مسؤولون عن هلاكهم.

وفي نهاية تلاوتنا لسورة " الذاريات " نستعيذ بالله من كل شر ، و نفر الى جنابه من كل خوف ، و نبتهل اليه ضارعين:

"اللهم اني أسألك من كل خير أحاط به علمك ، و أعوذ بك من كل شرأحاط به علمك .اللهم إني أسألك عافيتك في أموري كلها ، و أعوذ بك من خزي الدنيا و عذاب الآخرة " (١. (

المنتخب الحسني / ص ١٠٥.

سورة الطور

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمال باسناد ، عن أبي عبد الله وأبي جعفر (عليهما السلام (قالا : " من قرأ سورة (الطور) جمع له خير الدنيا و الآخرة. "

تفسير نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٣٥

الإطار العام

قسما بالطور ، و الكتاب المسطور . قسما بالبيت المعمور ، و بالسقف المرفوع . قسما بالبحر المسجور : إن عذاب الله حق ، و إنه واقع بالتأكيد.

بهذه الكلمات الصاعقة تفتتح السورة التي جاءت لشفاء الإنسان من مرض الجدل ، و ما أكثره جدلا ! متى يصدق بهذه الحقائق ، أفي يوم تمور السماء مورا ، وتسير الجبال سيرا ، و هل ينفعه التصديق يومئذ حيث يصب الويل للمكذبين ؟

إنهم لم يكونوا يابهون بالنذر ، كانوا سادرين في لعبهم ، فهل لهم أن يستمروا كذلك يوم يدعون الى نار جهنم دعا ، و هل لهم أن يكذبوا بنارها التي تتقد أمامهم ؟!

أم يقولون يومئذ : انها خيال و سحر زائف ؟! ليس المهم ما يقولون ، ولا أنهم يصبرون يومئذ على النار أم لا يصبرون ، لانهم مواقعوا النار يصلون لهيبها بما كانوا يعملون..

هكذا تتواصل الآيات تستزيح من نفس الإنسان حالات الجدل و اللعب و التهرب من الحقائق بالاعذار التافهة ، و لكي لا يستريح الإنسان إلى الرخاء الظاهر والأمن الموقت الذي يعيشه اليوم لابد أن يتحسس ذلك اليوم الذي يهتز فيه كل شيء ، من السماء التي كانت سقفا محفوظا ، إلى الجبال التي كانت ركنا شديدا.

ثم يرسم السياق لوحة بارعة الجمال تتجلى فيها صورة أهل الجنة وهم يتنعمون في جنات واسعة ، بعيدين عن عذاب الجحيم ، ياكلون و يشربون بما عملوا من الصالحات في حياتهم الدنيا ، و قد استراحوا على سرر مصفوفة ، و زوجهم الله بحور عين ، و حولهم الصالحون من ذريتهم ، و وفر الله لهم النعم من الفاكهة و اللحم و الكأس الكريم ، و يتذاكرون نعم الله عليهم أفليس قد كانوا مشفقين في أهلهم ، و جلين من عذاب جهنم ، فقد وقاهم ربهم بمنه عذاب السموم .

و بعد أن نشاهد هذه اللوحة التي تثير اشتياق النفوس الكريمة يتناول السياق ما يبدو انه الموضوع الرئيسي للسورة ، وهو معالجة حالة الجدل في الحقائق الواضحة ، و ذلك بتسفيه الاعذار التي يتشبث بها الانسان للتهرب عن قبول الحق ، و هي مظاهر مرض الجدل الخطير..
لقد قالوا : إن الرسول كاهن أو مجنون ، و قالوا بل هو شاعر فإذا مات انتهت دعوته ، و قالوا انه افتراه .. كل تلك الدعايات تتلاشى حينما يضعها الإنسان في إطار الحقائق الكبرى ، و يتصور نعم الله التي يسبغها عليه (من الطور و كتاب مسطور و السقف المرفوع و .. و..) و عندما يتحسس يوم القيامة عندما تمور السماء مورا ، و تسير الجبال سيرا ، كذلك تتلاشى أفكار مشابهة مثل التفكير في عدم الحاجة إلى البارىء.

و يتساءل السياق : إذا هل هم خلقوا أنفسهم ؟ أم أنهم خلقوا من غير شيء ؟ و من الذي خلق السماوات و الأرض ؟ كلا .. بل لا يوقنون ، و هذه هي مشكلتهمالأول . ومن يريد الفرار من الحقيقة الواضحة لا يجد أمامه سوى هذه الخرافات.

و يمضي الذكر الحكيم في بيان ضلالاتهم و تفنيدها : فمن يا ترى يسيطر على خزائن السموات و الأرض ؟ ثم يقولون : ان لله البنات فهل لهم البنون ولله ما يعتبرونه الأدنى أي البنات ! ما لهم كيف يحكمون ؟!

أم تراهم يخشون من دفع غرامة إن هم آمنوا . او يطالبوا باجر . أم أنهم يعلمون الغيب بوضوح فيعتمدون عليه في تخرصاتهم .؟

و بهذه التساؤلات الحادة المتتالية يستثير القرآن عقولهم و وجدان ضمائرهم حتى يروا بطلان تلك الأفكار بانفسهم.

ثم يقول : " أم يريدون كيدا "، و يبدو أن هذا هو جواب التساؤلات ، و لكن ، يعلموا أنهم هم المكيدون ، و أنه لا إله إلا الله الواحد لا شريك له ، ولا علاج لمثل هؤلاء عندما يرون العذاب فيقولون سحاب مركوم ، فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون.

و بعد أن يذكر القرآن أولئك الكفار بان عذاب الدنيا نذير لعذاب الآخرة يأمر الرسول و المؤمنين بالصبر لحكم الله فإنه وهم في رعاية رب العزة ، و يامره وإياهم بالتسبيح ليلا وعند الأسحار.

إن عذاب ربك لواقع
بينات من الآيات
سبحان الله عما يشركون
هدى من الآيات

يعالج هذا الدرس الحجب التي منعت الكفار عن الإيمان بالرسالة . إنهم لم يعرفوا كيف يمكنهم أن يبرروا موقفهم من الوحي ، فقالوا عن الرسول بأنه كاهن ، ثم اتهموه بالجنون ، بل وسموه شاعرا ، ثم أكدوا ضلالتهم بعدما تبين لهم بطلان التهم السابقة و قالوا بأنه ساحر ، و لكن الأمر ليس كذلك ، إنما هم طاغون لا يريدون الايمان بالحق تهربا من المسؤولية فبحثوا لموقفهم عن تبرير فلجأوا إلى تلك التهم

الرخيصة ، فموقفهم كما تبريراتهم اذا ليس بمعقول ، و الجدال معهم لا ينبغي أن يكون جدلا عقليا ، إنما ينبغي أن يهز ضمائرهم ،لذلك نجد في الآيات تهديدا مبطنا بالعذاب : " قل تربصوا إني معكم من المتربصين " كما نجد في الآيات من جهة أخرى إثارة للكفار نحو التفكر في الخلق من حولهم ، ليكبحوا جماح الغرور في أنفسهم ، و يخرجوا من قوقعة الذات إلى الآفاق الواسعة.

إن استثارة عقل الانسان نحو التدبير في الآفاق (الطبيعة و القوانين التيتحكمها) ركيزة أساسية للتربية و التوجيه في نهج القرآن ، و لكن ربط هذا التدبر بما يجري داخل النفس البشرية هو المهم في المنهج ، لذلك يبدو واضحا في كثير من الآيات أن القرآن يريد بناء جسر بين الآفاق حتى أبعد مدى فيها و بين النفس حتى أعمق غور منها.

بينات من الآيات

[29]تزدحم التهم و الاشاعات ضد كل مصلح رسالي بمجرد ان يرفع راية الاصلاح ، فإذا به يدعى كاهنا أو مجنونا أو عميلا يتصل بجهات خارجية ، من أجل تحطيمه أو الضغط عليه في اتجاه التخلي عن رسالته ، فيجب إذن أن لا يفاجأ أي عامل إذا ما تعرض لذلك في مسيرته ، بل يعتبره أمرا طبيعيا ، و يستمر في حركته حتى يبلغ إحدى الحسنيين ، متوكلا على ربه ، و مهتديا بوحيه ، واثقا بنفسه.

و رسولنا الأكرم محمد بن عبد الله (ص) وهو الأسوة العظمى لنا ، كان عرضة لمختلف الدعايات و التهم و لأنواع شتى من الأذى ، و إذا لم تكن ثقته بربه و برسالته و بنفسه ثقة عميقة لم يستمر ، و مع ذلك أمره الله بالاستمرار في دعوته قائلا:

]فذكر فما انت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون[

و هذه الآية تنفي عن النبي (ص (جميع التهم التي وجهت اليه بالتالي:

- 1أن رسالته تثير دفائن العقول البشرية بالتذكرة.

- 2أن التذكرة التي جاء بها الرسول ليست من عنده ولا من أحد ، إنما هي نعمة من الله تصله عبر الوحي ، ومن دونها لا يكون رسولا ولا مذكرا.

و بهذين الدليلين نهتدي إلى أن الرسول ليس بكاهن لأن الكاهن هو الذي يتنبأ بالمستقبل دون أن يستثير العقل ، فتراه يصيب مرة و يخطيء مرات ، بينما لا نجد ولا خطأ واحدا في آيات الله ، و ليس بمجنون لأن ما يصدر عن المجنون لا يلتقي مع العقل ، بينما تلتقيالرسالة معه بكل مفرداته دون استثناء ، وهو يعتمد خطة واضحة في تحركه هي رسالته ، و ليس بمجنون - حاشا لله - لأنه ينبعث عن منطلقات إيمانية و عقلية ، و حسابات علمية بالغة الدقة نافذة الحكمة.

كما يتميز النبي بالشجاعة و التوكل والثقة ، بينما المجنون لا يعتمد على شيء ، و ليس الرسول بشاعر لأنه يستثير العقل ، بينما يعتمد الشاعر على إثارة مشاعر الانسان ، و أداته الخيال و المبالغة ، و أخيرا ليس بساحر لأن الساحر إنما يلعب بخيال البشر ، و يسحرعيونهم ، و لا يفلح الساحر حيث أتى ، فهل رأيت ساحرا يقود أمة او يصنع تاريخا أو حتى يجمع ثروة طائلة أو يكتسب جاها عريضا ؟ كلا .. لأن الساحر لا يعيش حقائق الحياة حتى يسخرها لمصلحته او لقضيته بل يتقلب في سحره مع التمنيات و الظنون ، هذا أولا ، و ثانيا تلتقي التهم الموجهة الى النبي (ص) في كون المذكورين يعتمدون على قوى ليست مشروعة في نظر العرب أنفسهم ، فالكاهن يعتمد على اتصاله بالشياطين أو على مجرد الحدس ، و المجنون هو الذي سحرته الجن فهي توحي له بتصرفاته و أقواله ، و الذي اعترته الآلهة بسوء كما قالوا من قبل لهود (ع) : " إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء " ، و الشاعر هو الذي يحس بما لا يحس به الآخرون ، ويتلقى الالهام من الآلهة أو قوى أخرى كالجن ، و الساحر هو الذي يستغني بالشياطين و العفاريت أو يسخرهما ، أما الرسول (ص) فهو يتصل عبر الوحي بالله خالق الخلق و يعتمد عليه.

و القرآن إنما يثبت هذه التهم ليعكس للرساليين عبر التاريخ طبيعة المسيرة التي ينتمون إليها من جانب ، و من جانب آخر لبيان اعتراف الأعداء بجوانب منشخصية الرسول (ص) ، فهم بهذه الاتهامات يعترفون

ضمنيا بقوته و تأثيره في الناس ، فتهمة الكهانة تعكس صدقة ، و تهمة الجنون تعكس شجاعته ، و تهمة الشعر تعكس بلاغته و قوته على الاقناع ، و تهمة السحر تعكس تأثيره العملي في المجتمع ، إلا أنهم يسعون بهذه التسميات إلى النيل من شخصيته ، و تحوير الحقيقة لكي لا يتأثر أحد.

[31 - 30]إن الحيرة التي وقع فيها المشركون و الكفار و عدم ثباتهم على تهمة معينة دليل واضح على اتباعهم الظنون لا العقل في تقييم رسالته و شخصيته ، مما يدل على أنه جاء بحركة جديدة لم يستطيعوا لها تفسيرا ولا تأويلا ، و قد يدلل اتهامهم له بالشعر بعد الكهانة و الجنون - مع كون الشاعر في نظر العرب أعلى ثقافة من الآخرين - على تنازلهم أن لأخريتين الماضيتين.

]ام يقولون شاعر نتربص به ريب المنون[

و لكن الرسول يختلف عن الشاعر ، و رسالته ليست شعرا للأسباب الأساسية التالية:

- 1إن الشاعر - وفي ذلك العصر بالذات - يعتبر تعبيرا بليغا عن الثقافة القائمة ، بينما الرسالة خارجة عن إطار الثقافة الفاسدة الواقعية الشائعة في المجتمع ، و الذي يقرأ أشعار العرب يلاحظ فيها و بوضوح تعبيرا صريحا عن الروح القبلية ، و عن الأضغان و الفرقة و سائر مفردات الثقافة القائمة على الواقع ، كقول الفرزدق:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامعأو كقول جرير:

فغض الطرف إنك من ثقيف فلا كعبا بلغت ولا كلابا٢ - أن الشعر يعبر في كثير من الأحيان عن ا لمصالح و الأهواء الشخصية ، بينما الرسالة كلها قيم ، و ربما تعارضت مع شهوات الانسان.

- 3إن الشعراء عندهم ثقافة و لكنها لا تستمر مع الزمن و عبر الأجيال ، أما الرسول فخطه يبقى أبدا ، و المستقبل لرسالته التي لا تبلى ، ولا يتجاوزها تقدم البشرية ، و لعل السبب في ذلك أن الشاعر ثقافته مربوطة به تموت عند موته أو بعده بقليل ، بينما الرسالةيرعاها الله ، و ليست متصلة بشخص الرسول حتى تذهب بذهابه ، و لذلك أمر الله تعالى نبيه (ص) بتحدي الكفار و المراهنة على أن المستقبل في صالحه و لرسالته.

]قل تربصوا فاني معكم من المتربصين[

و التربص هو الانتظار ، و لكن مع توقع شيء ما يحدث ، و منه قوله تعالى " : للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاؤوا فإن الله غفور رحيم. (1) "

و الكفار ينتظرون نهاية للرسالة بموت النبي (ص) في أي لحظة ، بينما يعلم النبي أن الرسالة تزداد على الزمن بهاء و إشراقا.

[32]ثم يأتي القرآن على بيان المنطلقات الحقيقية للكفر بالرسالة مؤكدا بأن التهم التي وجهوها للرسالة لا أساس لها حتى عند أصحابها ، بل جاؤوا بها رغبة عن الحق ، و تهربا من المسؤولية.

]ام تامرهم احلامهم بهذا[

و الحلم هو الجانب العملي من العقل ، و الحليم الذي يستخدم عقله في مواقفه(١) البقرة / ٢٢٦.

و أفكاره فلا ينطلق في أي موقف أو حكم من ردات الفعل و إثارة المواقف المضادة ، و الكفار كبشر لديهم مناهج عقلانية و لكنهم خرجوا عن دائرتها فصاروا يعارضون الرسول و يتهمونه بالكهانة و الجنون أو بالشعر و السحر ، ليس لأنهم وجدوا ما عنده باطلا ، و إنما نتيجةاتباع الهوى و الطغيان وردود الفعل.

]ام هم قوم طاغون[

و " أم " هنا ليست بمعنى التخيير و عدم التأكد ، بل هي تأكيد لما بعدها ، و لعل السبب أن الاحتمالات السابقة واضحة البطلان مما يبعث السامع إلى البحث عن الاحتمال الصحيح ، و يتساءل : إذا لماذا يعارض هؤلاء الرسالة ؟ و يأتي الجواب بصيغة إحتمال ،و لكن السامع يتقبله رأسا ، فيكون كما لو أنه هو الذي اكتشف الحقيقة.

و من عموم هذه الآية نستفيد فكرة كثيرا ما يشير القرآن إليها ، و هي أن الاحتياط من العقل ، فينبغي للمؤمن أن لا يستعجل في رفض فكرة يسمعها ، بل يفترض إمكان صحتها ، ثم يفكر فيها مليا ، و يتخذ موقفه منها على ضوء تفكير موضوعي دقيق.

و إن الذين رفضوا الرسالة لم يعتمدوا في رفضهم على العقل بل على الطغيان ، لأن العقل يقيد الشهوة و يقيننها ، بينما الطغيان يسيرها ، بل و يجعلها هي القانون ، و لو أنهم اتبعوا هدى عقولهم لآمنوا بها ، لأنها تهدي إلى العقل كما يهدي العقل إليها.

[33]و من نتائج اتباعهم الهوى في تقييم الرسالة و النبي)ص) اتهامهم له بأنه لا ينطق عن الله ، و أن ما عنده ليس رسالة من الرب ، إنما هي من صنيع فكرة . إنعقولهم تهدي الى صحة ما جاء به ، و لكنهم لا يريدون إلزام أنفسهم بالمسؤولية ، لذلك تراهم يبحثون عن تبرير لعدم إيمانهم ، فقالوا : نحن نؤمن بعظمة الرسول و بعظمة ما جاء به و لكنه من عبقريته ، و لسنا ملزمين باتباع ما تفتقت عنه عبقريات البشر ، إنما نحن ملزمون باتباع وحي الله و حسب ، و هذا هو منهج المستشرقين وكثير من المسيحيين في تقييم الاسلام و الرسول الأعظم (ص. (

]ام يقولون تقوله بل لا يؤمنون[

[34]و يتحداهم القرآن بأنه إذا كان القرآن من عبقرية الرسول فهو بشر مثلهم فهل يستطيعون صناعة كلام يشبه القرآن ؟؟

]فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين[

و تنكير كلمة " حديث " يدل على التبعيض ، فالتحدي إذن واقع على جزء من القرآن كالسورة أو الآية ، و تبقى هذه المعجزة الالهية الخالدة تتحدى ضلال البشر عبر الزمن وفي كل جيل من الانس و الجن ، يقول تعالى : " قل لئن اجتمعت الانس و الجن على أنيأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا " (١)[٣٥ - ٣٦] و من الحديث المنطلق من واقع التشريع ينتقل السياق إلى الحديث من واقع الخلق ، فبعد أن أثبت بأن الرسالة ليست من صنيع البشر فلا هي كهانة ولا جنون ولا شعر ولا مخالفة للعقل ، و أن الدليل على كونها من الله عدم قدرة البشر على المجيء ولو بحديث واحد يشبهها ، نجد السياق هنا يتعطف لاثبات وجود الخالق عز وجل عبر تساؤلات ثلاث:

الأول : أن يكونوا (الكفار و عموم الخلق) قد خلقوا من غير خالق.

(1)الإسراء / ٨٨.

الثانية : أن يكونوا هم الذين خلقوا أنفسهم.

الثالثة : أن يكونوا هم الذين خلقوا السماوات و الأرض.

]ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون[

و التعبير هنا عن الخالق بالشيء ليس من باب أنه سبحانه يشبه الخلق ، و إنما لاثبات أنه حق

فالشيء في مقابل العدم ، ففي مقام الربوبية ليس لنا سبيل إلا بقدر الخروج من حد النفي و التعطيل ، أو بتعبير آخر : نفي النفي و إعدام العدم ، أما أن نثبت - وراء ذلك- لربنا القدوس ذاتية معلومة أو موهومة أو متخيلة فلا ، فهو شيء أي أنه حق قائم قيوم و لكن لا كالأشياء الكائنة التي يحيط بها العلم و يتصورها القلب.

و ليس أحد يعتقد في نفسه ولا يعتقد في الآخرون العقلاء بأنه مصداق لأحد هذه الفروض الثلاثة ولا التي ستأتي بعدها ، ذلك أن المخلوق لا يأتي من الفراغ ما دامت شواهد الصنع ظاهرة فيه ، بل لابد له من خالق ، و واضح أنه لا يمكن للشيء أن يخلق نفسه إنما يحتاج إلى صانع غيره ، و يكفي الانسان شاهدا على نفسه بأنه ليس الخالق أن ينظر حوله إلى السماوات و الأرض هل يعقل أن يكون قد خلقهما هو أو بشر مثله ؟؟

]ام خلقوا السموات و الأرض بل لا يوقنون[

ان المشكلة مشكلة نفسية ولو كانت عقلية لانحلت بشيء من التفكير في مثل هذه الفرضيات انهم لا يريدون الايمان لكي لا يلزموا انفسهم بمسؤولياته ، اذن فالنقص موجود فيهم لا في حجج الحق التي تقوى عليهم!

[37]ثم دعنا عن حديث الخلق و لنسأل : ماذا لدى الكفار من الملك و السيطرةحتى يتكبرون على الحق اعتمادا عليهما ؟ إن أكثر من ٩٩% من ثروات البشر و قدراته هي رزق مباشر من عند الله . و الذي يحتاج الحصول عليه من الثروة مع السعي أقل من 1% ، و ما هي نسبة ما يقع في أيدي الناس حتى يتفاخروا به و يكون سببا لكفرهم.

]ام عندهم خزائن ربك[

و الخزائن هي أماكن حفظ الثروات و مقاليدها ، و من مصاديق الخزائن المنابع الأولية للثروة في الحياة ، كمناجم المعادن ، و ينابيع الغيث ، و مصادر الطاقة ، و مواد الحياة في الأرض ، و هي جزء بسيط جدا من خزائن الله التي خلقها و وزعها في الكون.

و إذا نظرنا إلى جانب التدبير في الحياة فلن نجد سلطة فعلية تحكمها غير سلطان الله ، فالانسان لا سلطان له حتى على حياته الشخصية إلا قليلا ، فطالما تصور نفسه متمكنا و قادرا فوجد العكس ، و طالما قرر شيئا فاكتشف عجزه المضي فيه.

]ام هم المصيطرون[

بالطبع لا سيطرة لهم على الحياة فليحاولوا دفع الموت عن أنفسهم إن استطاعوا.

[38]و يسترسل الوحي في طرح السؤال تلو السؤال ، و هذا جزء من منهج القرآن في علاج الانحرافات النفسية و العقائدية لدى البشر ، أن يضعه أمام الحقيقة من خلال أسئلة تسوق الاجابة الموضوعية عليها الى ذات الحقيقة ، كما يحاول بها ضرب الفلسفات والاعتقادات المنحرفة عنده.

]ام لهم سلم يستمعون فيه[

إن الذي ينبغي الطاعة له و التسليم لقيادة ليس الذي يملك ظاهرا من الثروة و السيطرة قدرا ضئيلا لا يقاس إلى ما عند الله ، وهم معترفون بأنهم لا يملكون أداة لالتقاط الغيب ، فماذا في أعماق الأرض وأغوار الفضاء ، و ما الذي تخبؤه الأقدار ، و ماذا يحدث غدا ،و ما هي الأرواح و الملائكة و الجن و عالمهم ؟

و إنما القيادة و الفضل لمن يتصل بالله عبر الوحي وهو الرسول (ص) ، و لعل اختيار كلمة " فيه " في الآية و تجنب التعبير بكلمة " به " لأن الاستماع لا يكون بسبب السلم بل في السلم الذي يعرجون فيه.

و إذا كانوا يزعمون أنهم مطلعون على الغيب إذا دعهم يأتوا عليه بحجة داحضة.

]فليات مستمعهم بسلطان مبين[

كالقرآن بشموليته ، و كماله ، و روعة أسلوبه ، و هيمنته على عقل الانسان و نفسه ، و لن يستطيعوا إلى ذلك سبيلا.

[39]و كيف يأتي هؤلاء ببرهان قاطع وهم لا يتبعون إلا الظن ، ولا يعتقدون إلا بالباطل ، و إلا فكيف قالوا بأن البنات لله و لهم البنون ؟! ما هو دليلهم على ذلك ؟

]ام له البنات و لكم البنون[

و في سورة الزخرف نجد علاجا أشمل لهذه العقيدة المنحرفة لدى المشركين ، يقول تعالى " : أم اتخذ مما يخلق بنات و أصفاكم بالبنين * و إذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم * أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين * و جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم

ستكتب شهادتهم و يسألون * وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون " (١)و هنا يشير السياق مجرد إشارة إلى سفاهة هذا القول و يسوقه مثلا لضلالاتهم الدالة على بعدهم عن الغيب.

[40]و الرسل لا يطالبون الناس بالأجر بإزاء تعبهم و نصبهم من أجلهم حتى يمكن الكفار تفسير رفضهم الرسالة بأنهم لا يقدرون على إعطاء الأجر.

]ام تسئلهم اجرا فهم من مغرم مثقلون[

إن الرسول لا يتطلع إلى أهداف مادية مصلحية من وراء قيادته للناس . إنه ليس كالذين يتسلطون على المجتمع من أجل فرض الضرائب و امتصاص خيرات البلاد و العباد ، إنما يريد أن يعطيهم شيئا هو الغنى بعد الفقر ، و الأمن بعد الخوف ، و الوحدة بعد الفرقة ، و بعبارةأخرى يريد أن يتقدم بهم نحو الحضارة الربانية التي فيها خيرهم ، و هذا ما تتميز به رسالات الله عن الدعوات البشرية المادية حيث لايجد فيها المجتمع إلا الكلفة و الغرم الثقيل.

[42 - 41]ثم يشير القرآن إلى حاجة فطرية عند الانسان تدعوه إلى معرفة الغيب و الاتصال به ، و كل إنسان يخشى من الغيب ، و يعلم بانه لا سبيل له اليه ، لأن الاختيار في هذا الأمر ليس مرتبطا به ، إنما يختار الله من يشاء من عباده ، " و ما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن يصطفى من رسله من يشاء " (٢) و البعض يدعي الاتصال بالغيب و لكن دون أن يدعي أنه قادر على معرفة أبعاد الغيب بحيث تمكنه من كتابته بوضوح كما كتب الرسول أبعاد الوحي ، أي أنهم(١) الزخرف / ١٦ - ٢٠.

(2)آل عمران / ١٧٩.

ليست عندهم معرفة شاملة واعية بالغيب ، إنما يتبعون الظنون وجانبا من أخبار الشياطين.

]ام عندهم الغيب فهم يكتبون[

بلى . إنهم لا يعتمدون على الغيب ، إنما يعتمدون على الكيد ، و كلمة " أم " التي تأتي في الآية للتأكيد لا الاحتمال و التردد.

]ام يريدون كيدا[

و الكيد هو القوة المخططة و المقننة كالاستراتيجية ، و إنما نكر الله الكيد ليجعله دالا على أنه لا ينفع أي نوع أو أية درجة منه.

]فالذين كفروا هم المكيدون[

لأنهم مهما بلغوا من المكر و الحيلة فلن يستطيعوا الغلبة على الحق (سنن الله في الخلق و مشيئته القاهرة) و منهجه المتكامل إذا اتبعه المؤمنون ، و التاريخ شاهد على هذه الحقيقة.

[43]و يعود القرآن إلى بيان الانحرافات النفسية العميقة عند الانسان فيقول:

]ام لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون[

إن الله منزه عن الشركاء ، و الانسان يشرك به غيره للتهرب من المسؤولية ، و ليس اعتمادا على عقيدة راسخة بينه ، إنه إذا لم يدع شريكا مع الله فهو ملزم بالتسليم لرسالته عقلا و ضميرا ، لذلك نجده يسعى لتخليص نفسه من هذا الالتزام بالشرك.

[44]ولأن العقائد المنحرفة عند الكفار و المشركين ، و التي استعرضتها الآيات الماضية ، تنتهي كلها إلى غاية واحدة هي محاولة التملص من المسؤولية ، فإن القرآن لا ينى يؤكد المسؤولية من خلال بيان سنة الجزاء الحاكمة في الحياة ، ففي الدنيا تجليات عديدة لهذه السنة مما يؤكد وجود حياة أخرى للجزاء أيضا ، و لكن الإنسان حينما يكفر أو يشرك لا تهديه العلاقات إلى الحقيقة ، بل يفسرها تفسيرا ماديا منحرفا ، بل حتى لو رأى آية ظاهرة فسرها تفسيرا بعيدا.

]و ان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم]وفي سورة الأحقاف يضرب القرآن لنا مثلا على هذا النوع من التفسير عند الكفار فيقول : " فلما راوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القومالمجرمين " (١(

[45]و حينما يصل الانسان إلى هذه الحالة النفسية من الضلال و الجحود تصعب هدايته إلى الحق ، لأنه لن ينظر إلى الآيات نظرة عقلانية مجردة ، إنما سينظر إليها من خلال أفكاره ، و يسعى جاهدا لاستلابها دلالاتها الواقعية الحقة ، لذا لا ينبغي للداعية أن يصر ويبخع نفسه لهدايته ، و إنما يبين إليه الحق ثم يتركه يواجه مصيره بنفسه ، لان الاصرار الزائد عن حده قد يسبب حالات وصفات خاطئة كالديكتاتورية و الغصب ـ أو أن يغير هو من الدين ليدخلهم فيه.

]فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون[

إشارة إلى العذاب الذي ينتظر الكفار يوم القيامة ، فلأنهم كفروا بالآخرة(١) الأحقاف / ٢٤ - ٢٥.

وغفلوا عنها في حياتهم فإنهم يفاجأون بذلك.

[46]و إذا كان مكرهم و كيدهم في الدنيا نفعهم بعض الشيء وخدم مصالحهم ، فربما انتصروا عسكريا على المؤمنين ، أو ظهروا على البلاد وأضلوا الناس عن الحق ، فإنهم في الآخرة لا ينفعهم المكر شيئا ، ولا يدفع عنهم خطرا.

]يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا[

كما أن القوى الأخرى التي اعتمدوا عليها في كفرهم و كيدهم للحق و المؤمنين لاتعينهم ، و إن أعانتهم

فهي لا تبلغ بهم سبيلا إلى الغلبة و النصر.

]ولا هم ينصرون[

[47]ولكن دعوة الله لرسوله (و للمؤمنين من خلاله) إلى ترك الظلمة و الكفار يلاقون عذاب الآخرة لا يعني أن الدنيا لهم ، يلعبون فيها كيفما شاءت أهواؤهم و مصالحهم ، كلا .. إنما يلقون فيها نصيبا من العذاب متمثلا في غضب الله المباشر أو على أيدي أوليائه، و لكنه مهما بلغ لا يكون كعذاب الآخرة.

]و ان للذين ظلموا عذابا دون ذلك [

أي غيره ، و أقل منه ألما ، وهو دليل على عذاب الآخرة ، قال تعالى : " كذلك العذاب و لعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون " (١) و قال : " ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون " (٢) ، و لكنهم لا ينظرون إلى الآياتببصيرة الايمان و من ثم لا يصلون الى الحق.

(1)القلم / ٣٣.

(2)السجدة / ٢١.

]و لكن اكثرهم لا يعلمون[

و بالتالي فإن جهلهم يوقعهم في العذاب الدنيوي والأخروي معا.

[49 - 48]و بعد أن عالج القرآن مشكلة التكذيب بالعذاب و الكفر بالله من الناحية النفسية و العقلية ، أكد ضرورة الاستمرار و الاستقامة على الحق في سبيل الله.

]و اصبر لحكم ربك[

و حيث حذف متعلق الصبر دل ذلك على كل معانيه (الصبر عند البلاء ، و الصبر على الطاعة ، و الصبر عن المعصية) ، فيجب إذن على المؤمن أن يتنازل عن جميع تطلعاته و مصالحه و آرائه في سبيل رسالته ، مهما كان الصبر على ذلك صعبا ، و أن يترك العجلة في الأمور ، بل يصبر حتى يأتي أمر الله متمسكا بمنهج الوحي ، و هذا يوحي بأن على المؤمن تطبيق أحكام الله أثناء الصبر ، و ليطمئن أن عين الله تحرسه و تسدد خطاه.

]فانك باعيننا[

و عيون الله تتجسد في سننه و ملائكته وإرادته المباشرة التي تؤيد المؤمنين ، و كما يقاوم المؤمن الضغوط ، و يستمر في الطريق ، و يلتزم بحدود الله و أوامره بعامل الصبر ، فإن يستمد إرادته من الاتصال بالله في الصلاة ، و لو تدبرنا في القرآن فإننا لا نكاد نجد دعوة إلى الصبر إلا وقد اقترنت بها دعوة إلى الصلاة أيضا ، إذ بهما نستعين على الأمور بلى . قد تختلف التعابير من موضع إلى آخر ، فتأتي تارة صريحة كما في قوله تعالى : " و استعينوا بالصبر و الصلاة (1) "، و أخرى دون ذلك بالدعوة(١) البقرة / ٤٥

الى التسبيح أو الركوع و السجود كمظهر أو جوهر للصلاة ، أو بإضافة أمر آخر مثل ضرورة الاحساس بالرعاية الالهية كما في هذه السورة ، و لكن الحقيقة واحدة و هي اقتران الصبر بالتبتل ، و في هذه الآية نجد شاهدا على ذلك فبعد ان دعى الله رسوله للصبر و الاطمئنان لرعايته أمره بالتسبيح.

]و سبح بحمد ربك حين تقوم[

قال علي بن إبراهيم : " لصلاة الليل " (١)[ومن الليل فسبحه[

قال الباقر و الصادق (عليهما السلام) : " إن رسول الله (ص) كان يقوم من الليل ثلاث مرات ، فينظر في آفاق السماء ، و يقرأ الخمس من آل عمران التي آخرها " إنك لا تخلف الميعاد " ثم يفتتح صلاة الليل " (٢)و التسبيح هو تعظيم الله عز وجل و تنزيهه ، و ما أحوج الانسان وهو يقاوم مختلف الضغوط في مسيرته حتى لا ينهزم أمامها إلى ذلك . و لماذا يستسلم الانسان إلى الضغوط ؟ أليس لأنه يجدها أكبر من إرادته ؟ إذن فهو بحاجة إلى تذكر الله ليقاوم الهزيمة و الانبهار فيداخله.

]و ادبار النجوم[

يعني نافلة الصبح ، عن زرارة عن أبي جعفر (ع) قال : قلت له " وأدبار النجوم " قال : " ركعتان قبل الصبح " (٣)(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٤٣.

(2)المصدر

(3)المصدر / ص ١٤٤.

و قد يكون القيام عموم الصلاة ، و لكن ا لقرآن يخص بالذكر صلاة الليل و نافلة الصبح لغرض ما.

سورة النجم

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الاعمال بأسناده الى أبي عبد الله (ع) قال : " من كان يدمن قراءة و النجم في كل يوم أو في كل ليلة عاش محمودا بين الناس ، و كان مغفورا له ، و كان محبوبا بين الناس. "

بحار الانوار / ج ٩٢ / ص ٣٠٥

الإطار العام

بالرغم من أن كثيرا من آيات هذه السورة تحدثنا عن الوحي مما يدع القارىء يظن لأول الأمر أنها تعالج هذا الموضوع ، إلا أن المتدبر يرى أن السياق يهدف معالجة المسؤولية البشرية ، و تزداد هذه الفكرة وضوحا عند التأكيد على المسؤولية المباشرة للإنسان عن أفعالهو أن ليس له إلا سعيه ، و أنه سوف يراه إن عاجلا في الدنيا أو آجلا في الآخرة.

و العلاقة بين هاتين الفكرتين)فكرة المسؤولية و فكرة الوحي) علاقة عضوية واضحة ، ذلك أن إحساس الإنسان بمسؤوليته نتيجة مباشرة لايمانه العميق بالوحي ، و هل تنزل الوحي برسالات الله للأمم على الأنبياء عبر التاريخ إلا لإتمام الحجة على الناس ، و تقرير مسؤوليتهم أمام الله ؟؟

كما نجد في السورة خطا موازيا لهذا السياق يهدف تصحيح منهجية التفكير عند الإنسان ، إضافة إلى علاجه العقائد المنحرفة معالجة مباشرة.

إن هو إلا وحي يوحى

هدى من الآيات

تهدينا آيات الدرس الأولى إلى علاقة الرسول (ص) بربه من خلال الوحي ، هذه الميزة التي تميزه عن دعاة النظريات البشرية ، و عما تتفق به عقول النوابغ من أفكار . إنه لا ينطق إلا بإذن الله ، مما يجعله حجة وقدوة للبشرية في كل مكان و زمان ، و هو على يقين تامنبوته ، لا يشك في ذلك طرفة عين أبدا.

و لا شك أن هذه منزلة رفيعة بلغها النبي الأعظم (ص) دون سائر البشر وأعلى من سائر الأنبياء ، و لكن ذلك لم يصيره إلها ، بل تدلى ، و ذلك يعني أنه أرفع من الخلق ، و أدنى من الخالق.

بينات من الآيات

[1]و النجم إذا هوى[

قد يكون القرآن يقصد هنا نجما معينا أخبر المسلمين بسقوطه في المستقبل ، كما تشير الروايات إلى ذلك ، و لكننا بالنظر إلى الظاهر و إلى الهدف من وراء هذا القسم نستطيع اعتباره شاملا لكل نجم ، و إنما عرف الله المقسم به بـ) ال) لأنه أبلغ من التنكير في القسم كما قيل ، و لكن لماذا يقسم القرآن بالنجم حين يهوي ؟

أولا : ربما لأن الكثير من الناس كانوا يعتقدون بأن النجوم ثابتة لا تتغير ، و قد اتخذها بعضهم آلهة من دون الله ، و سقوطها أبطل هذا الإعتقاد الضال.

ثانيا : قد لا يكون المقصود من الهوي السقوط و الإنتشار ، كما في قوله تعالى : " وإّذا النجوم انكدرت " (1)، "و إذا الكواكب انتثرت " (٢) كعلامة ليوم القيامة ، و إنما الميل إلى طرف من الأفق ، الأمر الذي يجعله أفضل هداية و تعريفا للإنسان بالطريق .

[2]و كما أن النجم رمز للهداية فإن الرسول (ص) هو علم رفيع لهداية البشرية ، كما قال الإمام علي (ع) : " ألا إن مثل آل محمد (صلى الله عليه و آله) كمثل نجوم السماء ، إذا خوى نجم طلع نجم " (٣) ، و لكن الرسول (ص) يختلف عن النجم في أن دلالتهو هدايته للناس تبقى قائمة في رسالته و سيرته حتى بعد موته ، أما النجم فإن دلالته تنتهي بهويه ، كما يقول الإمام علي (ع) : " أيها الناس حذوها من خاتم النبيين (صلى الله عليه و آله و سلم) : إنه يموت من مات منا و ليس بميت ، و يبلى من بلي منا و ليس ببال " (٤) ، و أولى بالعقل أن يتبع هدى الرسول الذي يتبع الحق ، و لا يكذب أهله ، لا أن يتبع ظنون نفسه ، ولا تخرصات(١) التكوير / ٢.

(2)الانفطار / ٢.

(3)نهج البلاغة / خ ١٠٠.

(4)نهج البلاغة / خ ٨٧.

الكهنة و المنجمين.

]ما ضل صاحبكم وما غوى[

الضلالة هي الإنحراف عن أصل الطريق ، بينما الغواية - حسبما يبدو - الإنحراف عن سواء الطريق ، فقد يضل الواحد طريقه إلى مدينة شرقية فيتجه غربا ، و قد يغوي عنها فلا يتجه إليها عبر خط مستقيم .. و لم يضل النبي طريقه نحو الله فيختار - حاشاه - طريقا آخر ، كما لم يتنكب عن الخط المستقيم ولا شيئا قليلا ، فلم يكن كأبينا آدم - عليه السلام - الذي قال عنه ربنا : " و عصى آدم ربه فغوى " (١. (

[4 - 3]بلى . لقد زعم البعض أن عصمة النبي)ص) محدودة في الشؤون المتصلة بالرسالة نفسها و

حسب ، و لكن السؤال : إذا كيف نعرف أن ما يتحدثه الرسول هل هو جزء من الرسالة ، أو هو شأن من الشؤون التي يخطأ فيها ؟ كلا .. إن الله قد عصم الأنبياء جميعا ، و أيدهمبروح القدس ، حتى تتم حجته على خلقه ، ولا يبرروا مخالفتهم لهم بعدم الثقة بأن كلامهم من عند الله ، و قد قال سبحانه : " ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين " (٢) ، وقال : " عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداإلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه و من خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم " (٣. (

إن الانسان تنازعه من داخله قوتان : نور العقل الذي يهديه إلى الحق ، و شهوات الهوى التي تدفعه باتجاه الباطل ، و لقد أدب الله نبيه (ص) إلى أن اعتصم من آثار الهوى ، و جسد الحق لا يزيغ عنه لحظة ولا قيد شعرة.

(1)طه / ١٢١.

(2)الحاقة / ٤٤ - ٤٦.

(3)الجن / ٢٦ - ٢٧ - ٢٨.

إن العقل المحض لا يخطىء أبدا ، و لذلك اعتبره الإسلام رسولا باطنا كما أن الأنبياء كانوا رسلا ظاهرين ، و حجة خفية كما الرسالات حجة ظاهرة.

]وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى[

و من عمق الأدب القرآني و بلاغته أنه لم يكتف بكلمة " وحي " بل أضاف إليهما كلمة " يوحى " الفعل المبني للمجهول ، و ذلك لأن الوحي قد يكون من فعل نفس الإنسان ، أما إذا بني للفاعل المجهول فإنه يكون من طرف آخر ، و الآية التالية تبينالموحي وهو الله شديد القوى ، نفيا لاحتمال أن يكون الرسول يتلقى رسالته من قوى يتصل بها كالجن أو بعض الكهنة ، كما ادعى عليه الجاهلون " وقالوا معلم مجنون " (١) ، كلا .. إنه يتلقى رسالته عبر الوحي من الله ، و هذا الإتصال هو الذي يمده بالعصمة ، وحديث عصمة الرسول حديث طويل بحثه الدارسون ، و قد اختلفوا فيه كثيرا ، و انا أترك الخوض في هذا الموضوع بالصورة التي بينها الكثير ، و أقتصر هنا على الحديث عنه من زاوية هامة جدا ، و هي دراسة حياة الرسول (ص) ، لأن ذلك كما اعتقد سوف يكشف لنا شخصيته الفذة ،و كيف انها لم تتأثر بأي عامل هوى ، إنما كانت دائما وابدا صنيعة العقل و الوحي.

لقد عاش (ص) في مكة المكرمة - قبل أن يظهره الله على المشركين فيها - تلاحقه عصابات الضلالة و البغي من قريش ، يحاولون أن يخدعوه عن دينه ، و يصرفوه عن رسالته ، و بالإرهاب تارة و بالترغيب أخرى ، حتى بلغ الأمر بهم ان عرضوا عليه السلطة المطلقة عليهم وعلىأموالهم ، و لكنه لم يخش إرهابهم ، و لم تحرفه عروضهم المغرية ، إنما تسامى على ذلك كله ، و أجابهم : " و الله لو وضعتم الشمس في يميني ، و القمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه " ،(١ (الدخان / ١٤.

و اضطر من شدة ضغوطهم وأذاهم إلى الهجرة عن مكة ، و كانت القبائل جميعها ترفض ايواءه عداوة له أو خوفا من قريش ، وسار نحو الطائف لعله يجد مفزعا فيها ، و لكنه اصطدم بحقدهم الدفين ضده و ضد رسالته ، حيث طردوه و أدموا ساقيه الشريفتين بالحجارة ، لكنه مع ذلككان يتحدى الواقع المر ، و يسمو بروحه الطاهرة إلى آفاق الإيمان بالله ، فقد جاء في الخبر أنه رفع يديه إلى السماء و قال : " اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون ، إلهي إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي. "

و حينما هاجر إلى المدينة المنورة انطلق منها يقهر القوى العسكرية المضادة ، فحطم كبرياء قريش ، و دمر حصون اليهود من أعداء الرسالة و غيرهم ، و الى حين رفعه الله إليه كان قد جهز جيشا ليقاتل الروم

القوة العظمى يومذاك ، و بين هذا و ذاك بنى أمة و حضارة لازالت البشرية ولن تزال كلما تقدم بها الزمن و التطور تجد نفسها دون عظمتها . وهو مع ذلك لم تتغير أخلاقه ولا سيرته في العيش ، إنما بقي وهو الحاكم العظيم يربط حجر المجاعة على بطنه ، و يتواضع للصغير و الكبير ، أترى من هذه حياته ، و من جعله اله أسوة مطلقةو صفها بالحسن إلا أن يكون معصوما ؟؟ ثم أليست العصمة أن لا يتأثر الإنسان بالعوامل السلبية ، ولا يخرج من خطه ولا قيد شعرة ؟ بلى . إذن فلندرس حياة الرسول الأعظم (ص) هل نجد فيها ولو كلمة أو تصرفا يخالف الحق ؟؟

إن من السهل على العاقل أن يميز الذي ينطق عن الهوى عمن ينطق عن العقل ، فالذي ينطق عن الهوى لا يصدق دائما ، ولا يكون حديثه موافقا للعقل ، إنما يكون تعبيرا عن شهوات صاحبه ، و متناقضا متقلبا حسب الظروف و المصالح.

ثم لننظر إلى الرسالة التي جاء بها النبي هل تخالف العقل و الحق ؟ و هل فيها شيء من التناقض ؟ كلا .. إذن فهي معصومة ، ومن عند الله ، " ولو كان من عندغير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " (١. (

ثم أنه كان ينقل ما ينزل عليه من الله بامانة تامة إلى المجتمع لا يغير شيئا ابدا ، و حتى الآيات التي تشتمل على لومه كان يثبتها في الرسالة ، و يبلغها للناس ، و لو كان يتبع أهواءه لكان يخفيها عليهم ، و من هذه الآيات قوله تعالى " : وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا عليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا * إذا لأذقناك ضعف الحياة و ضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا * " (٢) و قوله : " عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين " (٣) ، و الآية الكريمة : " ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون " (٤) و أشد من ذلك كله قوله تعالى : " ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين * " (٥. (

و أخيرا : لم يكن النبي يبلغ الرسالة اللآخرين فقط ، بل كان هو يطبقها أيضا ، و قبل غيره ، بما فيها من واجبات تقتضي أن يخالف الإنسان أقوى منعطفات الهوى ، فهو يتقدم المؤمنين في أمر حاسم و خطير كالقتال ، أترى لو كان يتبع أهواءه يصنع كل ذلك ؟!

[6 - 5]و كيف يتبع الرسول هواه ، فيخفي بعض الذي أنزل عليه ، أو يتقول على الله بدافع الشهوة و المصلحة ، وهو يعلم ما عنده من البطش و الشدة ؟

(1)النساء / ٨٢.

(2)الاسراء / ٧٣ - ٧٥.

(3)التوبة / ٤٣.

(4)آل عمران / ١٢٨.

(5)الحاقة / ٤٠ - ٤٧.

]علمه شديد القوى[

ذو الإرادة المطلقة النافذة في الحياة ، و هذه ضمانة لتنفيذ الحق الذي جاء به القرآن و تطبيقه على الحياة.

]ذو مرة[

أي مطلق العلم و الحكمة ، مما يجعل الرسالة (الوحي) كاملة دقيقة لا يلحقها نقص ولا عيب ، ولأن

الرسول كان يتلقى رسالته و علمه من صاحب هاتين الصفتين فقد تكامل بالتأكيد و العلم الإلهيين..

]فاستوى[

وفي الآية أقوال شتى : فقال الكثير من المفسرين : أن من علم رسول الله هو جبرئيل الذي هو شديد القوى ، و هو أيضا ذو مرة وقد استوى.

وفي كلمة " ذو مرة " قال البعض : أن معناها صاحب قوة ، و قال آخرون : ذا عقل ، و قيل : صاحب خلق حسن ، أما عن الإستواء فقال البعض : أن معناه أن جبرئيل استوى هو و الرسول ، و قال البعض : أن الرسول قد استوى ، وقال البعض : بل الله هو الذي استوى على عرش القدرة.

و لعل التفسير الذي اخترناه آنفا هو الأقرب ، لأن السياق لا يحدثنا شيئا عن جبرئيل ، ثم أن الإستواء الذي يهتم به سياق السورة متصل بالرسول ، لأنه يحدثنا عن الرسول و ليس عمن علمه.

[7]و بهذا الإتصال أيضا سمى النبي محمد (ص) بروحه طهرا و عرفانا و زلفى إلى أفق الحق الأعلى ، فصار سيدا لأفضل خلق الله وهم النبيون (عليهم السلام) ،ولقد كان عروجه إلى الله في تلك الرحلة المشهودة تجسيدا لذلك السمو.

لقد كان (صلى الله عليه و آله (يتلقى الوحي عبر جبرائيل حينا ، و بصورة مباشرة حينا ، و لعل أعظم ساعات التلقي كانت حينما رفعه الله إلى مقام قال عنه رفيقه جبرئيل : " مكانك يا محمد فلقد وقفت موقفا ما وقفه ملك قط ولا نبي " حتى لم يبق بينه و بين ربه واسطة ، و دنى من الله قربا فكان كما قال الإمام الصادق (ع) : " بينهما حجاب يتلألأ بخفق ، فنظر في مثل سم الإبرة إلى ما شاء الله من نور العظمة ، فقال الله تبارك و تعالى : " يا محممد ! قال : لبيك " (١) و كلمه تكليما ، كما كلم موسى بنعمران (عليه السلام. (

]وهو بالأفق الأعلى[

يطوف معه جبرئيل وهو على البراق ، يصعد من سماء إلى أخرى ينظر إلى آيات الله ، و يزداد برؤيتها يقينا وصعودا في آفاق الإيمان حتى بلغ السماء السابعة.

]ثم دنا فتدلى[

حتى بلغ حجب النور ، يقول النبي (ص) : " فقال لي جبرئيل : تقدم يا محمد ، و تخلف عني ، فقلت : يا جبرئيل ! في مثل هذا الموضع تفارقني ؟! فقال : يا محمد إن انتهاء حدي الذي وضعني الله عز وجل فيه إلى هذا المكان ، فإن تجاوزته احترقت أجنحتي ، بتعدي حدودربي جل جلاله ، فزخ بي في النور زخة حتى انتهيت إلى حيث (ما) شاء الله من علو ملكه " (٢. (

و يخالف الفكر الإسلامي الأصيل النظرة الفلسفية ، أو ما يسميها البعض(١) بحار الأنوار / ج ١٨ / ص ٣٠٦.

(2)المصدر / ص ٣٤٦.

بالعرفانية في علاقة الخالق بالمخلوق ، فبينما ترى هذه وحدة الوجود و إمكانية الحلول ، تعالى الله عما يصفون ، تفصل النظرية الإسلامية بين الإثنين ، و ترى أن الخالق غير المخلوق ، و أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يصل الإنسان إلى مقام الربوبية ، مهما بلغمن الفضل و العلم و الإيمان ، بل المجال مفتوح أمام البشر للتكامل في معارج القرب من ربه ، افقا افقا ، و درجة درجة ، دون أن ينتهي ذلك أبدا ، لأن " الله خلو من خلقه ، و خلقه خلو منه . (1) "

إن القرآن يقر رحلة المعراج ودنو النبي (ص) من ربه ، و لكنه يعتبره دنوا معنويا لا ماديا ، و يقول بأنه (

صلى الله عليه وآله (تدلى في علوه ، كما الدلو حينما يتأرجح في البئر فلا هو إلى قعره حيث الماء ، ولا هو إلى أعلاه حيث الأرض ، إنما بين الأثنين ، وهكذا سمى الرسول الأكرم (ص) حتى ارتفع عن سائر الخلق بقربه من الله ، و لكنه لم يصل إلى مقام الربوبية ، فهو فوق الخلق و دون الخالق ، وفي الخبر عن ثابت بن دينار قال : سألت زين العابدين علي بن الحسين (عليهما السلام) عن الله عز وجل جلاله هل يوصف بمكان ؟ فقال : " تعالى الله عن ذلك " ، قلت : فلم أسرى بنبيه محمد (ص) إلى السماء ؟ قال : " ليريه ملكوت السماوات وما فيها من عجائب صنعه و بدائع خلقه " ، قلت : فقول الله : " ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى " قال " ذاك رسول الله (ص) دنا من حجب النور ، فرأى ملكوت السماوات ، ثم تدلى فنظر من تحته إلى ملكوت الأرض " (٢. (

و في حديث آخر عن يونس بن عبد الرحمن قال : قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر (ع : (لأي علة عرج بنبيه إلى السماء ومنها إلى سدرة المنتهى ، و منها إلى حجب النور و خاطبه و ناجاه هناك ، و الله لا يوصف بمكان ؟ فقال (ع) : " إن الله لا(١) التوحيد - للصدوق / ص ١٤٣.

(2)بحار الانوار / ج ٨ / ص ٣٤٧.

يوصف بمكان ولا يجرى عليه زمان ، و لكنه عز وجل أراد أن يشرف به ملائكته و سكان سماواته ، و يكرمهم بمشاهدته ، و يريه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه ، و ليس ذلك على ما يقوله المشبهون ، سبحان الله و تعالى عما يصفون . (1) "

و قد يكون التدلي الأخذ من المعرفة و العلم ، كقولنا تدلى فلان إذا أرسل دلوه في البئر ، و اغترف منه ماء ، فإن الرسول كان يتدلى معرفة من بحار العلم و النور التي مر بها في ملكوت السماوات السبع أثناء رحلة المعراج ، قال الإمام موسى بن جعفر عليهما السلامفي جواب له على سؤال رجل عن هذه الآية و معنى " فتدلى " : " إن هذه لغة في قريش ، إذا أراد الرجل منهم ان يقول : قد سمعت يقول : قد تدليت ، و إنما التدلي الفهم (2) " وكلما فهم الانسان الحقائق ، وازداد مرعفة بربه ، وكلما تقرب إليه و دنىمنه ، و لعل مرور الرسول في عروجه بملكوت السماوات ، و مشاهدته لما فيها من الآيات التي كانت تعرفه بربه أكثر فأكثر كلما صعد في الأفق نحو الحد الذي وصل إليه و تجلى له فيه نور ربه ، كان تهيئة له ليرى التجلي الأعظم لله في نوره الذي قرب منه الرسول (ص. (

]فكان قاب قوسين أو أدنى[

أبدا ليس الله بعيدا عن خلقه . أو لم تقرأ في الدعاء : " و أن الراحل إليك قريب المسافة ، و أنك لا تحتجب عن خلقك إلا أن تحجبهم الأعمال دونك " (٣. (

و لكن الإنسان هو البعيد عن ربه . أوليس قد تراكمت على نفسه حجب الغفلة و الجهل و المعاصي ، فكيف يتلقى نور ربه ؟!

(1)تفسير نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٨٥.

(2)نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٥١.

(3)نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٥٢.

و هب أنه طهر قلبه من كل ذلك فكيف تستقبل هذه النفس المحدودة العاجزة أنوار عظمة الخالق دون ان يتصدع قلبه ؟ أو ليست قدرة الإحتمال عند النفس البشرية محدودة ؟ وهل تصبر العين على التركيز في قرص الشمس طويلا ؟ كلا..

لقد تجلى الرب لحظة للجبل فجعله دكا ، ولم يصبر قلب موسى ذلك النبي العظيم لرؤية الجبل الذي تدكدك بتجلي الرب فخر صعقا ، فيا ترى كيف صمد قلب محمد) صلى الله عليه وآله) لنور ربه ، و أي مقام سام تعالى إليه نبينا الأكرم حتى كان قاب قوسين من ربه أو أدنى ؟
!

ولم يحدد القرآن المسافة بالضبط ، لعله لبيان حالة التصاعد و التنازل التي يتعرض لهما الإنسان في القرب و البعد من ربه ، كما قال عن قوم يونس " وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون " ـ و لكنه قال " قاب قوسين أو أدنى " في مقام الرسول لأنه في حالة تصاعدية من الإيمان لا تنازلية.

و كلمة أخيرة:

قال تعالى "قاب قوسين أو أدنى " معبرا بهذه الوحدة القياسية العرفية عن قرب الرسول للدلالة على شدة القرب المعنوي من الله ، و لتأكيد الفاصلة بين الخالق و المخلوق ، و قد قالوا في قاب قوسين : أن القاب هو المسافة بين المقبض و السية.

[10]و هنالك حيث اقترب الرسول من ربه ، و تهيأ من الجانبين ، أوحى الله إليه أمرا أبهمه في النص بـ " ما "دلالة على العظمة.

]فأوحى إلى عبده ما أوحى[

قال علي ابن إبراهيم (رض " : (و حي مشافهة " (١) ، و قال الصادق (ع)(١) مفاتيح الجنان / دعاء أبي حمزة الثمالي.

لأبي بصير : " يا أبا محمد ما جاءت ولاية علي من الأرض ، و لكن جاءت من السماء مشافهة " (١. (

[12 - 11]و إذا كان الرسول رأى نور ربه بعينه لما دنى منه ، فإنه رأى ربه ببصيرة الإيمان في وحيه المنزل عليه ، و رؤية القلب أجلى و أصدق من رؤية البصر ، بل إن هذه الرؤية القلبية كانت تأكيدا و تصديقا لما رآه بعينه من النور.

ولا يمكن أن يرى الانسان ربه بعينه مشافهة ، ولا بعقله لأنه هو الآخر نعمة محدودة من الله ، إنما يرى ربه بربه من خلال تجليه في آيات الخلق و الوحي ، وفي الدعاء نقرأ إشارة إلى هذه الحقيقة عند قول الإمام (ع) : " يا من دل على ذاته بذاته ، و تنزه عن مجانسة مخلوقاته ، و جل عن ملاءمة كيفياته ، يامن قرب من خطرات الظنون ، و بعد عن لحظات العيون . (2) "

و قلب الانسان حينما يرى شيئا فإنه لا يخطىء في رؤيته ، ذلك أن وجدان الإنسان يصدق الحق.

]ما كذب الفؤاد ما رأى[

من الحق النازل عليه من عند الله ، بل هو على يقين وقناعة راسخة ، لا يمكن أن تزلزله الشبهات و جدليات الجاهلين ، و أقوال الرسول (ص) و سلوكياته الشخصية و الإجتماعية كلها تدل على أنه لم يكن يتكلف في إيمانه ، و إنما كان ينطلق من قناعة صادقة.

]أفتمرونه على ما يرى[

(1)المصدر / ص ١٥٠.

(2)مفاتيح الجنان / دعاء الصباح.

إنكم لا يمكن أن تحرفوا مسيرته ، أو تدخلوا إلى نفسه الشك في رسالته ، لأنه على اليقين.

قال محمد بن الفضيل سألت أبا الحسن (ع) هل رأى رسول الله (ص) ربه عز وجل ؟ فقال : " نعم ، رآه بقلبه . أما سمعت الله عز وجل يقول : " ما كذب الفؤاد ما رأى " لم يره بالبصر ، و لكن رآه بالفؤاد " (١) ، و سئل الرسول (ص) عن الآية نفسها فقال : " قد رأيت نورا " (٢. (

] [15 - 13]و لقد رءاه نزلة أخرى [

و ذلك يحتمل معاني ، منها ، أن الرسول كان يرى الله متجليا في كتابه (الوحي (، ثم رأى تجليا آخر لربه عندما عرج به جبرئيل (ع) إلى الأفق الأعلى ، و دنى من ربه فخاطبه مشافهة ، و قد يكون المعنى : أن جبرئيل عرج بالنبي الى حيث أوحى له الله ما اوحى ، و هناك رأى ببصره نور الله ، و بقلبه رأى ربه ، ثم عرج به الى مقام آخر رأى فيه تجل ثان لله عز وجل ، وهو قوله تعالى:

]عند سدرة المنتهى[

و هي شجرة في السماء السابعة (عن علي بن ابراهيم) (٣) " و إن غلظ السدرة لمسيرة مئة عام من أيام الدنيا " (٤) عن الباقر (ع) ، و ربما سميت بهذا الإسم لانها الموضع الذي ينتهي الملائكة إليه بأعمال العباد (٥) ، و لأنها منتهى ما يمكن أن يبلغ

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٥٣.

(2)المصدر.

(3)المصدر / ص ١٥٥.

(4)المصدر / ص ١٥٤.

(5)المصدر.

إليه مخلوق قربا و دنوا من ربه . (١. (

و قيل : هي شجرة طوبى (٢) ، و قال علي بن إبراهيم (رض) هي الشجرة : " التي يتحدث تحتها الشيعة في الجنان " (٣) ، و لعلها البرزخ بين عالمي الدنيا و الآخرة.

و الآية الكريمة تشير إلى هذا التفسير ، قال تعالى:

]عندها جنة المأوى[

[17 - 16]و هناك تجلى نور الرب لنبيه الأعظم (ص) فغشي السدرة ، كما تجلى من قبل لموسى بن عمران (ع) ففاض نور الوحي على تلك الشجرة التي أوحى الله إليه عندها.

]إذ يغشى السدرة ما يغشى[

من نور ربها ، و عندها ثبت الله فؤاد نبيه ليرى ذلك النور ، و يبصر به آياته ، قال الإمام أبو جعفر (ع) : " فتجلى لمحمد نور الجبار عز وجل ، فلما غشي محمدا (ص) شخص بصره ، و ارتعدت فرائصه ، فشد الله عز وجل لمحمد قلبه ، و قوى له بصره ، حتى رأى من آيات ربه ما رأى " (٤) فلأن الله ثبته استطاع أن يستوعب الحقائق.

]ما زاغ البصر وما طغى[

(1)المصدر / ص ١٥٥ / و ص ١٥٦ رقم ٤٤.

(2)بحار الأنوار : ج ١٨ / ص ٢٨٩.

(3)نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٥٦.

(4)المصدر / ص ١٥٤

و الزيغ هو الإنحراف ، قال تعالى : " فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم " (١ (يعني لما انحرفوا عن الحق ، و قال : " ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا (2) " أي لا تحرفها عن الحق ، و قال : " فأما الذين في قلوبهم زيغ - أي انحراف- فيتبعون ما تشابه منه " (٣) ، و لكن زيغ البصر هنا يعني انحرافه بعامل الخوف ، و يشبهه قول الله : " إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر و تظنون بالله الظنونا " (٤. (

أما الطغيان فهو الزيادة السلبية في الشيء ، و منه طغيان الحاكم إذا بالغ في الظلم ، و طغيان النهر إذا فاض ماؤه ، و طغيان البصر أن يرى الإنسان الشيء أضخم من حجمه ، و الرسول لم يزغ بصره ، بل كان مطمئنا ركز نظره في الحقيقة لم ينحرف عنها بما ثبته الله تعالى ، ولم تطغ عينه فكان ما رآه صغيرا و لكنه صوره لنا أكبر من حجمه عندما رجع من عروجه.

] [18]إن الآيات التي رآها كانت كبيرة بالفعل[

]لقد رأى من ءايات ربه الكبرى[

كسدرة المنتهى التي تظل الورقةمنها الدنيا بأجمعها ، و يقف عليها ملك يسبح الله لا يفتر عن ذلك ، و كنور الله الذي تجلى للنبي (ص) عندها ، و هكذا الكثير من الآيات التي تعرضت إليها أحاديث الإسراء و المعراج ، إلا أن الكبر في الآيات لا ينصرف إلى حجمها و حسب ، إنما هي قبل ذلك كبيرة في دلالتها على الحق.

(1)الصف / ٥.

(2)آل عمران / ٨.

(3)آل عمران / ٧.

(4)الأحزاب / ١٠.

و كلمة أخيرة:

إن الآيات التي رآها الرسول (ص) لا يلم بها الكلام مهما كان طويلا و واضحا ، و قد لا تستوعبها أذهاننا ، لأن الكثير منها حقائق غيبية مجردة ، لذلك يأتي ذكرها في القرآن كما في الأخبار ذكرا إجماليا.

أم للانسان ما تمنى
هدى من الآيات

المسافة بين الحق و الباطل و بين الهدى و الهوى هي بالذات المسافة بين الحق و التمنيات ، و بين السعي و الأحلام ، و إذا عرفنا الفارق بين واحدة من هذه المفارقات فإنها ستكون مقياسا لنا نعرف بها مثيلاتها.

فالذين يعيشون على التمنيات هم الذين يعبدون الأصنام ، زاعمين بأن عبادتهم لها سوف تغنيهم عن الحق الواقع ، و هم الذين يزعمون بأنوثة الملائكة و بنوتهم لله ، و أنهم يشفعون لهم من دون إذنه تعالى ، و هم كذلك الذين يتبعون الظن طلبا للتخلص من مسؤولية الحق والعلم.

ففي الدرس السابق بين القرآن و بوضوح كاف أن الوحي رؤية مباشرة و حضور النبي (ص) عند الله بدىء كل حق و بديع كل واقع سبحانه ، و كذلك شهوده الواعي للملك المنزل من عنده وهو جبرئيل (ع) و وعيه و عرفانه لآيات الله ، و بالتاليفإن مسافة لا متناهية تفصل بين واقع الحضور و الشهود و العلم عند الرسول و بين الأهواء و الظنون عند أولئك الكفار.

و هنا يلج السياق في الحديث المفصل ببيان الضلالات التي وقع فيها المشركون بابتعادهم عن الهدى ، و اعتقادهم بالأصنام ليس عن قناعة ، بل لأنهم أرادوا منها الشفاعة ، و الفرار من المسؤولية ، و الآيات تنسف هذا الضلال بالتأكيد على أن الملائكة مع كرامتهم عندالله لا يملكون الشفاعة إلا من بعد إذنه و رضاه ، فكيف بهذه الأصنام الحجرية التي لا تبصر ولا تسمع ، ولا تنفع ولا تضر ، بل يستوجب الإعتقاد بها الغضب و العذاب ؟! . أنهم يتمنون ذلك و يزعمون ، و الظن لا يغني من الحق شيئا ، إذ ليس في هذا العالم إلا الحق ، وإنما الحق أن يبلغ الإنسان ما يسعى إليه.

بينات من الآيات

[20 - 19]الجهل أرضية أكثر العقائد الفاسدة ، فلأن المشركين لم يعرفوا عظمة الله وآياته طفقوا يعبدون الأصنام ، و لذلك نجد القرآن بعد تأكيد علم النبي (ص) بربه من خلال الوحي يأتي على بيان فساد عقائد المشركين بالآلهة المزيفة التي عبدوها من دون الله ، بتوجيههم إلى العلم و تبصر الحقائق دون الإسترسال مع الأهواء ، و يقول مستنكرا هذا الضلال:

]أفرءيتم اللات و العزى * و مناة الثالثة الأخرى]و هي من أهم و أشهر الأصنام التي عبدها المشركون في الجاهلية ، فأما " اللآت " فقيل أنه صنم لأهل الطائف جعلوا له سدنة و كهنة و حجابا ، و زعموا أنه تأنيث لله سبحانه و تعالى ، و قالوا : إن كان لأهل مكة بيتا يزورونه و يطوفون حوله كل عام فنحن لنا هذا الإله ، و كانت قبيلة ثقيف التي تسكن الطائف تقدسهو تحترمه ، و أما " العزى " فقيل أنه تأنيث عزيز ، و هو شجرة بين الطائف و مكة يقدسونها و يعبدونها ، و قيل عن " مناة " أنه بين مكة و المدينة (و لعل التعبير مستوحى من الأمنية) و كانت قبيلتي الأوس و الخزرج و أخرى غيرهما يزورونه و يطوفون حوله ، و ربما كانوا يحرمون عنده في طريقهم إلى مكة المكرمة.

و المشركون عبدوا هذه الأصنام و لم يروا عليها برهانا قاطعا ، إنما نطقوا عن الهوى ، و اتبعوا الظن ، أما الرسول فهو على بصيرة من أمره ، و هدى من ربه ، إنه آمن بالله من خلال وحيه الذي تنزل عليه ، الذي كان من الدلالة و الحجية أن رآه متجليا فيه ، كما رآهمتجليا في مشاهدات المعراج.

[22 - 21]و ربما كان المشركون يعتقدون بأن هذه الأصنام هي رموز لملائكة في السماء ، فهم يقدسونها لكي تقربهم إلى تلك الملائكة ، و هي بدورها تشفع لهم عند الله ، كما قالوا : " ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى " (١ (، و حيث يعتقد الجاهلونبأن الملائكة إناث فقد سموا هذه الأصنام تسمية الأنثى و نسبوها إليه عز وجل ، و القرآن يستنكر هذه النسبة التي لا تقوم على أساس من العلم و الحق.

]ألكم الذكر و له الانثى[

و حيث يعتقد المشركون بأن الذكر أفضل من الأنثى فكان ينبغي على ضوء عقيدتهم أن يتقربوا إلى الله بالأحسن لا الأسوأ ، و من هذا المنطلق تكون قسمتهم ظالمة حتى حسب معتقداتهم الضالة.

]تلك إذا قسمة ضيزى[

بعيدة عن الحق ، و هم لم يروا الملائكة و لم يشهدوا خلقهم حتى يزعموا بأنهم(١) الزمر / ٣.

كانوا إناث ! ، و هنا تتضح منهجية القرآن ، فهو يحطم العقائد المنحرفة من بناها الأساسية ، و ذلك يزيل القدسية التي يعتقدونها في أصنامهم ، ببيان أظهر الأدلة على زيفهم و انحرافهم ، مع أن الأظهر قد لا يكون هو أهم الأدلة ، و قد لا يعبر عن كل الحقيقة ، و لكنهيحطم القدسية التي أضفوها على معتقداتهم و رموزها من الأصنام و الطغاة ، و بعد أن تزول عقبة القدسية الموهومة عن طريق النفس يتحرر الفكر ، و ينطلق للبحث عن الحقيقة ، فيطرح القرآن الحقائق الأعمق للنظر فيها.

[23]و بعد التمهيد المتقدم الذي استهدف إزالة قدسية معتقدات المشركين ينسف القرآن أفكارهم من أساسها نسفا ، و ذلك ببيان أنها لا رصيد لها أبدا من الواقع و الحق ، و أنها لا تقوم إلا على الأوهام و الظنون.

]إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وءاباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان]فهي لا واقعية لها ، بل هي مجرد أسماء و رموز لا مسميات لها ، و لعل معنى ذلك أن قوة هذه الأصنام نابعة من ظنونكم و أوهامكم ، لا من واقع حق وراء ذلك . أو ليس ما يتصوره البشر من صور خيالية قائمة بنفسه ، و يكفي لإزالتها مجرد توقف الخيال عن تصورها ؟

تصور الآن نهرا من لجين مذاب ، و اختر له إسما مثلا (نهلجين) ، ثم أوقف عملية التصور ، ماذا يبقى من هذا الذي سميته (نهلجين) ؟ لا شيء ، كذلك حين يوقف المشرك توهمه لقدسية الأصنام لا يبقى منها شيء ، و كذلك الطغاة (وهي الأصنام البشرية) تزول قوتهم وهيبتهم بمجرد إحساس المستضعفين بواقع أمرهم و انتزاع وهم القدسية عنهم . أليس كذلك ؟

ثم أن هذه الأسماء لا شرعية لها ، لأن الشرعية تأتي من عند الله وحده ، و ليس هناك دليل على أن الله أمر بعبادتها أو التوسل بها إليه.

و مجرد عدم وجود دليل (و سلطان مبين) من عند الله يسمح للإنسان بالتسليم لقوة سياسية (صنم حجري أم بشري) يكفي دليلا على حرمة هذا الأمر . أوليس الله قد خلقنا ، و نحن عبيده . أفينبغي للعبد أن يطيع غير مولاه ؟!

و إنما قال تعالى " : أنتم " و أضاف إليها " و آباؤكم " لكي يؤكد مسؤوليتهم هم عن انحرافهم ، و أنه لا يجوز إلقاء مسؤولية الإنحراف على آبائهم وحدهم ، و نستوحي من هذه الآية أن منهج المشركين الخاطىء خليط من أمور ثلاثة:

الأول : وراثة الضلالة من الآباء ، بينما الشرعية الحقيقية يأخذها الإنسان من ربه لا من آبائه.

الثاني : الظنون ، وهي الإفرازات السلبية للذهن البشري حينما تعمل فيه المؤثرات الخاطئة.

الثالث :أهواء النفس ، و دورها : أولا : التمهيد للظنون ، و ثانيا : ترسيخها كما ترسيخ ذلك التقديس الخاطىء للآباء ، لأنها تلتقي معه.

]ان يتبعون إلا الظن و ما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى]و بالتدبر في هذه الآية وما سبقها يتضح لنا أن حركة الإنسان نحو الزيغ تبدأ من أهواء النفس ، الذي يتحول إلى تمني ، و التمني إلى ظن (خيال) ، ثم تتحول التمنيات إلى عقيدة و فكرة ، ثم يؤطر البشر ذلك برموز و أسماء يزعمها ، فالأصنامإذن ليست رموزا للملائكة ولا للقوى الطبيعية ، إنما هي تجليات للأهواء النفسية و المصالح المادية ، فحينما يحب الإنسان الثروة يحب الثري ، و يتخيل لهذا الحب رمزا و مذهبا ، ثم حينما يعبده فهو لا يعبد الصنم ولا الثري أو الثروة ، إنما يعبد أهواءه و شهواته ،و هكذا الذي يعشق الجمال أو الجنس ، و لو قمنا بدراسة تحليلية عن الأوثان و الأصنام التي عبدها الجاهلون في شبه الجزيرة العربية ، أو تلك

التي علقوها في الكعبة ، أو الأخرى التي تقدس و تعبد هنا و هناك ، لخلصنا إلى نتيجة واحدة و هي أنها ترمز إلى قوى اجتماعيةو اقتصادية و سياسية أو ثقافات و تقاليد و أساطير عند أصحابها ، و أن عبادتها ليست إلا عبادة للأوهام و الأهواء المتجذرة في نفوسهم.

و هذا الضلال ليس نتيجة انعدام الهدى أو غموضه ، فقد جاءهم الهدى من ربهم ، و على لسان أفضل خلقه و أبلغهم وهم الأنبياء ، و لكنهم تركوا العقل إلى الجهل ، و العلم إلى الظن ، و الهدى إإلى الهوى .

[24]ولو تساءلنا عن سبب هذا الإختيار الضال لوجدناه محاولتهم التهرب من ثقل المسؤولية بالأعذار المختلفة التي جاءت السورة لعلاجها ، و يبدو أن السياق يمهد لذلك و يقربنا شيئا فشيئا منه ، فمن أهداف الرسالات الإلهية جميعا ترسيخ المسمؤولية ، و تعرية الإنسان من حجب التبرير و الأهواء التي يحاول أن يتخلص من المسؤولية باسمها.

]أم للإنسان ما تمنى[

التمني هو خداع الإنسان لنفسه بشيء جميل من خلال الظنون والأوهام التي يصنعها بتخيلاته ، فالجائع يتمنى الشبع فيتخيل القرص ، و العطشان يتمنى الإرتواء فيتوهم الأنهار الرقراقة ، و الشبق يتخيل نفسه يلصق بمعشوقته ، و هذه حالة طبيعية فيالإنسان ، تعطيه التوازن في الحياة ، و كلما كانت الحقائق و التطلعات التي يصبو إليها كبيرة و هامة كلما كانت تمنياته تأخذ أشكالا و أبعادا جديدة ، إلا أن المبالغة في التمني تضر به لأنه يخرجه من التعايش الواقعي مع الحياة إلى الأوهام و الأساطير ، و من السعي الجاد نحو الهدف إلى مجرد الظن و الهوى . أترى لو جلس أحد في بيته و تمنى وصول الرزق إليه هل يتحقق ذلك له ؟ و هكذا لو مشى في الدنيا خبط عشواء ، فإن مجرد تمنياته -المنطلقة من أهوائه و الظنون و المبنية على اعتقاده بالأصنام - لن تدفع عنه المشاكل و الويلات ، و لن تنقذه من العذاب ، بلى . للإنسان سعيه و عمله خيرا أو شرا ، و هذا ما سنجد الآيات تنتهي إليه كمحصلة نهائية لعلاج فكرة التمني ، قال الإمام الصادق (ع) : " تجنبوا المنى ، فإنها تذهب بهجة ما خولتم ، و تستصغرون بها مواهب الله جل و عز عندكم ، وتعقبكم الحسرات فيما وهمتم به أنفسكم " (١. (

[26 - 25]و بطلان فكرة التمني ليس مختصا بالآخرة وحسب ، بل يشمل الدنيا أيضا ، ذلك أن الله الذي خلقهما رسم خريطتهما ، و أركز فيهما سبلا و سننا واقعية تجريان على أساسهما ، و ليس على أساس الأحلام و التمنيات ، يقول تعالى : " ليس بامانيكم ولا أمانيأهل الكتاب من يعمل سوء يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا " (٢. (

]فلله الأخرة و الأولى[

الله هو الحق ، و هو الآمر به ، و سلطانه الدائم ، و تدبيره المهيمن ، و قضاؤه النافذ ، كل أولئك ضمانة لتنفيذ الحق رغم تمنيات البشر المعاكسة له ، و ليس في(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٤٢.

(2)النساء / ١٢٣.

ظل حكومة الله مجال لظنون الإنسان و تمنياته ، و من يزعم أنه يتخلص من سنن الله و حاكميته بالاعتماد على أمانيه فهو يخطىء ، لأنه ينازع الله في سلطانه سبحانه ، و لكي يعمل أمنياته لابد ان يخرج من سلطان الله ، و يبحث له عن حياة تغني فيها الأمنيات ، و لن يحصل ذلك لأن الحياة كلها له عز وجل ، أو يبحث له عن حكومة يمكنها أن تواجه سلطانه و إرادته ، و لن يجد إلى ذلك سبيلا ، و حتى الملائكة الموكلين بالطبيعة لا تغني شفاعتهم شيئا ، لأن قوتهم من الله و ليست ذاتية ، و هم لا يشفعون إلا لمن شاء و ارتضى.

]و كم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا[

لو افترض أنهم بادروا للشفاعة ، فكيف بتلك الأصنام ؟! بلى . أن شفاعتهم و الأولياء تنفع بإذنه تعالى ،

و لأفراد مخصوصين يرضى لهم الله الشفاعة.

]إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء و يرضى[

و إذنه لا يحصل بسبب ضغط قوى أخرى ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا ، إنما يأذن بإرادته العليا ، كما أنه لم يجعل الشفاعة بعيدة عن القوانين و السنن التي خلق الحياة وفقها ، و من هذه القوانين أن يكون الشفيع مرضيا عنده.

و هكذا يحدد القرآن الشفاعة بحدين :

)أ (حد للشافع الذي لا يكون إلا من يرتضيه الله ، فلا تجوز الشفاعة أساسا إلا للأنبياء و الأولياء و الملائكة المقربين ، أما الأصنام الحجرية و البشرية فليست أهلا للشفاعة أبدا.

جاء في الحديث عن الرسول الأعظم)ص: (

"الشفاعة للأنبياء و الأوصياء و المؤمنين و الملائكة " (١)و عنه (ص " : (ثلاثة يشفعون إلى الله عز وجل فيشفعون : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء " (٢. (

)ب) حد لمن يشفعون له ، فلا يشفه من وصل إلى درجة الشفاعة إلا لبعض الناس ممن يأذن الله له بأن تشمله الشفاعة وممن رضي الله عنه . قال عز وجل : " ولا يشفعون إلا لمن ارتضى " (٣. (

وروى عن الإمام الصادق (ع) : " إعلموا أنه ليس بغني عنكم من الله أحد من خلقه شيئا ، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ، ولا من دون ذلك ، فمن سره أن ينفعه شفاعة الشافعين عند الله فليطلب إلى الله أن يرضى عنه " (٤. (

و عن الرسول الأعظم (ص) : " الشفاعة لا تكون لأهل الشك و الشرك ، ولا لأهل الكفر و الجحود ، بل يكون للمؤمنين من أهل التوحيد " (٥. (

و عن الإمام الصادق (ع " : (لو أن الملائكة المقربين و الأنبياء المرسلين شفعوا في ناصب ما شفعوا " (٦. (

ولا تنفي الآية بقوله تعالى " لا تعني " الشفاعة كليا ، و إنما تنفي حتميتها ، كما تؤكد على ضرورة أن لا تكون علاقة الإنسان بالغير حتى العباد المكرمين(١) بحار الأنوار / ج ٨ / ص ٥٨.

(2)المصدر / ص ٣٤.

(3)الأنبياء / ٢٨.

(4)بحار الانوار / ج ٨ / ص ٥٣.

(5)المصدر / ص ٥٨.

(6)المصدر / ٤٢.

كالملائكة والأولياء من الناس مضادة لعلاقته بربه ، ولا بديلا عنها ، بل امتدادا لها ، و قوله " : " لمن يشاء " يهدينا إلى أن الشفاعة قضية شخصية تتوجه إلى الإنسان الفرد بذاته بعيدا عن النظر الى انتمائه ، فقد ينتمي إجتماعيا إلى فريق الضالينو لكنها تناله و قد تفوته بالرغم من انتمائه إلى فريق المؤمنين ، و الذي يحدد الشفاعة هو علم الله النافذ إلى حقيقة الإنسان.

[27]ثم يقول تعالى:

]إن الذين لا يؤمنون بالأخرة ليسمون الملائكة تسمية الأثنى]و السؤال : لماذا يسمي المشركون الملائكة إناثا ، وما هي علاقة ذلك بالكفر بالآخرة ؟

لعلنا نجد الجواب في أن الأنثى رمز العطف و الحنان ، و هم يسمون الملائكة بذلك رجاء عطفهم و شفاعتهم لهم عند الله ، و بهذا الإعتقاد يحاول المشركون تبرير ممارستهم للذنوب في الدنيا ، و اقناع أنفسهم بإمكانية التخلص من مسؤولياتها في الآخرة بالتوسل بمن يعطف عليهم و هم الإناث من خلق الله وهم الملائكة حسب زعمهم ، و هذا كفر صريح بالآخرة كدار للجزاء العادل.

[28]وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن[

وهو الإفرازات (التصورات و الأفكار) الناتجة من إعمال الإنسان لخياله بعيدا عن البراهين الواقعية.

]و إن الظن لا يغني من الحق شيئا [

و نفي البعض بنفي الكل ، و ليس العكس ، وهو أبلغ في النفي ، فلا شيء من الحق يغنيه الظن أبدا ، و القرآن هنا يستثير قضية وجدانية هي قبح كلام الإنسانفيما لا يعلم ، و قد تحدث هؤلاء عن طبيعة الملائكة و ذلك جزء من الغيب المحجوب عن علم البشر بشهادة وجدانه . أوليس الإنسان ينقذ عقله إلى معرفة الأشياء عبر حواسه ؟ أوليس لكل علم أداته و وسيلته ، فما هي الحاسة التي نعلم بها غيب السموات و الأرض ، و ما هي الأداة التي تعرف بها طبيعة الملائكة ، و أنهم إناث لا ذكور ؟!

إنها مشكلة البشر . إنه يهوى شيئا فيتمناه ، ثم يظن أنه واقع فيسعى وراء ظنه خادعا نفسه.

[29]و إنما اتبع هؤلاء الظن لأنهم اختاروا الدنيا على الآخرة ، فاكتفوا بالظن بدل العلم و الحق ، و بالتمني بدل السعي ، و كل ذلك لأنهم لم يعترفوا بالمسؤولية و لم يبتغوا مرضاة الرب ، ولو آمنوا بالآخرة ، و ظنوا أنهم ماثلون أمام ربهم للحساب غدا عن كل صغيرة و كبيرة ، إذا عرفوا أن الطريق إلى الحق هو العلم و ليس الظن ، ولكنهم آمنوا بالدنيا فقط ، و الدنيا هي حياة اللامسؤولية ، وعلى الداعية الرسالي أن لا يبخع نفسه عليهم ، بل يتركهم و شأنهم.

]فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا]لأن مشكلة هذا النوع من البشر ليس عدم قناعته بالحق ، فهو يعلم بأنه الهدى و الصواب ، و لكنه يتولى عنه ابتغاء الدنيا ، و إنما أمر الله بالإعراض عنهم لكي لا يتأثر المؤمن بهم سلبيا ، فيغير من رسالته صوب الدنيا ، تنازلا عن بعض أهدافها ، أو من أجل إقناعهمباتباعها ، ثم أنه لا ينبغي للمؤمن أن يبدد جهوده الغالية فيما لا يرجو نفعا منه ، بل فيما يخدم الرسالة ، و يقدم المؤمنين خطوة إلى الإنتصار.

و قد قال تعالى " : عن ذكرنا " وهي للتعظيم ، و لم يقل عن ذكري ، لأنالضمير المفرد يستخدمه الله في موضع إثبات التوحيد و تأكيده ، أو في مجال الرحمة و العطف ، و الحال أن هؤلاء تكبروا عن الحق ، و تولوا معرضين عنه ، فالمقام مقام التعالي و التكبر عليهم مما يتناسب و استعمال ضمير التعظيم (أو ما يسمى بضمير الجمع) ، ذلك لأنإعراضهم لا ينال شيئا من عظمة الله ، كما أن إيمان المؤمنين لا يزيده سبحانه شيئا . و سمى القرآن هنا بالذكر لأنه في مقام علاج العقائد ، و هي قضايا وجدانية ، و لفظ الذكر بما يحويه من إيحاءات و إشارات لعلاقة القرآن بالفطرة البشرية أخدم للمعنى من غيره في هذا الموضع.

كما تنطوي نهاية الآية " : إلا الحياة الدنيا " على فكرتين مهمتين:

الأولى :إن المؤمن يفترق عن الكافر و المشرك في قضية أساسية هي أن الأول يريد الدنيا و الآخرة ، و يسعى لهما معا ، موفقا بين الحق الذي يجب عليه الإلتزام به ، و بين نصيبه الذي أحل الله له من الدنيا .

و الثانية :إن على المؤمن أن لا يضعف أمام أعداء الله أو يتملق إليهم لأنهم ظفروا بشيء من حطام الدنيا ، فذلك حظهم ، بل يجب عليه أن يستمسك برسالته ، و يتصلب في ولائه للحق ، و يعرض عنهم ، لأنهم لا يملكون إلا هذه الدنيا الزائلة.

[30]وإن عدم إرادة المعرضين عن الذكر للحياة الآخرة ليس ناشئا من حسن اختيارهم ، و إنما لجهلهم بتلك الحياة و ما فيها من الثواب ، ولو علموا يقينا ما فيها من الفوز لأرادوها و اشتملت فاقتهم إليها ، و عظمت رغبتهم فيها ، و لكنهم حصروا أنفسهم وحبسوا عقولهم في سجن الدنيا ، و هذه من معضلات الإنسان أنه يصنع لنفسه سقفا من العلم ، و يكبل عقله بأغلال الهوى و إصر الشهوات عن الإنطلاق في رحاب العلم و الحق ، و صدق الإمام علي (ع) حيث قال : " كم من عقل أسير تحتهوى أمير " (١. (

]ذلك مبلغهم من العلم[

و هذه الآية تؤكد بأن الإيمان بالآخرة حجر الزاوية في تفكير الإنسان المؤمن.

و لكي يتم إعراض المؤمن عن الجاهلين يحتاج إلى أمور أهمها:

- 1العلم بأنهم على باطل ، و قد بين القرآن ذلك حينما أكد بأنهم لا يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ثم ضرب أمثلة على ذلك كموقفهم من الملائكة ، و كفرهم بالآخرة ، و توليهم عن الذكر.

- 2اليقين بأنهم ضعفاء في المحصلة النهائية بخسرانهم الآخرة.

- 3المعرفة بأن حساب الناس ليس من مسؤوليات المؤمنين ، إنما الله يفصل بينهم ، و يعلم المهتدين و الضالين.

]إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى]إذن فغلبة الضالين على المؤمنين عند الجدال أو عدم غلبة المؤمنين عليهم لا يغير من الواقع شيء ، فأهل الباطل هم أهل الباطل و أهل الحق هم أهله ، ذلك أن كلام الناس ليس مقياسا ، إنما الحق و الباطل هما المقياس بذاتهما.

ثم أن الخلافات - حسبما نستوحي من الآية الكريمة - لا تحسم في الدنيا لأنها لم تخلق لذلك ، و كما قال الله : " ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا(١ (نهج البلاغة / حكمة ٢١١

يزالون مختلفين " (١) ، و الدار الآخرة هي محل الحسم و الجزاء ، فلا ينبغي للمؤمن أن يكون جبارا على الناس يحاول إكراههم على الهدى إن أوتي السلطة عليهم ، كما لا ينبغي عند ضعفه أن يهلك نفسه إذا ما تولوا عن دعوته.

كما نستوحي من كلمة " عن سبيله " في الآية أن في الحياة سننا و قوانين ، و هي السبيل الى الحق ، و هذه يعلمها الله و يحاسب عليها ، يضل عنها جماعة فيصيرون إلى الباطل و العذاب ، و يهتدي إليها آخرون يصيرون إلى الحق و السعادة ، و السبب أن الفريقالأول ينكر هذه الحقيقة ، بينما يؤمن بها فريق المهتدين فيبحثون عنها ، فإذا وجدوها طبقوها ، و كيفوا حياتهم وفقها ، و تجاوزوا الأخطاء و الضلال.

(1)هود / ١١٨.

وأن ليس للإنسان إلا ما سعى

هدى من الآيات

بصراحة الحقيقة ، و بقوة اليقين ، يتقدم بنا السياق القرآني شيئا فشيئا الى الفكرة المركزية في هذه السورة ، و هي فكرة المسؤولية التي نجدها في تضاعيف اغلب آياتها و كأنها خافية لكل فكرة فيها و شاهد ، الا انها تتجلى كصراحة الشمس عند قوله تعالى : " وأن ليس للإنسان إلا ما سعى " الآية (٣٩

. (

و لكن الله قبل ان يقذف بهذا الحق على باطل التبرير و اتباع الهوى و الظن ، يذكرنا بلون من الوان الشفاعة المقبولة عنده و هي شفاعة الاعمال الحسنة للانسان عن اللمم من السيئات كما نجد تصريحا به في الآية الكريمة : " و أقم الصلاة طرفي النهار و زلفا منالليل ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين " (١) ان تقوى الانسان التي تجنبه كبائر الاثم تشفع له في الصغائر (اللمم) ، و لعل(١) هود / ١١٤

تقديم هذه الفكرة (الشفاعة) المشحونة بالرجاء و اللطف الالهي ، على فكرة المسؤولية وما فيها من الشدة و الصرامة ، يهدف اعطاءنا الامل في رحمة الله ، لكي لا نيأس فنتوغل في الجريمة و الذنب ، او نقعد من عمل الصالحات ، بناء على تصوراتنا البشرية المرتكزة في القنوط و الجزع . كلا ان الله رحيم و يحاسبنا بفضله لا بعدله ، والا لما دخل الجنة احد كما قال الرسول الاعظم)ص) : " ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه و فضل " (١. (

ثم يؤكد القرآن بخطاب فصل مسؤولية الانسان عن سعيه ، أنه يجازي عليه ان خيرا فخير و ان شرا فشر ، وهي تتعلق بنفي الشرك و برفض الانداد و مدى عمق حقيقة التوحيد في النفس فكلما زاد يقين الانسان بالله و انه المالك الحاكم الاحد لكل شيء ، كلما كان اقرب من المسؤولية ايمانا و عملا ، و ابعد عن الحجب و التبريرات التي تمنعه من حملها.

ان التوحيد يجعله لا يتوسل بوشائج الشرك ، التي هي بذاتها نوع من التبريرات التي يلجأ اليها الانسان تهربا من المسؤولية . انك تراه يقبل كل شيء ، يقبل ان يكون عبدا للشجر و للحجر و للبقر لا فرق من اجل ذلك لكي يفر من ثقل المسؤولية . اذا فمتى ما طهرت نفسهمن درن تلك الاصنام ، القائمة على اساس الثقافة الجاهلية الضالة ، القائمة بدورها على الظن و هوى النفس ، فانه يومئذ مجرد ان يقف امام المسؤولية بلا تبريرات يجد نفسه امام حجة بالغة تضطره الى التسليم لها عمليا.

بينات من الآيات

[32 - 31]لقد دعى الله المؤمنين الى الاعراض عمن تولى ، ولان البعض لا يعرض عن الكيان الجاهلي خشية الضعف والفقر ، اكد القرآن بان الله هو الغني(١) بح / ج ٧ / ص ١١.

الذي يملك خزائن الكون ، و القوي الذي يهيمن على الحياة . فلماذا الخشية اذا من مقاومة الانحراف ؟ و رفض هيمنة المنحرفين ؟

]و لله ما في السماوات و ما في الأرض[

فهو وحده الذي وضع سنن الكائنات و يهيمن عليها و يجريها بقدرته و عدالته.

]ليجزي الذين أساؤا بما عملوا[

عدلا السيئة بمثلها.

]و نجزي الذين أحسنوا بالحسنى[

فضلا ، فالحسنة بعشر امثالها ، و تتضاعف " ولدينا مزيد " (!) و بالتدبر في شطري الآية الكريمة الشرط الاول الذي ينطوي على فكرة التوحيد (و لله ما في السماوت و الأرض) ، و الشطر الثاني الذي ينطوي على فكرة المسؤولية المنبثقة من حقيقة الجزاء (ليجزي ..) فاننا نعرف العلاقة الوثيقة بينهما ، و ذلك ان الذين ينحرفون يحاولون التملص من مسؤولياتهم بالشرك . و الحق ان التوحيد يعني نفي الشريك ، و هذا بدوره ينفي التبرير ، اذن فالموحد الحق هو الذي يتهيأ لحمل المسؤولية . ان هذه الآية تنسف ثقافة التبريرالمتجسدة في عبادة الانداد كالملائكة و الاصنام و حتى العباد الصالحين تمنيا للشفاعة ، و ذلك

ببيان ان الله يجري عدالته في الحياة ، و لا احد يستطيع فرض ارادته عليه ، لان الحياة تكونينيا و تشريعيا له وحده لا يشاركه فيها احد ، واذا كانت ثمة هيمنة ظاهرية للملائكة فهي تنفيذية و باذن الله ، و تبقى الهيمنة الحقيقية المطلقة لله وحده ، فلا مهرب منه إلا اليه ولا شفاعة الا من بعد اذنه ، ولا انداد قادرين على تغيير سنن الله في الخليقة حسب اهوائهم(١) ق / ٣٥.

و بالذات سنة الجزاء العادل.

ثم ان تأكيد القرآن على بيان العدالة الالهية في الجزاء في اكثر سور القرآن انما هو ليزرع الاطمئنان العميق في قلب البشر الى وقوع الجزاء . الامر الذي يبعثه نحو عمل الخير و يزجره عن الشر الا ان العدالة و بالتالي المسؤولية فكرة قاسية لا يتحملها القلب البشري الذي من طبيعته الانحراف .لذلك تأتي الآية اللاحقة لتخفف وطأتها ببيان مدى رحمة الله و غفرانه.

]الذين يجتنبون كبائر الأثم و الفواحش[

و الاثم هو عموم الذنب (بين العبد و ربه او بينه و بين نفسه او بينه و بين الناس) بينما الفواحش هي الذنوب الاجتماعية . قال الامام الصادق (ع " : (الفواحش الزنا و السرقة " (١) وهما ذنبان اجتماعيان.

و ذكر الفواحش من دون اضافة كلمة الكبائر بخلاف الاثم اضيف اليه لفظ الكبائر ، لان الفواحش بذاتها من الكبائر فلا يقال للذنب الاجتماعي فاحشة ، بينما الاثم فيه الصغائر (اللمم) و فيه الكبار . و فيما يلي نذكر حديثا في كتاب الاثم مرويا عن الامام الرضا (ع) قال : " سمعت ابي موسى بن جعفر (ع (يقول : دخل عمرو بن عبيد البصري على ابي عبد الله (ع) ، فلما سلم وجلس تلا هذه الآية (الذين يجتنبون كبائر الاثم) ثم امسك فقال له أبو عبد الله)ع) : ما أمسك ؟ فقال : احب ان اعرف الكبائر من كتاب الله عز وجل فقال:
يا عمرو ! اكبر الكبائر الشرك بالله . يقول الله تبارك و تعالى : (ان الله لا يغفر ان يشرك به) و يقول عز وجل : (انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من انصار) ، و بعده اليأس من روح الله لان الله عز وجل يقول : (ولا

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٦١.

تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) و ثم الامن من مكر الله . لان الله عز وجل يقول : (ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون) . و منها عقوق الوالدين . لان الله عز وجل جعل العاق جبارا شقيا في قوله تعالى : (و برا بوالدتيولم يجعلني جبارا شقيا) ، و قتل النفس التي حرم الله الا بالحق . لان الله عز وجل يقول : (و من يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ... الى آخر الآية) ، و قذف المحصنات . لان الله عز وجل يقول : (ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا و الآخرة ولهم عذاب عظيم) ، واكل مال اليتيم ظلما لقول الله عز وجل : (ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا و سيصلون سعيرا) ، و الفرار من الزحف لان الله عز وجل يقول : (ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله و مأواه جهنم و بئس المصير) ، واكل الربا لان الله عز وجل يقول : (ان الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) و يقول الله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتممؤمنين * فان لمن تفعلوا فاذنوا بحرب من الله و رسوله) ، و السحر لان الله عز وجل يقول : (ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الاخرة من خلاق) ، و الزنا لان الله عز وجل يقول) : ومن يفعل ذلك يلق اثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا الا من تاب)الآية ، و اليمين الغموس لان الله عز وجل يقول : (ان الذين يشترون بعهد الله و ايمانهم ثمنا قليلا اولئك لا خلاق لهم في الاخرة (الآية ، و الغلول قال الله عز وجل : (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة (، ومنع الزكاة المفروضة لان الله عز وجل يقول : (يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم و جنوبهم و ظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) ، وشهادة الزور و كتمان الشهادة لان الله عز وجل يقول (ومن يكتمها فانه آثم قلبه) ، و شرب الخمر لان الله عز وجل عدل بها عبادة الاوثان و ترك الصلوة متعمدا او شيئا مما

فرض الله عز وجل لان رسول الله (ص) قال : (من ترك الصلوة متعمدا فقد برىء من ذمة الله و ذمة رسوله (ص) ، و نقض العهد ، و قطيعة الرحم ، لان الله عز وجل يقول) : اولئك لهم اللعنة و لهم سوء الدار) " قال : فخرج عمرو بن عبيد و له صراخ من بكائه و هو يقول: هلك من قال برأيه و نازعكم في الفضل و العلم (١. (

وفي حديث آخر : " و اليأس من روح الله ، و الأمن من مكر الله تعالى ، و القنوط من رحمة الله تعالى ، و معونة الظالمين و الركون اليهم ، و اليمين الغموس ، و حبس الحقوق من غير عسر ، و الكذب ، و الكبر ، و الاسراف ، و التبذير و الخيانة ، و الاستخفافبالحج ، و المحاربة لاولياء الله ، و الاشتغال بالمناهي ، و الاصرار على الذنب " (٢. (

والى جانب هذه الكبائر هناك الذنوب الصغيرة التي يقترفها الانسان - بطبيعته الضعيفة - عن قصور او من دون قصد مبارزة الله ، فان حسناته و تجنبه للكبائر ، الذي يدل على سلامة مجمل مسيرته يشفعانها له ، و هذا من رحمة الله و سعة غفرانه ، اما لو مارس الصغائر عن عناد و اصرار فانها تصير كبائر ايضا.

]إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة[

قال الامام الصادق (ع) " اللمام العبد الذي يلم بالذنب بعد الذنب ، ليس من سليقته اي من طبعه " (٣) و كما ان الاصرار يصير الاثم الصغير من الكبائر ، فان التوبة والاستغفار يصيران الكبائر صغائرا ، او يمحوانها من كتاب السيئات . لذلك نجد تفسيرا لكلمة اللمم غير صغائر الاثم ، انما عموم الالمام بالذنب بصورة(١) المصدر / ص ١٦٠.

(2)المصدر / ص ١٦٣.

(3)المصدر / ص ١٦٢.

طارئة و غير متعمدة . و يؤكد الامام (ع) ان غفران الله يسع كل ذنب بشرط الاستغفار ، قال الامام الصادق (ع) " و اللمم الرجل يلم بالذنب فيستغفر الله منه " قال الراوي : بين الضلالة و الكفر منزلة ؟ فقال : " ما اكثر عرى الايمان " (١. (

ان السبب الحقيقي للذنب بالاضافة الى هوى الانسان هو الشيطان الرجيم ، و هو قد يمر مرورا على قلبه فيجعله يلم بالمعصية ، و قد يسكن فيه و يفرخ فيجعله يقترف الخطيئة تلو الخطيئة ، و بالنسبة للمؤمنين فانه لا يطيق السكون في قلوبهم لانهم يستعيذون بالله منه ،و يلعنونه قبل كل شيء و بعده ، و لو افترض ان اصابهم بسهم منه فانهم سرعان ما يرجعون الى الصواب " ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون " (٢. (

و كلمة اخيرة ان في الاسلام نوعين من الذنوب ، الصغائر و الكبائر ، و لكن المعول الحقيقي في تحديد نوع الذنب هو مدى وعي الانسان به و موقفه من ممارسته له ، فقد يندفع الانسان نحو ذنب صغير ، و لكن تحديا لسلطان الله ، و عنادا و استكبارا عليه ، فيكون كبيرا .فقد جاء في الحديث الشريف : " قد يرى الله العبد على ذنب فيقول له افعل ما شئت فاني لا اغفر لك ابدا. "

و قد يأتي الانسان بذنب كبير استرسالا و استجابة لضغوط هائلة ، و لكن سرعان ما يندم و يتراجع فان الله سبحانه يغفر له .. قال تعالى : " والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله ، فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ، و لم يصروا علىما فعلوا وهو يعلمون * اولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم ، و جنات تجري(١ (المصدر / ص ١٦١

(2)الاعراف / ٢٠١.

من تحتها الأنهار خالدين فيها ، و نعم أجر العاملين " (١. (

و لكن من الذي يحدد الذنب الذي يقترفه الانسان ، هل هو من الصغائر ام من الكبائر على ضوء هذه القاعدة ؟

انه الله الذي يحيط علما بدقائق حياة الانسان ، و في جميع مراحل نشأته . ولا يخدع الله عن جنته . نعم فهو الذي خلقنا وربانا من يوم كنا في بطون امهاتنا حتى نموت . فحتى العوامل الوراثية و التربوية التي تؤثر في شخصية الانسان التي تنقل اليه وهو جنين يعلمهاالله.

]هو اعلم بكم إذ أنشاكم من الأرض وإذا أنتم أجنة في بطون أمهاتكم]و يبدو ان كلمة الارض هنا تشير الى القوى و العوامل السلبية المؤثرة في شخصية الانسان ، كالهوى و حب المال و الظهور و ... و تشير الآية الكريمة الى بصيرتين هما : سبق رحمة الله الى الانسان اذ و الى نعمة عليه قبل ان يصير الى رحم امه فأنشأه من دون شيء سبقمنه اليه تعالى ، ثم لما صار جنينا انشأه و اسبغ عليه من نعمه حتى استوى ، و هذه الآية تؤكد سعة رحمة الله و مغفرته.

و قد تجلت هذه البصيرة القرآنية أيضا في دعاء الامام الحسين في يوم عرفة ، حيث جاء فيه : " ابتدأتني بنعمتك قبل ان اكون شيئا مذكورا . خلقتني من التراب ثم اسكنتني الاصلاب آمنا لريب المنون ، و اختلاف الدهور و السنين . فلم ازل ظاعنا من صلب الى رحم فيتقادم في الايام الماضية ، و القرون الخالية ، لم تخرجني لرأفتك بي ، و لطفك لي ، واحسانك الي في دولة ائمة الكفر الذين(١) آل عمران / ١٣٥ - ١٣٦.

نقضوا عهدك ، و كذبوا رسلك و لكنك اخرجتني للذي سبق لي من الهدى الذي له يسرتني ، و فيه انشأتني ، و من قبل ذلك رؤفت بي بجميل صنعك ، و سوابغ نعمك . فابتدعت خلقي من مني يمنى ، و اسكنتني في ظلمات ثلاث بين لحم و دم و جلد ، لم تشهدني خلقي ، و لم تجعل الي شيئامن امري ، ثم اخرجتني للذي سبق لي من الهدى الى الدنيا تاما سويا ، و حفظتني في المهد طفلا صبيا ، و رزقتني من الغذاء لبنا مريا ، و عطفت علي قلوب الحواضن ، و كفلتني الامهات الرواحم ، و كلاتني من طوارق الجان ، و سلمتني من الزيادة و النقصان . فتعاليت يا رحيم يا رحمان حتى اذا استهللت ناطقا بالكلام ، اتممت علي سوابغ الانعام ، و ربيتني زايدا في كل عام . حتى اذا اكتملت فطرتي ، و اعتدلت مرتي ، او جبت علي حجتك ، بأن الهمتني معرفتك ، و روعتني بعجايب حكمتك ، و ايقظتني لما ذرأت في سمائك و ارضك من بدائع خلقك ،و نبهتني لشكرك و ذكرك ، و اوجبت علي طاعتك و عبادتك "... (1)البصيرة الثانية : نفوذ علم الله الى جميع جوانب حياة الانسان و دقائقها ، اذن لا يفوته شيء عنه.

و فائدة بيان هذه الحقيقة هي ان الانسان قد يبتلى بالغرور و التبرير فيزكي نفسه ، و يسمي كل ما يقترفه من الذنوب حتى الكبائر و الفواحش لمما ، او يصل الى حالة ذلك الانسان الذي يشرب الخمر و يقول انه يتحول خلا بمجرد بلوغ فاه ، و يبرر ذلك بانه وصل الى درجةمن الايمان حيث يتحول في جسمه الخمر خلا ، او الاخر الذي امر اتباعه بالصلاة و قعد عنها لانه عند نفسه بلغ مقاما فوق الصلاة.

]فلا تزكوا انفسكم هو اعلم بمن اتقى[

(1)مفاتيح الجنان / دعاء يوم عرفة.

لانه اذا وصل الانسان الى هذه المرحلة ، بدأ رحلة الانتكاس ثم لا يتوقف بل ينحدر الى اسفل سافلين.

[34 - 33]ان عبادة الاصنام (الشرك بالله) و تزكية النفس تبريرات يتشبث بها الانسان ، و هناك تبريرا آخر يتمثل في محاولة الاعتماد على البدائل فمثلا اصحاب المال يظنون انهم حينما يعطون مالا في

سبيل الله ، فسوف يحررون انفسهم من تطبيق القيم و الالتزام بالمسوؤلية ، او يرفعون عنها مسؤولية ممارسة الكبائر و الفواحش . كلا.

]أفرأيت الذي تولى[

عن ذكر الله ، و عن تطبيق الحق و تحمل الامانة ، ثم اعطى بعض المال ليتهرب من المسؤولية ؟

]و أعطى قليلا وأكدى[

أي اعطى شيئا قليلا ثم توقف كليا عن العطاء.

قال صاحب المجمع نزلت الآيات السبع في عثمان ابن عفان كان يتصدق و ينفق ، فقال له اخوه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن ابي سرج : ما هذا الذي تصنع ؟ يوشك ان لا يبقى لك شيء فقال عثمان : ان لي ذنوبا واني اطلب ما اصنع رضى الله وارجو عفوه ، فقال له عبد اللهاعطني ناقتك برحلها وانا اتحمل عنك ذنوبك كلها ، فاعطاه واشهد عليه و امسك عن النفقة فنزلت : (افرأيت الذي تولى (اي يوم احد حين ترك المركز و اعطى قليلا ثم قطع النفقة الى قوله (وان سعيه سوف يرى) فعاد عثمان الى ما كان عليه عن ابن عباس و السدي و الكلبي وجماعة

من المفسرين (١) و قيل نزلت في الوليد بن المغيرة (٢. (

[38 - 35]بل ان اصحاب المال يظنون انهم على حق ومن اهل الجنة لمجرد كونهم من المترفين ، و هذا التمني عميق لديهم بدليل آيات سورة الكهف : " و كان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره انا اكثر منك مالا وأعز نفرا * و دخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما اظن انتبيد هذه ابدا * وما اظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربي لاجدن خيرا منها منقلبا " (٣. (

و القرآن يستنكر على المترفين هذا الظن قائلا : متى عرف هؤلاء ما في الغيب حتى يحكمون بانهم افضل الناس عند ربهم ؟!

]أعنده علم الغيب فهو يرى[

كلا ..انه لا يعرف شيئا عن الغيب ، و هذه قضية وجدانية . فلا يملك احد ان يدعي علما بالغيب . اذن فكيف يطلع على الحقيقة و يتمنى خلاصه من النار بقياس حاله في الآخرة بحاله في الدنيا ، و الاعتقاد بان الله لم يسبغ عليه نعمه في الدنيا الا انه يحبه فينبغي ان يكون محبوبا عند الله في الآخرة ايضا.

بلى يمكنه ذلك لو اتبع هدى الانبياء ورسالاتهم التي تكشف عن جوانب منه.

]أم لم ينبأ بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفى]لا يعلم الغيب ولا يتبع الرسالات الالهية ولقد جاءت الرسالات كلها بالمسؤولية ، و لكن الانسان وهو اكثر شيئ جدلا ، و يحاول التهرب منها بطبعه(١) الفخر الرازي / ص ١١ عند تفسير الآية.

(2)المجمع عند تفسير الآية.

(3)الكهف / ٣٤ - ٣٦.

الضعيف ، و بحنينه الدائم نحو التراب . و يبرر ذلك بانه ينتمي الى انبياء الله ، كما زعم اليهود بان انتماءهم الى موسى (ع) يرفع عنهم المسؤولية . فقالوا) : نحن ابناء الله وأحباؤه) (١. (

و كما زعمت قريش بان انحدارها من صلب إبراهيم يعطيها الشرف و يمنع عنها العذاب الالهي .. كلا " ان

اولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه و هذا النبي و الذين آمنوا معه " (٢) ، ان ابراهيم كان وفيا لله ، ضحى بماله و نفسه و قدم ابنه لله قربانا ، واودعزوجته هاجر وابنه الرضيع اسماعيل في الصحراء . و الذي يريد ان يكون في شيعته لابد ان يتحمل من المسؤولية كما تحمل عليه السلام ، و لم يكن في صحف موسى و ابراهيم التي انزلت عليهما من عند الله اي كلمة تسمح للانسان بالتحلل من مسؤولياته بتبرير الانتماء اليها، و قد قرأوا تلك الصحف و عرفوا ما فيها.

ان ابرز ما جاءت به صحف موسى و ابراهيم هو المسؤولية ، فكل انسان مسؤول عن نفسه ، ولا يمكنه بحال من الاحوال ان يلقي بتبعة اعماله على الآخرين.

]ألا تزر وازرة وزر أخرى[

و الوزر هو الحمل الثقيل . و الوازرة هي النفس التي تحمله . ولا تزر أي لا تحمل فكل نفس مثقله بحملها ولا تحمل حمل غيرها ابدا ، ولو عرف الانسان ماذا تعني المسؤولية و كيف تقف كل نفس امام ربها في يوم القيامة ضعيفة متهاوية القوى لا تملك عذرا ولا قوة ، لعرف مدى بطلان فكرة القاء المسؤولية على الآخرين بزعم انهم يتحملونها عنه . كلا انه موقف رهيب ترى فيه كل نفس تجادل عن نفسها ، و لها من شانها ما يغنيها عن الاهتمام بغيرها .

(1)المائدة / ١٨.

(2)آل عمران / ٦٨.

و هذا السياق من الآيات يضرب فكرة الفداء التي الصقها النصارى في عيسى (ع (حيث قالوا انه قتل ففداهم بنفسه بالرغم من انه جاء ليقاوم مثل هذا الانحراف عند اتباع موسى.

[41 - 39]و كما ان اوزار الانسان لا يتحملها احد سواه ، فان حسنات الآخرين لا تصير اليه ، انما " قيمة كل امرء ما يحسن " كما قال الامام علي (ع. (

]وان ليس للانسان الا ما سعى[

و السعي هو ما يقوم به الانسان بارادته و وعيه ، من قول وفعل وغيرهما . فالتحرك جزء من السعي و الوعي و الهدف و النية جزء منه ايضا . و الانسان هو الذي يصنع واقعه و مصيره الحقيقي بنفسه ، و مهما كان السعي صغيرا او كبيرا ، و في اي مكان قام به الانسان فانهلابد ان يعود عليه في الدنيا او في الآخرة . لان هناك سنة الهية تحكم الحياة ، و هي ان كل شيء يرجع الى اصله ضمن دورة حياتية قد تطول وقد تقصر . لابد ان تعود المياه التي تبخرت من البحار اليها بعد رحلة متطاولة من ساعة تحولها الى البخار حتى نزلها كامطار ثمجريانها فوق الارض ينتفع بها الانسان.

هكذا عملك الذي ينبعث من جوانح قلبك او جوارح بدنك لا يفنى . انه يتقلب في صور شتى قد يتحول مالا فيعود اليك ، او تصبح حالة اجتماعية تتأثر بها ، او يحفظ عند ربك يجازيك غدا به ، و هكذا مهما هرب المجرمون من جزاء جرائمهم فانه ملاقيهم.

ومن طريف ما قراته في هذا الحقل أن احد الخلفاء اقام مأدبة غذاء و حضر عليها احد كبار قادته العسكريين فرأى فيما راى من صنوف الطعام طير القطى مشويا ، فضحك مقهقها ، فسأله الخليفة عن السبب . فحاول ان يكتم . فاصرعليه . فاخذ يقص واقعة حدثت له قبل عشر سنوات مسترسلا قال : كنت في رحلة صيد في الصحراء ، فلقيت رجلا معه بعض المال فسلبته قهرا ، ثم أردت قتله فتوسل بي ان اتركه ولكن عزمت على سفك دمه . فلما رفعت عليه السيف نظر حوله فلم يجد احدا الا سربا من القطى صادف مرورها في ذات اللحظة .فقال اشهدي بانني اقتل غريبا مظلوما في هذه المفازة . فضحكت من قوله ثم قتلته . والآن لما رأيت القطا في السماط تذكرت ما قاله و سيفي يهوي عليه فلم اتمالك من الضحك على ذلك الرجل المسكين الذي اشهد القطا على قتله . فقال الخليفة بلى لقد ادت

القطا شهادتها وامر بجمع السماط ، و قال للجلادين احضروا النطع و السيف فاحضروهما و ضرب عنقه.

]و أن سعيه سوف يرى[

و هناك فكرة نجدها في هذه الآية وهي ان كل سعي يقوم به الانسان يتحول الى كيان مادي ، و ان الكلمة الطيبة ، و الموقف الشجاع ، و النشاط السليم ، كل ذلك يتحول الى شيء ملموس يراه الانسان . كذلك الكلمة الخبيثة ، و الموقف الجبان ، و الفساد.

أرأيت هذه الحركات المباركة ، التي تشيع الفضيلة و تزرع السلام و تبني الحضارات ، انها كانت في الاصل دعوات صالحة و مساعي حميدة . أرأيت هذه الويلات التي تصيب البشرية هنا و هناك ، انها كانت في الاصل كلمات خبيثة او مساعي فاسدة.

و ما معنى المسؤولية في الدنيا الا ارتداد صدى سعي البشر اليه ، فمن قاوم الظالم ، عاش في ظل العدالة دهرا ، و من جبن عن مقامته ساعة شمله خسفه و ضيمه . وأمة تنشط في بناء حضارة تنعم في ظلها طويلا واختها التي تتكاسلتعيش ابدا في بؤر التخلف و الفساد.

و ان مرور الزمان على سعي الانسان لا ينقصه انما يزيده نماء اولا اقل يبقيه كاملا وافيا.

]ثم يجزاه الجزاء الأوفى[

[48 - 42]وان هناك تسلسلا في السنن و المسببات في الحياة ، و منها سنة الجزاء ، و لكنها لا تتحرك في الفراغ او ما يسميه الفلاسفة بالدور ، بل لها بداية و نهاية ، و هناك من يشرف عليها وهو الله ، فالعالم اذن ليس بعيدا عن العقلانية ، و لا مجرد قوانين ، وانما هناك تدبير الهي حكيم يهيمن عليه ، كما قال الله تعالى : " ان ربكم الله الذي خلق السماوات و الارض في ستة ايام ثم استوى على العرش يغشى الليل و النهار يطلبه حثيثا و الشمس و القمر و النجوم مسخرات بامره الا له الخلق و الامر تبارك الله رب العالمين " (١) ومادام الامر بيد الله و ينتهي اليه فلتطمئن النفس الى الجزاء و تثق بنتائج سعيها ، و في القرآن تذكرة بهذه البصيرة في مواضع شتى و بصيغ مختلفة.

]و أن إلى ربك المنتهى[

بلى ان الظاهر من الحياة هي النظم الدقيق و السنن الحاكمة . و لكن الجانب الخفي منها ولبها هو هيمنة الله عليها . و المؤمنون مطمئنون الى هذه الحقيقة و موقنون بها ، بينما الآخرون لا يعلمون الا الظاهر من الحياة.

و القرآن هنا يؤكد هذه الهيمنة و يمثل لها بلطائف الامور.

(1)الاعراف / ٥٤.

]وأنه هو أضحك و أبكى[

ان الانسان يضحك للجزاء الحسن ، و يبكي من الجزاء السيء . سواء في الدنيا او الآخرة . و الله سبحانه يقدرهما للأنسان ، فيمنح له من السعادة النفسية و المادية ما يضحكه (جزاء لما قدمه من عمل صالح) . او ينتقم (لسوء عمله (فيسلب منه نعمه و يعصر قلبه بالهم حتى يبكيه . و القرآن لم يقل افرح و احزن لان الضحك و البكاء هما غايتا الفرح و الحزن ، و اجلى مصاديقهما . ولان بينهما مسافة شاسعة لابد من بيانها لنعرف عمق الهوة الفاصلة بين الخير و الشر ، و بين الجزاء الحسن و العقاب و لعلنا نفقه بعض ابعاد مسؤوليتنا تجاه افعالنا.

]وأنه هو أمات و أحيا[

ربما يكون معنى الحياة هنا استمرارها و المحافظة عليها كقوله تعالى : " ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعا " (١) ، وامر الموت و الحياة بيده تعالى ، مهما كانت اسبابهما الظاهرة ، لان الله يجري الامور باسبابها ، فقد يحفظ الحياة لاحد على يد الطبيب ، او يقدر له الموت بيد جلاد.

]و أنه خلق الزوجين الذكر و الانثى * من نطفة إذا تمنى]وانما يؤكد ربنا على هذه الحقيقة (ان اليه المنتهى) ثم يضرب الامثلة من اهم ما يتحكم في كياننا لان الانسان قد يكتشف القوانين التي تسير الحياة وفقها ، فيفسر الظواهر و الحوادث تفسيرا ماديا مبنيا على اساس ان القانون هو كل شيء ، فيرى ان الولادة تبدأ منالجماع حيث يقذف الرجل بالحيامن في رحم المرأة ، ثم ان الرحم المهيأ لتكوين الجنين يبدأ بدوره ضمن قوانين و معادلات معينة فتصير(١) المائدة / ٣٢.

)البويضة + الحيمن) جنينا ذكرا اذا غلب ماء الرجل ، وانثى اذا غلب ماء المرأة . ثم يقف عند هذا الحد دون البحث عن منتهى هذه الظواهر بينما اذا امعنا النظر لبصرنا بالحلقات الفارغة الموجودة في سلسلة العلل و التي تفصل بين مشيئة الانسان و تحقق العمل ، فانتتريد انجاب اولاد ، و لكن هل تملك في صلبك القدرة على ذلك ؟ وهل توفق لزوجة مناسبة ؟ و هل تضمن ألا تكون عقيمة ، أو تجهض حملها بسبب طارىء ؟ و عشرات الاسئلة التي ترتسم في ذهن أي واحد منا حين يريد ان يحقق انجازا . واذا فتشنا عن جذر هذه الاسئلة لعرفنا ان الاهداف التي شئنا بلوغها وخابت مساعينا اليها بما لم نحسب لها حسابا خلفت في عقولنا هذا الخوف الرهيب ألا نوفق - مرة اخرى - الى ما نبتغيه . و صدق الامام أمير المؤمنين عليه السلام اذ يقول : " عرفت الله بفسخ العزائم و نقض الهمم . " تعال و جرب للمرة الالف اعقد عزم قلبك على خطة بعيدا عن التوكل على الله ثم انظر كيف تقفز امامك العقبات غير المحسوبة.

من هنا اركزت في فطرة الناس هذه الحقيقة ، ان ازمة الامور ليست بايديهم وان هناك قدرا من الغيب في كل عمل يساهم في نجاحه او فشله . و قدرة الله على النشأة الاولى من حين النطفة حتى الموت تؤكد على بعثة اياه مرة اخرى للجزاء.

]و أن عليه النشأة الأخرى[

و كلمة عليه تشير الى ان البعث للحساب حق و عهد قطعه الله على نفسه.

]و أنه هو أغنى و أقنى[

قد يتصور الانسان بالنظر الى الاسباب الظاهرة للغنى انه الذي يغنى نفسه ، ولكنه حينما يتعمق يجد ان غناه من عند الله و بتوفيقه . أذن فلماذا يغتر بمالهو يتكبر على الحق اعتمادا عليه ؟!

و يتساءل البعض : اذا كانت الامور بيد الله وان اليه منتهاها فلماذا السعي إذا ؟ و كيف ان ربنا بين آنفا ان ليس للانسان إلا ما سعى ؟ و ربما اتخذ البعض من آيات كهذه تبريرا لتقاعسهم او دليلا على مذهب الجبر المرفوض عقلا و شرعا.

بيد ان النظر الشامل في الآيات يجيب على هذه التساؤلات ، كيف ؟

ان الامور بيد الله ، و لكن الله يأمر بالحق و يجربه ، فهو الذي يضمن العدالة الجارية في الخلق ، وهو الذي يعيد سعي الانسان اليه ، ويجازيه عليه الجزاء الاوفى . ولولا العقيدة بان الله يضمن تنفيذ العدالة لزعم البعض انه يستطيع ان يتهرب من مسؤولية سعيه . أو كان يخشى من ضياع سعيه.

اذن السعي هو محور الجزاء ، ولكن الجزاء بيد الله فليس سعيك يوصلك إلى ما تريد مباشرة ، بل عبر ارادة الله وجزاءه ، فتكون المعادلة كالتالية:

سعي البشر أو عمله + توفيق الله أو ارادته = الجزاء.

[49]ثم وفي سياق تأكيد انتهاء الامور الى الله ، ينسف القرآن الاعتقاد بألوهية غيره تعالى ، و يضرب مثلا من واقع الذين يعبدون النجوم اعتقادا بان حركتها تؤثر في حياة الناس ، فتجلب لهم الخير أو الشر ، و عبادة النجوم كانت منتشرة عند قدماء المصريين كما في بلاد الرافدين كما ان القرآن يلمح في حديثه عن ابراهيم (ع) الى ان قومه كانوا يعبدونها.

و لعل من اشهر النجوم التي بقيت عبادتها رائجة حتى زمن الرسول (ص) كانت نجمة الشعرى قال علي ابن ابراهيم " نجم في السماء كانت قريش وقوم من العرب يعبدونه ، وهو نجم يطلع في آخر الليل " (!) و القرآن هنا ينسف الاعتقاد بألوهية هذا النجم ، مبينا بانه ليس إلا خلقا من خلق الله ، لا حول له ولا قوة.

]و أنه هو رب الشعرى[

[50]بعد ذلك تعرج بنا الآيات الى الحديث عن تاريخ الامم السالفة ، بما يؤكد هيمنة الله على الخلق وانه يقدر الجزاء حسب اعمال العباد ، أترى ان هلاك الامم حينما خالفت الحق و عصت الرسل ، و عتت عن أمر ربها كان صدفة ؟ أذن لماذا تتكرر التجربة لاكثر من قومو لنفس السبب ؟

]و أنه أهلك عادا الأولى[

و هم القوم الذين ارسل الله اليهم هودا (ع) وقال الله (الأولى) ربما لواحد من الاسباب التالية:

آ - لانهم اول الاقوام بعد هلاك البشرية بسبب الطوفان الذي ابتلع الارض في عهد نوح (ع. (

ب - لانهم جيلان ولم يهلك إلا الجيل الاول.

ج - ان الله اراد ان يسفه فكرة التقديس للأولين ، الذي سار عليه الجاهلون و من بينهم قريش.

[51]و بعد عاد كانت ثمود ، قوم صالح (ع) الذين كذبوه و عقروا الناقة و قد كانت آية مبصرة فأهلكهم الله.

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٧٤.

]و ثمود فما أبقى[

هناك قال (الاولى) وهنا يقول (فما ابقى) و ذلك لان ثمود اهلكوا عن بكرة ابيهم بريح صرصر جعلتهم كاعجاز نخل منقعر ، فلم تبق ولم تذر ، على خلاف عاد الذين اهلك الله الاولين منهم فقط ، كما تكشف لنا هذه الكلمة مدى تشبث ثمود بالحياة ، حيث سعوا للبقاء بكلما اوتوا من القوة و لكنهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا حينما حل بهم غضب الرب.

[52]و قبل هؤلاء واولئك كان قوم نوح (ع) طعمة للهلاك.

]وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى[

لانهم اول الاقوام كفرا بالله و عصيانا للانبياء ، و لانهم اصروا على ضلالهم و استكبروا على الحق جيلا بعد جيل بالرغم من (٩٥٠) عاما من التبليغ المبين و المستمر للرسالة من قبل نوح (ع. (

و قد سبقوا الاقوام ظلما لانهم تحرروا من كل القيم الدينية والانسانية ، و طغيانا لانهم ملكوا من الامكانات الشيء الكثير واستخدموا كل ذلك ضد الرسالة و الرسول . و بالرغم من ذلك اهلكهم الله ولم

يحجز العذاب عنهم شيء أبدا.

[54 - 53]و هناك قوم لوط (ع) الذين اسرفوا في الشذوذ الجنسي ، فحل بهم غضب الله ، و ذلك بان حمل قراهم جبرئيل بطرف جناحه و رفعهم ثم اهوى بهم.

]و المؤتفكة أهوى[

قال العلامة الطبرسي في مجمع البيان : و المؤتفكة المنقلبة وهي التي صار اعلاها اسفلها واسفلها اعلاها ، و منه اهوى بيده ليأخذ كذا وهوى يهوي نزل في الهواء ،فاما اذا نزل في سلم أو درج فلا يقال اهوى ولا هوى ، و حيث حل اجلهم عمهم العذاب المهول من كل صوب.

]فغشاها ما غشى[

أصحيح ان الله يعذبنا بنار جهنم تلك النقمة الكبرى التي لا تحتملها السماوات و الأرض و الجبال . أوليس ربنا الرحمن الذي تجلت في كل شيء آيات رحمته الواسعة . يتساءل البعض و يقول لا ..انا لا أصدق ان الله يعذبني ولم أعهد منه في الدنيا إلا كل نعمة ؟ بلى وهذه شواهد تعذيبه في الدنيا للامم التي ناهضت الحق و تحدت رسله . ان الله واسع الرحمة ولكنه أيضا شديد العذاب.

ولعله لذلك يذكرنا الرب ، بين الفينة والاخرى - بعذابه العظيم الذي حل بالامم السابقة حتى ينقض الشك باليقين ان وعيد الله العاصين بالعذاب ليس ضربا من الوهم و التخويف المجرد بل هو واقع وقد حدث فعلا يشهد بذلك التاريخ البشري وما تقدم بعض شواهده.

[55]إن عبر التاريخ المرعبة هي من الآيات الالهية الجديرة بان ترفع حجب الشك و المراء عن قلب الانسان الذي يتفكر فيها و يتبع هداها.

]فبأي ءالاء ربك تتمارى[

الآلاء هي الآيات . يدل على ذلك قوله في سورة الرحمن " فبأي آلاء ربكما تكذبان " (١ . (و التماري هو الشك المتوالي أو ترامي الشك من البعض الى الآخر ، ذلك لان الشاك في مثل هذه القضايا المصيرية والعامة لا يدع شكه في قلبه بل يلقيه على من هو مثلهو يتلقى منه الشك أيضا ، و ينبغي مواجهة كل ذلك بتلك الآيات(١) سورة الرحمن / ١٣.

المتوالية.

[56]ان من أعمق مشاكل الانسان انه يستبعد عن نفسه العذاب الالهي وهو يمارس الضلال ، أما لشكه في قدرة الله كاليهود الذين قالوا يد الله مغلولة ، أو لرجائه غير المنطقي في رحمته ، و القرآن يذكر عواقب الامم الذين ضلوا وكذبوا بالحق ويضعها بين ايدينا نذرالعلها تردعنا عن الباطل.

]هذا نذير من النذر الأولى[

و قيل ان المعني بالنذير هنا هو الرسول الأعظم (ص) الذي يمثل امتدادا للانبياء ، فكما ان هودا و صالحا ونوحا ولوطا عليهم السلام انذروا اقوامهم ، فان محمدا (ص) هو الآخر نذير مثلهم ، قال الصادق (ع) وقد سئل عن معنى الآية : " يعني محمدا (ص) حيث دعاهمالى الاقرار بالله في الذر الأول " (١. (

و لقد اهلك الله الاقوام السابقة لانهم كذبوا انبياءهم و الحق الذي جاؤوا به ، و يكفي بذلك نذيرا لنا مادامت سنن الله في الاولين هي سننه فينا وفي اللاحقين الى يوم القيامة.

[58 - 57]و تبقى القيامة ابلغ النذر وآخرها وأعظمها ، و القرآن يؤكد حدوث القيامة في المستقبل القريب جدا فحتى اذا بقيت من القيامة الكبرى ٥٠٠ مليون عام فانه يمثل واحدا من ثلاثين أو حوالي ٣%

من دورة واحدة لهذا الكون التي تبلغ حسب بعض التقديرات العلمية ١٥ الف مليون عام ، كيف ولعله لم يبق حتى قيام الساعة ذلك اليوم الرهيب الذي اشفقت منه السماوات و الأرض إلا بضعة ألوف من ا لسنين و ربما أقل ومن يدري ؟ أوليس علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ؟

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٧٣.

فيقول:

]أزفت الأزفة[

أي اقتربت ، و التأكيد على اقتراب هذه الحقيقة الكبرى يجعلنا نعيش الساعة بوعينا فنستعد كما يقول أمير المؤمنين (ع) : " اتقوا الله عباد الله ، و بادروا آجالكم باعمالكم ، واستعدوا للموت فقد أظلكم ، و ترحلوا فقد جد بكم ، و كونوا قوما صيح بهم فانتبهوا ، و علموا ان الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، فما بين احدكم و بين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به " (١ (واذا مات ابن آدم قامت قيامته ، ولا يستطيع أحد أن يدفع الموت عن نفسه.

]ليس لها من دون الله كاشفة[

بلى قد يظن الانسان أو يتمنى بان الأصنام التي يشرك بها تستطيع ان تصنع له شيئا ، كلا .. الله وحده القادر على جلب الخير و رفع الضر ، و اذا اقترب العذاب وبانت امارته فلا مفزع إلا اليه ، " ففروا الى الله اني لكم منه نذير مبين * ولا تجعلوا مع الله إلها آخر اني لكم منه نذير مبين " (٢. (

[61 - 59]وهذا الحديث ليس ضربا من الوهم أو الظنون ، بل هو حق يقين يجب على الانسان أن يصدق به و يستعد له " أنه لقول فصل * وما هو بالهزل " (٣. (

]أفمن هذا الحديث تعجبون[

انهم لم يصدقوا و يستعدوا للساعة " : بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال(١) نهج / خ ٦٤.

(2)الذاريات / ٥٠ - ٥١.

(3)الطارق / ١٣ - ١٤.

الكافرون هذا شيء عجيب * أأذا متنا و كنا ترابا ذلك رجع بعيد " (١) هكذا يكون موقف الكفار من الحقائق الجادة ، و القرآن يستنكر عليهم هذا الموقف الهازل.

]و تضحكون ولا تبكون * وأنتم سامدون[

ان حديث القيامة بما يتضمنه من حقائق حاسمة ، و عظيمة ، ينبغي أن يبعث العاقل على البكاء و الخوف من غضب الله ، و يثير فيه طاقاته الكامنة ليفكر في النجاة ، و يستعد للقيامة ، و السامد هو الغافل ، و كما ان الغفلة نتيجة للضحك و التعجب ، فان الجد و السعي نتيجة طبيعية للتصديق و البكاء من أهوال الساعة.

[62]و في مقابل هذا الموقف الخاطيء من حديث الساعة يهدينا القرآن إلى الموقف السليم الذي يجب علينا اتخاذه تفاعلا مع النذر الالهية وهو الفرار الى الله عز وجل ، و التقرب الى مقام عظمته بالسجود.

]فاسجدوا لله واعبدوا[

و السجود وهو مظهر الاتصال بالله ، بينما العبادة جوهره و محتواه ، فلا قيمة للسجود الذي لا يقربنا الى الله ، و الى العمل بمناهجه في الحياة ، ان ممارسة الطقوس و الشعائر الاسلامية ممارسة بعيدة عن أهدافها لا تنفع صاحبها شيئا ، فما هو نفع الصلاة التي لاتنهى عن الفحشاء و المنكر ؟ و ما هي فائدة الصوم الذي لا يزكي النفس ؟

و كلمة أخيرة:

اننا نجد السياق القرآني يختتم هذه السورة المباركة ، بدعوة إلى السجود حيث(١) ق / ٢ - ٣.

يجب شرعا على من يقرأ هذه الآية أو يستمع لها أن يسجد فورا مهما كانت الظروف ، و ذلك لانها تعرضت الى ذكر الاصنام التي اشرك بها الناس كاللات و العزى و مناة و الشعرى فهدف الآية اذن تنزيه الناس عن عبادتها و توجيههم الى عبادة الله وحده و السجود له.

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

قال الامام ابو عبد الله الصادق)ع) : " من قرأ سورة اقتربت الساعة أخرجه الله من قبره على ناقة من نوق الجنة . "

تفسير نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٧٤

الإطار العام

تحيط آيات هذه السورة المباركة بثلاثة محاور رئيسية ، هي:

- 1إعراض الكفار عن الآيات الالهية ، سواء تمثلت في الرسالات النازلة ، أو المعاجز التي تظهر على أيدي الأنبياء ، أو ما تتجلى في الكائنات أو السنن التي تتجلى في تاريخ الأمم الغابرة ، و نجد مرتكزا لهذا المحور في قوله تعالى : " وإن يروا آية يعرضواو يقولوا سحر مستمر " (الآية ٢. (

- 2التكذيب بالحق ، و يبرز هذا المحور عند قوله تعالى : " و كذبوا و اتبعوا أهواءهم و كل أمر مستقر " (الاية ٣) ، و هكذا شبيهاتها (الآية ٩ ، ١٨ ، 23 ، 33 ، . (42

- 3التذكرة ، و يظهر ذلك من تكرار قول الله تعالى : " و لقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر " في أربعة مواضع ، بالاضافة إلى الآيتين (١٥ / ٥١. (

و بالتدبر العميق في السورة نجد ارتباطا و ثيقا بين المحاور الثلاث فيها ، فالاعراض بالاضافة الى كونه مظهرا للتكذيب هو سبب له أيضا ، و هذا يبين لنا أن تكذيب الرسالات ليس منطلقا من قناعة المكذبين بها ، و إنما من انحراف حقيقي في أنفسهم ، لأنك تجدهم يعرضون عنها و بالتالي يكذبونها قبل دراستها و التفكر فيها.

ولكن ما هو علاج الاعراض و التكذيب عند البشر ؟ إنه التذكرة .و القرآن إنما جاء ليحقق هذا الهدف

الهام و الكبير ، لذلك نجده من حيث المحتوى والأداء الأدبي و النفسي و الفكري حكمة بالغة ، تنفذ إلى أعمق أغوار نفس الانسان ، و أبعد آفاق عقله ، و لكن "لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد " ، فهو ميسر من قبل الله ، و هذا التيسير هو الذي جعل كلام الخالق الذي لا يتناهى عظمة وجلالا و علوا بينا و واضحا عند خلقه .. قال الامام الصادق (ع) : " لولا تيسيره لما قدر أحد من خلقه أن يتلفظ بحرف من القرآن ، و أنى لهم ذلك وهو كلام من لم يزل ولا يزال " (١) ، و لكن المعنى الذي يرتبط بعلاج الاعراض و التكذيب عند البشر هو أن القرآن يصور لنا الحقائق الكبرى ، كحقائق الغيب التي ينحسر عنها - اولا تيسير القرآن - وعي الانسان ، و منها الآخرة ، تصويرا بليغابحيث تصبح يسيرة الفهم و الاستيعاب ، الأمر الذي يحدث تعادلا في عقل الانسان بين ما غاب مما يحدث في المستقبل وما هو حاضر يحسه و يعايشه . إنه يدعوه إلى التعايش مع الحاضر الذي تشتهيه نفسه على أساس المستقبل ، أو ينهاه عن استهلاك شيء حاضر لأنه يوقعه في مهالك المستقبل.

(1)تفسير روح البيان / ج ٨ / ص ٤٣٣.

ولقد يسرنا القرآن للذكر
هدى من الآيات

إذا كانت هداية البشر هدف رسالات الله فإن الوسيلة المثلى التي تتبعها هي تذكرته و إنذاره ، لكي تتساقط حجب الغفلة و الكبر عن قلبه . إن في ضمير الانسان خوف دفين من مستقبل مجهول ، و يستثير القرآن هذا الخوف بتذكرته بالساعة ، و ما الساعة ؟ إنها أدهى و أمر.

و هذا النهج نجده أكثر تجليا في السورة المكية ذات المقاطع القصيرة ، و بالذات سورة القمر التي تتجلى فيها هذه الوسيلة بأظهر مصاديقها ، و قد سميت بذلك بسبب إشارتها إلى آية انشقاق القمر ، الظاهرة التي حدثت في عصر الرسول (ص) بمكة المكرمة ، حسبما يقول أغلب المفسرين.

و يوصل القرآن بين هذه الظاهرة المعجزة و بين اقتراب يوم القيامة لأنه قريب من بعثته (ص) ، و هو القائل : " إنني بعثت و الساعة كهاتين ، وجمع بين إصبعيه "دلالة على قربهما الزمني ، أي لا يلبث العالم بعده أن يشهد الساعة ، و قال علي بن إبراهيم (رض] : " اقتربت القيامة فلا يكون بعد رسول الله (ص) إلا القيامة ، و قد انقضت النبوة و الرسالة " (١. (

وسواء كانت الساعة بعد آلاف أو ملايين السنين من بعثته (ص) فإنها قريبة إذ كل آت قريب ، و لأن البعد و القرب لا يقاسان بحياة الانسان المحدودة في الدنيا ، بل يقاسان بما في الكون من أرقام و أبعاد زمانية كبيرة ، فقد يكون عمر الشمس عشرة ملايين سنة و لكنهاانقضى أكثرها ، و أصبحت نهايتها قريبة جدا ، ثم ما هي نسبة هذه المدة إلى الزمن اللآمتناهي الذي يلي الحياة الدنيا ؟!

إن الكفار كذبوا هذه الآية المعجزة مع وضوحها ، و أعرضوا عن دلالاتها ، و لكنهم لم يكونوا أول ولا آخر المكذبين ، فقد سبقهم إلى هذا الضلال قوم نوح و عاد ، و كانت عاقبة أولئك الخزي و العذاب ، فلا ينبغي للرسالي أن يصاب بهزيمة نفسية إذا رفض البعض الاستجابة إلى دعوته ، فإن دعوته منصورة ، و إن المكذبين في ضلال بعيد.

بينات من الآيات

[1]يعيش الانسان في وجدانه خوفا عميقا من شيء مجهول ، و القرآن يبين أنه الساعة ، فالموت الذي يعقبه مصير مجهول بالنسبة إليه أمر رهيب جدا ، و الآيات تؤكد بأن خوف الانسان الحقيقي ليس من الموت ، و إنما من البعث بعد الموت ، و إنما يخشى الموت لأنه بوابةالحساب.

]اقتربت الساعة و انشق القمر[

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٧٥.

قال ابن عباس : " إجتمع المشركون إلى رسول الله (ص) فقالوا : إن كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين ، فقال رسول الله (ص) : إن فعلت تؤمنون ؟ قالوا نعم ، و كانت ليلة بدر فسأل رسول الله (ص) ربه أن يعطيه ما قالوا ، فانشق القمر على عهد رسول الله (ص) فرقتين ، و رسول الله (ص) ينادي : يا فلان يا فلان إشهدوا " (١) حتى قال بعضهم : " إنني كنت أرى حراء بين فلقتي القمر. "

و انشقاقه الذي حدث في عصر الرسول أو الذي يحدث فيما بعد ، من الظواهر الكونية الدالة على قرب الساعة ، و لكن القرآن يقدم الحديث عن الساعة على ظاهرة انشقاق القمر ، لأنه محور الكلام و الغاية منه . و كم هي رهيبة ساعة القيامة ، و كيف لا تكون كذلك و فيها تسير الجبال الشاهقة فتصير سرابا ، و تنتشر الكواكب كخرزات العقد المنفرط ، و تزلزل الأرض زلزالا عنيفا ! إن زلزلة الساعة شيء عظيم ! إنها مهولة جدا ! و تترك أثرا جذريا لا نعرف نحن مداه ، ولا يقتصر ذلك الأثر على تاريخ البشرية و حدها ، كلا .. بل هو تغيير كوني حاسم ، لأنه اليوم الذي ينتهي فيه دور الانسان على وجه الأرض ، و قد خلق الله ما في الأرض لأجله ، إذا فذهابه منها يقتضي تغيرا حاسما فيها . و ربنا لم يقل (قربت) بل قال " اقتربت " و هذه الزيادة التي لحقت بالفعل سببها دخوله في باب الافتعال الدال على بدل المزيد من القوة و الجهد ، كما يدل قولنا اكتسب على استعمال القوة في الحصول على الرزق ، فالساعة تمر بمخاض عسير ، لأن حدوثها يقترن بتغييرات هائلة.

[2]و انشقاق القمر ليس الآية الوحيدة التي تهدينا إلى الساعة و البعث ، فهناك من الآيات الأخرى الكثير مما يكفي سلطانا مبينا ، و حجة بالغة لنا على واقعية الساعة ، و لكن المشكلة في نفس الانسان حينما يضل ، و يتبع هواه . إنه يرى الآيات و يعقلها ، و لكنهيعرض عن دلالاتها ، و يصر على باطله ، و لكي يتخلص

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٧٤.

من وخز الضمير و نداء العقل يبحث لضلاله عن تبرير ، و للآيات عن تأويل ، مهما كانا سخيفين و متناقضين مع أبده المسلمات الوجدانية و العقلية ، كل ذلك تهربا من مسؤولية الاعتراف بالحق.

]و إن يروا اية يعرضوا و يقولوا سحر مستمر[

لقد اعتذر المشركون عن الايمان بالرسالة بأنهم لا يؤمنون بشيء غيبي لا آية محسوسة عليه ، فألحوا على الرسول (ص) بنظرتهم الشيئية أن يريهم من الآيات المادية ما يصدق نبوته و رسالته ، فسأل ربه ذلك ليقيم الحجة عليهم و أعطاه ، إلا أنهم أعرضوا عن الايمان ، قال علي بن إبراهيم (رض) : " فإن قريشا سألت رسول الله (ص) أن يريهم آية ، فدعا الله فانشق القمر نصفين حتى نظروا إليه ثم التأم ، فقالوا : هذا سحر مستمر " (١) أي دائم ، و السحر لا يدوم ، إنما هو لحظات يخدع فيها الساحر أعين الناس ثم ينتهي ، و المشركون يدركون هذه الحقيقة ، و لكنهم قبلوا أن يضيفوا إلى السحر نوعا جديدا لا عهد لهم ولا للتاريخ به ، و لم يقبلوا أن يكون القرآن رسالة من الله ، لأنه يجعل من الايمان به و تطبيقه مسؤولية واجبة عليهم ، فهو حينئذ رسالة الله الى أنفسهم أيضا ، و الحال أنهميسعون بكل ما اوتوا من حيلة و مكر إلى التهرب من المسؤولية ، و يحتمل أن تنطوي كلمة المستمر على معنى القوي أيضا ، و السحر لا قوة له لأنه خيال لا واقع ، و سواء هذا أو ذاك فإن القرآن يثبت أفكارهم و أقوالهم و مواقفهم المتناقضة في ذاتها لبيان بطلانها وظلالةأصحابها.

و قد سبق أن قلنا بان في قولهم بأن الرسالة و آياتها سحر اعترافا بتأثيره البالغ عليهم ، و بالعجز عن الاتيان بمثله ، و بسلطانه على أفئدة الناس كما السحر ،(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٧٥.

فيؤخذون بهذا الاعتراف ، و ينبذ تفسيرهم لذلك بأنه يشبه السحر ، إذ مستحيل أن يستمر السحر الذي حقيقته التأثير الموقت في خيال الانسان.

[3]و الآية التالية تؤكد على أن التبرير الباطل يساوي عند الله الكذب المحض ، بل هو أشد ، لأن أهداف

التكذيب هي ذاتها أهداف التبرير ، و أهمها اتباع الأهواء و الشهوات ، إذا فتبرير الانسان لا يغير من واقعه شيئا ، ولا من جزائه عند ربه ، لأنه تعالى لا ينظر إلى المظاهر ولا يحاسب عليها ، إنما ينظر إلى الحقائق الواقعية ، و يجعلها ميزانا للجزاء ، إنه " يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور " (١. (

]و كذبوا واتبعوا اهواءهم[

و اتباع الهوى هو سبب التكذيب ، كما أنه الهدف منه ، و هذه الآية دليل صريح على بطلان عذرهم ، و رفض الله له كمبرر مشروع لاعراضهم عن الحق ، حيث اعتبرهم و المكذبين سواء.

[وكل امر مستقر[

إن سنن الحياة الدنيا و الآخرة و مقاييسهما حقائق قائمة و ثابتة لا تتغير (مستقرة (، فلا يمكن تغييرها بهوى النفس أو بتمنيات البشر ، و تشير هذه الآية إلى ما بينته الآيات الأخرى كقوله سبحانه : " لكل أجل كتاب " (٢) ، " العاقبة للمتقين" (٣) ، و " ولا يفلح الساحر حيث أتى " (٤) ، " إن الباطل كان زهوقا " (٥) ، كما أن حكمة الامام علي (ع) : " الأمور مرهونة بأوقاتها " مستوحاة(١) غافر / ١٩.

(2)الرعد / ٣٨.

(3)الاعراف / ١٢٨.

(4)طه / ٦٩.

(5)الاسراء / ٨١.

من هذه الآية الكريمة ، و هذا التفسير يجمع بين آراء المفسرين القائلة بأن الأمر المستقر هو العواقب ، أي أن عاقبة الأمور مستقرة على قيم ثابتة ، كما ترسي السفينة بالتالي عند الشاطىء ، أو ما قالوا : بأن عاقبة الخير الحسنى و الشر السوئى ، و قال بعضهم : انهاالقيامة حيث تستقر عندها سفينة الدنيا ، لأنها تبرز كأمر واقعي محسوس ، و يتميز الحق من الباطل.

بلى .إن كل أمر واقعي حق سوف يستقر مكانه ، و يتكرس أكثر فأكثر رغم الظروف و العوامل المضادة ، و استقراره أعظم دلالة من ملايين الكلمات ، فلو اجتمع الإنس و الجن على إنكار وجود الجبال ، و جاؤوا بملايين الأدلة ، هل يتغير الواقع ؟ كلا .. ذلك أن المحور الحقيقي هو الواقعيات الخارجية الحقة ، و لست الأهواء و التمنيات و الظنون ، و لعل معنى " حكمة بالغة " التي تأتي لاحقا هو هذا الأمر ، إذ أن الحكمة هي وضع الشيء موضعه ، و لا يقدر على ذلك إلا من عرف السنن الالهية النافذة في الخلق ، و النظام العادلالحاكم في كل شيء ، و إنما كانت رسالات الله حكمة بالغة لأنها تهدي الانسان إلى المستقرات من الحقائق الواقعية ، و من ثم إلى منهج الحياة الأقوم و القائم على أساسها.

[4]و إذا كانت القيم هي المستقرة (لا الأهواء (فإن أعذار أولئك الكفار تذهب باطلا . أوليس قد توافرت الشواهد على صدق الرسالة ، فلم كفروا بها ؟ أو ليس قد تواترت الأنباء على أن من كفر بها هلك ، و كفى بذلك زاجرا ؟

]و لقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر[

ومن تلك الأنباء آية انشقاق القمر ، و المزدجر هو التخويف و الترهيب ، و ربنا لم يكتف بإرسال الآيات ، و بيان القوانين للانسان ، بل و أقام عليه الحجة البالغة حينما حذره من مخالفتها ، " لئلا يقول أحد لولا أرسلت إلينا رسولا منذرا ،وأقمت لنا علما هاديا ، فنتبع آياتك من قبل أن نذل و نخزى " (١. (

[5]و ليس في آيات الله تعالى نقص ابدا ، بل فيها الحجة القاطعة ، إذ جعلها الله من الوضوح و الكمال درجة لا عذر لأحد في الاعراض عنها و عن دلالاتها ، فهي كما يصفها تعالى:

]حكمة بالغة[

و البلوغ هنا بمعنى التمام و الكمال ، و منه بلغ الرجل إذا اكتمل نفسيا و عقليا و عضويا ، و بلغت الثمرة إذا نضجت و حان قطافها ، و هناك معنى آخر تنطوي عليه الكلمة وهو الوصول ، و الحكمة الالهية كاملة عمقا و شمولا ، لا يعتريها نقص في المحتوى ولا الاسلوب، ثم أن الله أوصلها إلى الناس عبر أنبيائه المبلغين ، فلا عذر لهم بأنه لم يرسل رسولا ، و هذه الآية تشبه قوله تعالى : " فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين " (٢. (

إذن فالحياة ليست فوضى ، بل و لها قوانينها و سننها المستقرة الثابتة ، و الانسان يحتاج الى الحكمة البالغة المنطلقة من تلك الواقعيات الحق ، لكي يعيش فيها كما ينبغي ، و هذه نجدها مبثوثة في كتاب الله ، الحكمة البالغة العظمى ، و النعمة الكبرى ، و الهديةالالهية إلى الانسان ، وقد بلغها رسوله (ص) ، فلماذا إذن هذا الضلال الذي تعيشه البشرية ؟ و الجواب : لأنها لم تؤمن به ، و لم تطبق آياته . إنها وضعت بينها و بين تلك الحكمة حجب الاعراض و التبرير و التكذيب و الهوى.

]فما تغن النذر[

(1)مفاتيح الجنان / دعاء الندبة.

(2)الانعام / ٤١.

كان يفترض أن تزجرهم عن الضلال و الباطل فإذا بها تزيدهم طغيانا و كفرا ، و كان ينبغي أن تبكيهم فإذا بهم يضحكون و يهزأون ، و جاءت لتذكرهم فإذا بهم يتوغلون في الغفلة ، و القرآن يبين هذه الحقيقة في أواخر سورة النجم ، و يستنكر على المكذبين واقعهم : " أفمن هذا الحديث تعجبون * و تضحكون ولا تبكون * وأنتم سامدون " ؟! (١. (

[6]وإذا وصل الانسان إلى حد الاعراض عن الحكمة البالغة أو كله الله الى نفسه ، فلا ترتجى له هداية بعد ذلك ، و صرف عنه أولياءه ، ليزداد إثما على إثم ، و يتسافل دركا بعد درك ، فيلقي جزاءه المريع الذي يقصر عنه خيال البشر.

و يأمر ربنا مكررا أصحاب الرسالة بترك المعرضين عنها ، و نتساءل : لماذا ؟ إنما لحكمة بالغة تتمثل في أن الاستمرار في إنذارهم و محاولة هدايتهم سوف يتسبب في ضياع وقت كثير منهم لابد أن يوفروه لما هو أنفع ، فعليهم إذن أن يبلغوا الرسالة الى الحد الذي تقومفيه الحجة على الآخرين ، و يسقط عنهم الواجب ، فإذا تبين لهم عدم نفعه و جب أن يتوجهوا إلى هداية غيرهم ، و إلى تطبيق الرسالة على أنفسهم ، و تكوين الكيان الرسالي المتكامل ، أما متى يتولى الرسالي عن دعوة الآخرين ؟ فإن تحديد ذلك يكون على ضوء البصائر الالهية، و القيادة الرسالية تعرف ذلك.

و هناك حكمة أخرى لواجب الاعراض عمن يجد آيات الله هي أنهم هم المحتاجون إلى الرسالة ، و الرسالة غنية عنهم ، فلا داعي للالحاح الزائد عليهم ، أو تغيير بعض القيم و تطويعها وفق أهوائهم ليقبلوها ، كما فعل بعض علماء النصارى حيث أدخلوا في دين الله ما ليس فيه مجاراة للسلطان أو للعوام من الناس حتى يستهويهم الدين ، و كذلك فعل بعض الجهلة من الدعاة عند المسلمين حيث أضافوا(١) النجم / ٥٩ - ٦١.

إلى الدين ما يستهومي الطغاة أو رعاع الناس ابتغاء كسبهم ، و الله غني عنهم و عمن يدعونه بهذه السبل إلى دينه.

ولا ريب أن المؤمن حريص على هداية الناس ، و يريد الخير لهم ، فمن الصعب عليه أن يتركهم حصبا

لجهنم ، فهذا سيد الشهداء الامام الحسين (ع) تبتل لحيته بالدموع ، و حينما يراه رجل من الأعداء يخاطبه : يا ابن فاطمة ! أتبكي خوف القتل ؟ ! فيقول : " لا ولكنلأنني أعلم أنكم تدخلون النار بقتلي " ، من أجل كل ذلك توالى الأمر بترك المعرضين في القرآن.

]فتول عنهم[

إتركهم و شأنهم ، و انتظر ، و تقدير هذا الفعل أقرب إلى السياق من قول بعض المفسرين بأنه : واذكر يوم القيامة حيث يدع الداع إلى شيء مكروه ، ذلك لأن انتظار يوم البعث لفض الخلافات مسألة معروفة في آيات القرآن الكريم.

و قد لا يقتصر الأمر بالتولي على الدنيا و حدها بل يشمل الآخرة ، حيث يأمر الرب نبيه بالاعراض عنهم و تركهم وهو صاحب الشفاعة الكبرى يوم القيامة ، و حيث يلتمس الناس بأجمعهم حتى الرسل و الأنبياء الشفاعة منه (ص) لأنها الصراط الأقرب إلى الجنة . جاء في الحديث عن سماعة بن مهران قال : قال أبو الحسن (ع) : " إذا كانت لك حاجة إلى الله فقل : " اللهم إني أسئلك بحق محمد و علي فإن لها عندك شأنا من الشأن " فإنه إذا كان يوم القيامة لم يبق ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا مؤمن ممتحن إلا وهو يحتاج إليهما فيذلك اليوم (1) " و عن الامام الصادق (ع) : " ما من احد من الأولين و الآخرين إلا وهو يحتاج الى(١) بحار الانوار / ج ٨ / ص ٥٩.

شفاعة محمد (صلى الله عليه و آله) يوم القيامة " (١) و كم تكون حاجة هؤلاء إلى الرسول في ذلك اليوم عظيمة ! و لكن الله يامره بالتولي عنهم جزاء لتوليهم و إعراضهم في الدنيا.

]يوم يدع الداع الى شيء نكر[

و عدم ذكر الداعي هنا (هل هو الله ، أم إسرافيل ، أم جبرئيل ، أم الروح ؟) يدل على أن المهم الدعوة و ما تنطوي عليه ، و ليس شخص الداعي ، لذلك أبهم ، وفي ذلك من الترهيب الشيء العظيم ، ثم أنه تعالى زاد الآمر رهبة حينما جعل المدعو إليه مجهولا ، فقال " شيء " و الشيء نكرة ، و الانسان مجبول على الخوف من المجهول ، و أخيرا جاءت صفة الشيء تفيض رهبة و زجرا و تخويفا بتأكيدها على أن الشيء منكر ، و أصله أن يرد على الانسان مالا يتصوره و يستسيغه ، و قيل للذنوب و الخطايات منكرات لأنها يمجها عقل البشر ووجدانه ولا يستسيغانها.

[8 - 7]و إذا كان الانسان في دار الامتحان قادرا على الاعراض عن دعوة الله و عدم إجابة داعية ، فليس لأنه يغلب الله بمعصية أو يعجزه هربا من عقابه ، كلا .. " ومن لم يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض و ليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين " (٢) ، أما في يوم القيامة فإنه تسلب حريته ، و يخلص الملك و الحكم لله الواحد القهار ، فلا مجال لأحد أن يتمرد على أمره أو يرفض دعوته ، " يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له و خشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا " (٣) ، هنالك يبدل تكبر المعرضينو المكذبين ذلة و هوانا.

(1)المصدر / ص ٣٨.

(2)المصدر / ص ٣٢.

(3)طه / ١٠٨.

]خشعا أبصارهم[

خشوع صغار و ندامة يعكس عمق المذلة في نفوسهم.

]يخرجون من الاجداث كأنهم جراد منتشر[

و الأجداث هي القبور ، و حيث تبعث البشرية بجميع أجيالها التي تعاقبت على الأرض يصير العدد عظيما ، بحيث يركب بعضهم على بعض ، " فأحسنهم حالا من وجد لقدميه موضعا ، و لنفسه متسعا " (١) كما يقول الامام علي (ع) ، و القرآن يشبه الناس في حشرهم بالجراد حينما ينتشر ، أي يتكاثر بأعداد هائلة في مثل حالات البلاء ، فهو حينئذ كثير متراكم ، و القرآن هنا يقدم الحديث عن حالتهم " خشعا أبصارهم " على خروجهم من القبور ، لأن بيانها هو هدف السياق من ذكر القيامة ، و هو يمضي يحدثنا عن حال الذين أعرضواو كذبوا و اتبعوا أهواءهم بدل أن يتبعوا الدعاة إلى الله عز وجل.

]مهطعين الى الداع[

قال صاحب المجمع : الهطع المشي السريع بالالجاء و الاكراه و الاذلال ، و قال الزمخشري : بمد الأعناق ، أو ناظرين إليه (الى الداع) لا يصرفون أبصارهم عنه الى غيره ، و قال الراغب : هطع بصره أي صوبه ، و بعير مهطع إذا صوب عنقه ، و الذي يبدو أن الله قطع الكلمة عن الاضافة ، فلم يقل مهطعين رؤوسهم مثلا ، و ذلك ليتسع معناها إلى مضمون أشمل هو تجميع كل جوارح البدن و جوانح القلب في اتجاه الداعي ، و هذا يدل على عمق طاعتهم لداعي الله.

(1)نهج البلاغة / خ ١٠٢.

]يقول الكفارون هذا يوم عسر[

لأنه يوم الدين و الحق ، و قد اعرضوا عن الدين ، و اتبعوا الأهواء و الظنون ، أما المؤمنون الذين آمنوا بالآيات الربانية ، و صدقوا بالحسنى ، و اتبعوا داعي الله في الدنيا ، فذلك يوم سعادتهم ، و أي سعادة أسمى من لقاء العبد بربه ، و بلوغه الوعد الذي طالماتاقت إليه نفسه ؟! " إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون * لا يسمعون حسيسها و هم فيما اشتهت أنفسهم خالدون * لا يحزنهم الفزع الآكبر و تتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون " (١) ، " و هم من فزع يومئذ آمنون " (٢ (.

قال الامام علي (ع) يحدث الناس عن أحداث المحشر : " إذا كان يوم القيامة بعث [بعثهم [الله تبارك و تعالى من حفرهم عزلا بهما جردا مردا في صعيد واحد ، يسوقهم النور ، و تجمعهم الظلمة ، حتى يقفوا على عقبة المحشر ، فيركب بعضهم بعضا ، و يزدحمون دونها، فيمنعون من المضي فتشتد أنفاسهم ، و يكثر عرقهم ، و تضيق بهم أمورهم ، و يشتد ضجيجهم ، و ترفع أصواتهم " ، قال : " وهو أول هول من أهوال يوم القيامة " قال : " فيشرف الجبار تبارك و تعالى عليهم من فوق عرشه في ظلال من الملائكة ، فيأمر ملكا من الملائكة فينادي فيهم : يا معشر الخلائق ! أنصتوا و اسمعوا منادي الجبار " قال : " فيسمع آخرهم كما يسمع أولهم " قال : " فتنكسر أصواتهم عند ذلك ، و تخشع أبصارهم ، و تضطرب فرائصهم ، و تفزع قلوبهم ، و يرفعون رؤوسهم الى ناحية الصوت، مهطعين إلى الداع " ، قال : " فعند ذلك يقول الكافر هذا يوم عسر " (٣. (

(1)الانبياء / ١٠١ - ١٠٢.

(2)النمل / ٨٩.

(3)نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٧٥.

[12 - 9]ثم ان التكذيب بالرسالة أمر طبيعي واجهه كل الانبياء السابقين.

]كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا [

التكذيب الأول بالآيات و الرسالة ، و التكذيب الثاني بنبوته (ع) ، و لم يقفوا عند حد التكذيب و حسب بل سعوا إلى النيل من سمعته.

]و قالوا مجنون[

لاصراره على الحق ، و استبساله في الدعوة ، بالرغم من تكذيبهم ، فهو في نظرهم يطلب المستحيل اللامعقول ، وحيث وجدوا فيه الشجاعة التي تحدى بها ثقافاتهم و عاداتهم و لم يريدوا الاعتراف له بهذه الايجابية ، حوروها إلى الجنون حتى يصنعوا بينه و بين الناس حجابا يمنعهم من التأثر به ، و هذه من طبيعة الطغاة ، فهم اليوم يسمون الاصالة تطرفا ، و الجهاد في سبيل الله إرهابا ، و على المؤمنين أن لا يهزمهم الاعلام المضاد فهم امتداد لخط الأنبياء ، وهم على حق ، و عليهم أن يتحملوا ما تحمل الرسل من أذى في سبيله ، فهذا شيخ الأنبياء نوح (ع) يزجره قومه قصد ثنيه عن رسالته والاساءة إليه.

]و ازدجر[

و هذه الكلمة هي تلخيص لمجمل ما تعرض له نوح - عليه السلام - من البلاء و الايذاء ، و هي ليست معطوفة على " مجنون " مما يجعلها داخلة في جملة القول ، بل معطوفة على " فكذبوا " كما يبدو ، فهم كذبوه نفسيا ، و سعوا في تشويه سمعته بألسنتهم وما أمكنهم من وسائل الاعلام ، و آذوه فعلا ، و إنما استفتح السياق بذكر نوح بين الأنبياء لأنه أشدهم ابتلاء بسبب الاعراض عنه فقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم فيعرضون عنه.

]فدعا ربه اني مغلوب فانتصر[

و هذه الآية تدل على المعنى المتقدم لكلمة " ازدجر " ، إذ لولا دعاؤه لتأثر بزجرهم نفسيا ، أو صار ضحية له ، كما تدل على أن نوحا - عليه السلام - وصل إلى حد اليأس من قومه ، قال الرازي : إن الرسول لا يدعو هذا الدعاء مادام فيه نفس احتمال ، و مادام الايمان منهم محتملا ، و استجاب ربنا دعاء نبيه ، ففتح السماء ماء منهمرا ، و فجر الأرض عيونا ، فنصره و أهلك الكافرين.

و بنظرة شاملة و دقيقة الى القصة التي يعرضها القرآن في ثلاثة فصول ، يحدثنا في الأول عن معاناة نوح مع قومه ، و في الثاني عن دعائه الذي يلخص موقفه منها ، و في الثالث عن عذاب الله لقومه الكافرين ، نكتشف حقيقة هامة هي أن دعاء المؤمنين بالنصر لا يستجاب إلا إذا تحركوا في سبيل الله ، و الى تحقيق النصر بأقصى ما يمكنهم معنويا و ماديا ، إن الله كان قادرا على نصر نوح من أول لحظة كذبوه فيها ، و لكنه تركه يدعوهم جيلا بعد جيل (٩٥٠ عاما (حملت في أحشائها ألوان الأذى و الابتلاء ، فكان يعده ثم يؤخر عنه النصر مرة بعد أخرى إتماما للحجة على الناس.

و في سورة نوح استشهاد مفصل بدعاء نوح (ع) يكشف عن عمق المعاناة التي واجهها ، و يسلط الضوء على كثير من الأفكار المتقدمة ، و لكنه هنا يختصر الحديث اعتمادا على تفصيله في مواضع أخرى ، و يقول:

]ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر * و فجرنا الارض عيونا]قال الامام الصادق (ع) : " لما أراد الله عز وجل هلاك قوم نوح (و ذكر حديثا طويلا ، ثم قال :) فصاحت امرأته لما فار التنور ، فجاء نوح الى التنور فوضع عليها طينا و ختمه حتى أدخل جميع الحيوان في السفينة ، ثم جاء الى التنور ففضالخاتم ، و رفع الطين ، و انكسفت الشمس ، وجاء من السماء ماء منهمر صبا بلا قطر ، و تفجرت الأرض عيونا " (١) و التاريخ يؤكد أن الأرض قد غطاها الماء في يوم من الأيام ، و يستدل الباحثون على ذلك بأثار الحيوانات البحرية ، كالأصداف و هياكل السمك الموجودةفي كل مكان حتى على الجبال ، إلا أن التحليل التاريخي يختلف عن القرآن بأنه يبقى تحليلا ماديا بحتا ، و بغض النظر عن عدم مطابقته للواقع في اعتقادنا فإنه يبقي القضية علما مجردا عن الموعظة و العبرة ، فأصحاب النظريات في هذا المجال يفسرون الطوفان - مثلا -

بأنه نتج صدفة ، حيث مرت بالأرض عواصف باردة تسببت في تكون جبال جليدية ضخمة ، ثم حدث انفجار في الشمس أخذت الثلوج على أثرها بالذوبان ، فتكونت السيول التي أغرقت اليابسة ، و القرآن يقول : كلا .. إنه لم يكن صدفة ، بل بتقدير إلهي حكيم نقرأ لمساته على هذه الظاهرة الكونية الخارقة للعادة ، حيث سبق إخبار نوح به ، و حيث لم يغرق فيه ولا مؤمن واحد ، و لم ينج منه ولا كافر واحد ، فهل هذا مجرد صدفة ؟!

]فالتقى الماء[

المنهمر من السماء ، و المنفجر من الأرض.

]على أمر قد قدر[

و نجد إشارة إلى هذا الأمر الالهي في قوله تعالى : " حتى إذا جاء أمرنا و فار التنور " (٢) ، و كان الأمر حكيما في جميع دقائقه ، فهو مقدر من حيث الزمن بدء و نهاية ، و من حيث العوامل و طريقة تنفيذه ، فلو تقدم مثلا عن زمنه المحدود لربما كان يغرق نوح (ع) و من معه لعدم الاستعداد ، ولو تأخر أمر الله بإنهائه ربما لم تكن(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٧٨.

(2)هود / ٤٠.

الارض بعدها صالحة للحياة عليها.

] [16 - 13]و حملناه على ذات الواح و دسر[

وهي السفينة التي تتكون من الجذوع المقطعة شرائحا ، ولا يقال لوح إلا للصفائح ، أما الدسر فهو ما يشد الألواح إلى بعضها ، سواء كان ذلك المسمار أو الحبل أو غيرها ، و إذا يتعرض القرآن إلى المواد الأولية التي تتألف منها سفينة نوح فلكي يؤكد بأن الأمر لميكن صدفة ، بل هو مقدر تقديرا حكيما من قبل الله ، وإلا كيف ينجو راكب سفينة هذه طبيعتها من الغرق بطوفان هائل أمواجه كالجبال ؟!!

و يؤكد القرآن على هذه الحقيقة مرة أخرى ، حينما يبين بأن سير الفلك في غضب الطوفان و بالتالي نجاة ركابها كان برعاية مباشرة من الله ، وفي ظل رحمته.

]تجري باعيننا جزاء لمن كان كفر[

و عين الله لطفه و رحمته و رعايته لنبيه (ع) إذ نجاه ومن معه جزاء معاناته و ايمانهم ، فقد لبث في قومه مدة طويلة يدعوهم الى الله بالحاح رغم كفرهم به وأذا هم له ، و لم تكن نجاته صدفة ، ولا لعنصره ، ولا لركوبه في السفينة و حسب ، بل لعمله و سعيه ، إذا أكد ربنا انه كان جزاء لنوح الذي كان قد كفر من لدن أولئك الكافرين ، و هذا رأي في التفسير ، و هناك آراء أخرى لا أراها تنسجم مع ظاهر السياق.

وفي الوقت الذي دمر الله أولئك ونجى هؤلاء ، أبقى قصصهم - و ربما السفينة أيضا - علامة تهدينا إلى الحق ، و لكن لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

]و لقد تركناها اية فهل من مدكر[

إنها واقع مر لفريق ، و نعمة لفريق آخر في وقتها ، و لكن دورها لا ينتهي عند هذا الحد ، بل تبقى موعظة للاحقين ، لذلك يسجلها الله في كتابه لكي لا تنساها البشرية و يفوتها نفعها ، و أن يتذكر الانسان بغيره خير من أن تدور رحى التجارب عليه فيصير عبرة للآخرين ، و كما في الخبر : " السعيد من اتعظ بتجارب غيره " ، من هنا ينبغي أن ندرك مدى أهمية القرآن للبشرية ، و دوره في حفظ تاريخها و تجاربها التي تطاولت عليها السنون ، و كانت لولاه تبيد و تنسى أو تنتزع منها عبرتها و لبابها ، و تضحى

قشرة بالية لاتكسب الناس حكمة ، ولا تهديهم سبيلا ، كما نجد في التواريخ التي تمجد قصص الغابرين لا تحكي سوى ظواهرها ، أما ما ينفع الأجيال المتلاحقة فإنه ينسى . حقا : إنها سمة مميزة لمنهج الرسالة في بيان قصص الأولين ، حيث تحولها إلى حقائق معاشة بيننا ، و ذلك بالتركيزعلى بيان عبرها الدائمة و الخطوط المشتركة بيننا و بينهم.

و هكذا أشار ربنا سبحانه في آيات أخرى إلى جانب من ذلك بعد بيان قصة نوح فقال : " قيل يا نوح اهبط بسلام منا و بركات عليك وعلى أمم ممن معك و أمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم * تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذافاصبر ان العاقبة للمتقين " (١) . اترى كيف وصل الحدث الموغل في التاريخ بالحدث الراهن المتمثل في الصراع المستمر بين المتقين و غيرهم وأن العاقبة لهم ؟ و هذه من أبرز العبر في قصة نوح (ع) ، و لكن السفينة ذاتها آية ايضا ، ذلك أنها حافظت على النوع البشري من الانقراض ، ومن الآيات التي تجلت في القصة آية العذاب الالهي المهول الذي تشير إليه الآية الكريمة التالية بهدف إصلاح النفسية البشرية القائمة على الظنون و التمنيات ، حيث يستبعد البعض العذاب من قبل الله بناء على تصور خاطىء ، بأنه رحيم و رؤوف وقد

(1)هود / ٤٨ - ٤٩.

خلق الخلق ليرحمهم لا ليعذبهم ، و يتخذ البعض من هذا التصور مبررا للذنوب التي يمارسها ، كلا .. يقول تعالى:

]فكيف كان عذابي ونذر[

بلى .إن الغضب الالهي عذاب للأقوام التي يحل بها ، و لكنه في ذات الوقت نذير للآحقين ، فلا يعتمدوا إذن على التمنيات ، ليتفكروا في التاريخ ، و ليذكروا آياته الواعظة المنذرة ، والاستفهام الوارد في الآية يفيد التعظيم ، و يستهدف استثارة العقل نحو الموعظةبوقعه الخاص ، ذلك أن الاستفهام بحاجة الى وقفة تفكر و تدبر.

[17]و تلك الآية وآية العذاب ، و ما تنطوي عليه قصة نوح مع قومه من نذر ، تلتقي مع القرآن في هدف واحد هو التذكرة ، إذن فهي الهدف الأسمى للقرآن ، و اليها تهدي كل سوره و آياته ومفرداته ، و لكن كيف يحقق القرآن هذا الهدف ؟ و كيف ينفذ الى اعماق ضمير الانسان و عقله ، و يخترق حجب الهوى و الغفلة و الجهل التي تلوث فطرته ، و تستر عقله عن الحق ؟ لابد ان يكون ميسرا بعيدا عن العسر والتعقيد للأسباب التالية:

اولا : لأنه كلام الخالق العليم القدير الى المخلوق الجاهل الضعيف ، و ليست ثمة نسبة بينهما في علم ولا منطق.

ثانيا : لأنه يحدث الانسان عن حقائق كبرى في الحياة و فوق الحياة ، بعضها يحسها و يراها و البعض الآخر يغيب عنه .

ثالثا :لأن الله أراد لهذا الكتاب الصغير في حجمه الكبير في محتواه ان يكون تبيانا لكل شيء يهم الانسان في حاضره و مستقبله ، و في دنياه و آخرته ، و يرسم له مناهج الحياة في أبعادها المختلفة ، في الشؤون الشخصية و الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية و العلمية و الثقافية .. و لقد يسر ربنا القرآن إذ

جعله عربيا مبينا ، و أنزله في ارفع الأساليب البلاغية و النفسية والعقلية فإذا به الحكمة البالغة ، و القصص القرآني التي تبلغ (٤٠%) من عموم آياته تقريبا هي من أبرز معالم منهجه في تيسير التذكرة ، لذلك تجد الآية الكريمة : " ولقد يسرنا القرآن للذكرفهل من مدكر "تتكرر في هذه السورة بعد كل قصة مباشرة ، و هي قصص واقعية بتفاصيلها التي تعرض لها القرآن.

إذن لا نقص في كتاب ربنا سبحانه ، ولا غموض ، ولا يكلف الانسان أكثر من وسعه ، بل هو ميسر ، و إّذا كانت ثمة تزمت أو تعقيد عند بعض المؤمنين به فهو من عند أنفسهم ، ولأن قلوبهم قد ملئت بثقافات دخيلة ؛ بأساطير الشعوب البدائية ، بأفكار الجاهلية الوافدة ، بالاسرائيليات المتلصلصة الى كتبهم ، و بالعقد المتراكمة من جراء التخلف ، و إذا لم يتذكر البشر به فلا حجة له.

]و لقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر[

و السعيد من صدق بالقرآن و تذكر به فتجنب العذاب.

[20 - 18]إن الله ضرب للبشر مثلا من واقع المكذبين وعاقبتهم بقوم نوح (ع (، و لكن الأهم بيانه مصير أولئك الذين لم ينتفعوا بتجارب السابقين من الاقوام ، تحذيرا للناس من تكذيب القرآن و عصيان الرسول.

إن الله ترك قصص قوم نوح آية للاحقين ، و كان بإمكان من بعدهم أن يتجنبوا غضب الله لو اعتبروا بها ، و لكنهم كذبوا فحل بهم العذاب.

]كذبت عاد فكيف كان عذابي و نذر[

و عاد هم القوم الذين أرسل اليهم النبي هود (ع) فلما كذبوه أهلكهم اللهبالريح ، و هذا نذير آخر لنا يسوقنا الى التصديق بالرسالة.

]انا ارسلنا عليهم ريحا صرصرا[

وهي الريح شديدة البرد ، و ذات الصوت الرهيب ، عن علي بن إبراهيم (١) ، و أصله الصرير ، و عن أبي بصير قال : قال ابو جعفر (ع) : " إذا اراد اله عز ذكره أن يعذب قوما بنوع من العذاب أوحى الى الملك الموكل بذلك النوع من الريح التي يريد أن يعذبهم بها قال : فيأمرهم الملك فتهيج كما يهيج الأسد المغضب ، قال : ولكل ريح منهم اسم " (٢) والذي يجعل الريح ذات أثر أعمق أنها ارسلت في يوم رفع الله عنه الرحمة.

]في يوم نحس مستمر[

دائم ، بدأ في الدنيا بثمانية أيام حسوما ، و لكنه يمتد الى الآخرة حيث العذاب المقيم ، و إنما أرسل الله عليهم الريح تقتلعهم من الأرض لأنهم تكبروا على الحق ، و تحدوا هودا و ربه ، و جحدوا بالآيات ، فكانوا يتصورون أنهم باقون و أنه لا غالب لهم ، قال تعالى : " فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو اشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون * فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا و لعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون" (٣) ، و يشير هذا النص القرآني الى الفكرتين المتقدمتين وبالربط مع قوله تعالى " : سخرها عليهم سبع ليال و ثمانية أيام حسوما " (٤) نفهم أن " مستمر " صفة للنحس و ليس لليوم ، لأن اليوم ينقضي(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ٤٠١.

(2)المصدر / ص ١٨١.

(3)فصلت / ١٥ - ١٦.

(4)الحاقة / ٧.

و يأتي آخر غيره ، بينما بقي النحس عاملا مشتركا مستمرا.

أما ما قيل من أن النحس مختص ببعض الأيام كالأربعاء أو الثالث عشر من كل شهر فإنه بعيد لأن الاقدار

ليست مرهونة بالأيام ، بل بعمل الانسان فردا و مجتمعا ، فاليوم الذي يطيع الله فيه و يعمل صالحا هو يوم خير و بركة و يمن ، سواء في الدنيا حيث الشعور بلذة فراغ الذمة و أداء الواجب ، و جلب التوفيق ، أو في الآخرة حيث يرقى به درجة من الرضى و الجنة ، و هكذا اليوم الذي تتنزل فيه رحمة الله و آلاؤه مبارك و سعيد ، كيوم أنزل المائدة على بني إسرائيل وحواري عيسى (ع) ، و ليلة أنزل القرآن على نبيه التي هي خير من ألفشهر ، و في المقابل يكون يوم المعصية يوم نحس ، يقطع عن صاحبه التوفيق ، و يجعله عرضة لسخط ربه في الدنيا و الآخرة . أترى كيف صار عقر الناقة سببا لدمار أمة برمتها ؟

قال سويد بن غفلة : دخلت عليه) يعني الامام علي (ع) فإذا عنده فاثور (خوان) عليه خبز السمراء (الحنطة (و صفحة فيها خطيفة (اللبن يختطف بالملاعق) و ملبنة (ملعقة) فقلت : يا أمير المؤمنين يوم عيد و خطيفة ؟! فقال : " إنما هذا عيد من غفر له (1) " و عنه أيضا : " إنما هو عيد لمن قبل الله صيامه ، و شكر قيامه ، و كل يوم لا تعصي الله فيه فهو يوم عيد " (٢. (

و تتصل الآيات تحدثنا عن عاقبة المكذبين من قوم هود (ع) لتضع أمام أعيننا لقطات رهيبة من العذاب ، و ما فعلته الريح بهم إنها من الشدة بحيث تنتزع الانسان من الأرض ، كما تنتزع أعجاز النخل المسنة اليابسة المنخورة من جذوعها لتلقي بها أرضا من أساسها!

]تنزع الناس[

(1)بح / ج /ص ٧٣.

(2)نهج / حكمة ٤٢٨.

و كلمة " تنزع " تدل بوضوح على مدى تشبثهم بالحياة ، و اعتمادهم على أسباب القوة و البقاء الظاهرية ، بالرغم من أنهم يعيشون في داخلهم الضعف و الانهيار ، كسائر الانظمة الطاغوتية التي يشبهها الله ببيت العنكبوت مع أن ظاهرها القوة و المتانة ، وهذا الضعف ناتج من اتباعهم الباطل ، و مخالفتهم سنن الحياة ، ذلك أن أسباب القوة الحقيقية تكمن في اتباع الحق و التسليم لله ، و قد اعتمد قوم عاد على ذاتهم كما بينا ذلك في الآيتين (١٥ / ١٦ (من سورة فصلت.

يقول تعالى : " مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا و إن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون " (١) ، و هنا يشبههم بشيء آخر فيقول عز من قائل:

]كأنهم أعجاز نخل منقعر[

اهترأ و تجوف بمرور الزمن و تعرضه للعوامل الطبيعية المتلفة ، و تقطعت عروقه ، فهو لا يحتاج حتى يهوي الى الأرض من أصوله فيتحطم إلا لأدنى دفع ، و قد شبههم الله بالنخل الذي اجتث من قعره (و انما اراد تعالى ان هؤلاء اجتثوا كما اجتثت النخل الذاهب في قعر الأرض فلم يبق لهم رسم ولا أثر) (٢ (، "فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية " (٣) تهاوت على بعضها و متفرقة هنا وهناك.

[22 - 21]و مع ما تحمل هذه الآيات الكريمة من بلاغة و أسلوب أدبي رفيع ، إلا أنها ما جاءت لكي يظهر ربنا إعجازه البلاغي و الأدبي للناس و حسب ، أو لتكون ميدانا للصراع بين علماء البلاغة و اللغة أو بين المفسرين ، بل جاءت موعظة(١) العنكبوت / ٤١.

(2)مفردات الراغب / ص ٤٠٩.

(3)الحاقة / ٧.

و نذير للبشرية.

]فكيف كان عذابي و نذر[

أترى هينا أن يحل غضب الله القوي العزيز على الانسان الضعيف الذي خلقه أساسا للرحمة ؟! لنتفكر في تضاعيف الآيات الماضية ، و نقف على آثار الماضين و قصصهم نتعظ من قبل ان نذل و نخزى ، فهذه الآيات إنما جاءت لتحملنا إلى التذكرة ، و تيسر علينا حقائق القرآن.

]و لقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر[

نحن لا نرى جهنم بأعيننا لأنها من الغيب الذي حجب عنا علمه ، و لكن لننظر إليها بقلوبنا ومن خلال بصائر القرآن الحكيم ، ليهدينا عذاب الله في الأقوام السالفة الى شديد عذابه في الآخرة ، و ليزجرنا قبل ذلك عن التكذيب بالحق .. فهل يكون ذلك منا ، أم نكون أنفسنا عبرة لمن بعدنا ؟ إن الحجة بليغة و بالغة ، و السبل مشرعة ، و الأعلام واضحة ، و الآيات ميسرة ، و بأيدينا القرار ، و به نرسم مصيرنا و مستقبلنا ، بتوفيق الله سبحانه.

فهل من مدكر

هدى من الآيات

إنه لأسلوب جديد في القرآن الكريم في هذه السورة و التي تليها : أن تتكرر الآية الواحدة مرة بعد الأخرى ، مما يهدي المتدبر - ومن أول وهلة - إلى كونها محورا أساسيا بين أخواتها في السورة الواحدة ، ففي سورة الرحمن تتكرر الآية الكريمة : " فبأي آلاء ربكما تكذبان " ، وهنا قوله تعالى " : ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر " ، و يطرح الذكر الحكيم هذا الاستفهام مدويا في أفق الزمان و المكان وفي قلب كل بشر : هل هناك من يتذكر بالقرآن الذي يسر الذكر بقصص الماضين ؟؟

الانسان من جهته لا يعلم بعواقب الأمور ، و بسنن الحياة الفردية و الاجتماعية من حوله ، إلا عبر منهجين:

/ 1تجارب الآخرين . علما بأن الانسان لا يعاد الى الحياة مرة اخرى بعد الموتحتى يجرب في الأولى و يتعظ في الثانية.

/ 2الوحي الالهي.

و قد يكشف القرآن السنن الالهية في الخليقة بصورة مباشرة ، و قد يبينها عبر قصص الغابرين ، فهو إذا يجمع بين المنهجين و من أراد ان يتذكر (ينبه ضميره و عقله) فعليه بالقرآن ، كمكمل وهاد لفطرته و عقله ، فإن لم ينتفع به فليس بنفعه شيء أبدا.

بينات من الآيات

[23]قصة ثمود (قوم صالح (ع)) من النذر التي تكشف لنا عن عاقبة التكذيب بالحق ، و لكن ربنا لا يقول أنهم كذبوا بالحق ، بل قال كذبوا بآياته و نذره ، و ذلك ليكشف لنا عمق الضلال و الانحراف في نفوسهم ، فالانسان يكذب بالحق تارة ثم يزعم أنه لا يجد آية تدله عليه ، و تارة يكذب به بالرغم من الآيات الهادية إليه . قوم صالح دعاهم نبيهم الى الله ، و حذرهم من التكذيب ، و أظهر لهم أكثر من آية منذرة بينه ، و لكنهم اصروا على باطلهم ، و كذبوا بكل شيء.

]كذبت ثمود بالنذر[

قال بعض المفسرين أنها نذر العذاب المباشرة حيث اصفرت وجوههم في اليوم الأول ، و احمرت في الثاني ، و اسودت في الثالث .. و الذي يظهر من سياق القرآن أن النذر هو كل ما يحذر الانسان و يخوفه من غضب الله و عذابه ، و قد كذبت ثمود بالرسول ، و رسالته ، و بآياتهالعذاب ، و بالناقة ، و كلها من نذر الله.

[24]و حيث يحتاج الانسان إلى تبرير مواقفه و تصرفاته مهما كانت ، فقد لجأوا بعد رفض الحق الى الافكار و الضلالات الجاهلية ، التي تناقض أبسط المعاييرالمنطقية عند البشر ، إنهم حاولوا تقييم الرسالة و قيادة الرسول)ص) من خلال مصلحتهم و واقعهم المادي المنحرف ، فما داما لا يلتقيان معهما فليسا بحق . هم أرادوا الرسالة رسالة هوى و تبرير فجاءت بالحق و المسؤولية ، و أرادوا الرسول مثلهم في قيادته و مظهرهفوجدوه قدوة الخير و الصلاح.

]فقالوا[

و يبدو أن القائلين هم الملأ المستكبرون الذين كانت قيادة صالح (ع) مناقضة لمصالحهم ، لذلك سعوا جهدهم الى محاربته ، و يدل على ذلك قوله تعالى " : قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه " (١)، و أرادوا بذلك تشكيكهم في شرعية قيادته ، و هنا أرادوا نفس الغاية ، و حيث لم يجدوا سبيلا لمواجهة الرسالة نفسها سعوا الى النيل من شخصية الرسول ، فقالوا : إنه ليس مرسلا من قبل الله لأن الله لا يرسل بشرا ، و بالتالي فاتباعه ليس واجبا ، و هذه الفكرة تشبهالى حد بعيد قول البعض عن الرسول (ص) انه عبقري وحسب ليثبتوا عدم لزوم طاعته ، و قد أضاف قوم صالح الى ذلك أنه مثلنا ومن محيطنا ولا شيء يميزه عنا يدعونا الى اتباعه ، ثم انه واحد لا مال له ولا أعوان ، فهو مجرد عن عوامل القوة التي تبعثنا الى طاعته و الخضوعله ، وقد يكون معنى " واحدا " أنه جاء بنظام سياسي يدعو الى قيادة موحدة ، و نبذ النظم القبلية و العشائرية القائمة على أساس تعدد القيادات ، و التي تفسح المجال لكل مترف و مستكبر لممارسة شهوة الرئاسة ، و هذا لا يتفق مع أهوائهم ، كما قال كفار قريش : " أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب " (٢. (

]ابشرا منا واحدا نتبعه[

(1)الاعراف / ٧٥.

(2)ص ٥.

و اعتبروا اتباعه مع هذه الصفات ضربا من التيه ، بل الجنون ، واعترافا صريحا منهم بخطأ سيرتهم الماضية ، إضافة الى كونه يجردهم من الرئاسة ، و لذلك رفضوا قياداته و اتباعه.

]انا اذا لفى ضلال وسعر[

السعر هو الجنون الشامل المستمر ، و الحق أن هذه كلها مقاييس باطلة لا تصلح لتشخيص القيادة الحقيقية في المجتمع ، إنما الكفاءة الادارية و العملية و السياسية ، و مدى الالتزام بالحق (التقوى) ، و التصدي الفعلي للقيادة ، ثم إذن الله و إعطاؤه الشرعية هي المقاييس الصادقة للرئاسة.

[25]بل . إنهم اعتبروا الوجاهة الاجتماعية ، و كثرة المال و الأتباع ، هي المقاييس ، ولو تجرد صاحبها عن الكفاءة و التقوى ، و هذه متوفرة لديهم ، و هذا منطق المترفين و المستكبرين على مر التاريخ و مع كل الأنبياء و المرسلين ، " و قالوا " لرسولنا الأعظم " لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم " (١. (

و هكذا قال مترفو بني إسرائيل من قبل ، قال الله عز وجل : " ألم تر الى الملأ من بني اسرائيل من بعد موسى اذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال الا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد اخرجنا من ديارنا و أبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم و الله عليم بالظالمين * و قال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا انى يكون له الملك علينا و نحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال " (٢. (

و هذه بالضبط هي كانت مقاييس قوم صالح ، لذلك استنكروا أن يصطفيه الله(١) الزخرف ٣١

(2)البقرة / ٢٤٦ - ٢٤٧.

من بينهم وهو لا يضاهيهم مالا ولا اتباعا ، بل اتهموه بأرذل أنواع الكذب.

]ءالقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب اشر[

قال البعض : الأشر الذي يتجاوز الحد في الكذب ، و يبدو أنه الطمع في الرئاسة بلا استحقاق لها ، و لعل معنى كلام سيد الشهداء الامام الحسين (ع) : " إني لم أخرج (اشرا) ولا بطرا ولا ظالما ولا مفسدا " أنني حيث نهضت و طالبت بالامامة فهي من حقي ،و لست أدعي ما هو للغير ، و ظاهر كلمة " من بيننا " في هذه الآية يؤيد هذه الفكرة ، لأن المعنى بها يكون : أنه طلب يصلح و يحق لنا دونه ، و ربما دلت هذه التهمة الباطلة على أن خشية أولئك الكافرين من تحويل الرئاسة عنهم كانت وراء تكذيبهم برسالة صالح، حيث أنهم اتهموه بأنه طالب رئاسة بالباطل قياسا على أنفسهم الذين تسلطوا على الناس بغير حق.

[26]و أمام هذا المنطق المتوغل في الكبر على الحق ، و الاستهزاء بولي الله و رسوله صالح (ع) ، و الاعراض عن الآيات و النذر ، ومن ثم مبارزة الحق تعالى ، يتوعدهم ربنا بالعذاب.

]سيعلمون غدا[

في المستقبل الدنيوي و الأخروي إذا نزل بساحتهم العذاب.

]من الكذاب الاشر[

و حينئذ سيكتشفون مدى ضلالتهم و هوانهم على الله ، كما يوقنون عين اليقين صدق النذر ، و لكن دون جدوى ، لأن العلم و الايمان ينفعان ما بقيت فرصة للتغير و العمل ، و الآية تهدينا الى ان حبل الكذب قصير ينقطع بصاحبه سريعا ، و عاقبتهالخسران ، لأنه يخالف سنن الله في الحياة.

[29 - 27]و منذ أوحى الله الى نبيه بذلك الوعيد كان عالما بعاقبتهم ، قادرا على إبادتهم ، و لكنه - وقد كتب على نفسه الرحمة - لا يأخذهم بالعذاب قبل النذر ، لأن حكمته اقتضت أن يجعل لنفسه الحجة البالغة ، لئلا يقول الناس " : لولا أرسلت الينا رسولافنتبع آياتك و نكون من المؤمنين " (١) ، لذلك شاء و قضى أن يظهر لهم آيات العذاب اولا.

]انا مرسلوا الناقة فتنة لهم[

نبتليهم و نمتحنهم بها ، و حينما يتعرض المجتمع للفتنة فإن مسؤولية القيادة الرسالية و كذلك المؤمنين أن يكونوا شهداء لله عليه ، بالدعوة الى الحق ، و بيان البصائر و المواقف المطلوبة اثنائها ، و التصدي لقيادته ، و أن يستعدوا لهذه المسؤولية الحساسة ، ويتحملوا من اجلها الضغوط المختلفة ، و يستقيموا صامدين حتى يحكم الله تعالى.

]فارتقبهم و اصطبر * و نبئهم ان الماء قسمة بينهم]و بين الناقة التي أخرجها الله من الجبل " قال هذه ناقة لها شرب و لكم شرب يوم معلوم " (٢) و كانت القسمة واضحة مقبولة لأنها تمت بحضورهم و رضاهم ، فكل صاحب يوم يحضر شربه في يومه.

]كل شرب محتضر[

(1)القصص / ٤٧.

(2)الشعراء / ١٥٥.

و حينما يرسل الله الآيات المادية الواضحة اليى قوم أو أمة من الأمم فإن ذلك دليل على أنه يريد حسم الموقف بعذاب الاستئصال إذا كذبوا بها ، و لقد كانت الناقة آية مبصرة إلا أنها في نفس الوقت كانت صعبة على نفوسهم المنحرفة ، و من طبيعة الانسان أنه حينمايواجه أمرا صعبا يفرز حالة نفسية يضخم بسببها ذاته و يستهين بذلك الأمر ، فإذا بالقيم السامية و الدين يستحيلان الى شيء حقير عنده ، بلى . قد يكون الأمر ذاته ليس عظيما إلا أن عظمته الحقيقية تكمن في القيم التي يتصل بها ، جاء رجل الى الامام الباقر (ع) يسأله عن حكم دهن سائل وقعت فيه فأرة ميتة ، فقال له الامام : أرقه ، فقال : الفأرة أهون علي من ذلك ، فماذا كان جواب الامام ؟ قال له (بما معناه) : انك لم تستخف بالفأرة ، و انما استخففت بدينك ، و في الواقع الاجتماعي ايضا نجد شواهد لهذا الانحراف الخطر عند الانسان ، فإذا بك تراه لا يحترم العالم ولا يقدره لا لقلة علمه ، او ضعف شخصيته ، و انما لأن شكله لا يدعوه للاحترام ، ولا يعلم أنه بذلك يستهين بقيمه العلم لا بالعالم نفسه ، و علاج هذه الحالة بإيجاد توازن داخل الانسان بين نفسه و بين القيم ، و ذلك بتصور العاقبة التي ينتهي اليها هذا الانحراف.

ان قوم صالح احتقروا الناقة ، و ظنوا أنهم أكبر من أن يقدروها ، و يلتزموا بعهدهم مع النبي (ع) لشأنها ، و بالرغم من تحذيره لهم تآمروا ورضوا بعقرها.

]فنادوا صاحبهم[

قدار أو أحيمر ، بعد تخطيطهم للمؤامرات ، و كان أشقى القوم و أجراهم على الحق ، و لعل معنى المناداة ليس التنادي بالكلام فقط ، و انما أيضا بالرضا و عدم تحمل مسؤولية الدفاع عن الحق ، بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، و مقاومة اهل البغي و الطغيان.

قال الامام علي)ع: (

"أيها الناس ! إنما يجمع الناس الرضى و السخط ، و إنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضى ، فقال سبحانه و تعالى " : فعقروها فأصبحوا نادمين " فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة" (١. (

و كان هذا الفرد يعكس الشخصية الحقيقية لذلك المجتمع ، إذ كان يعبر - بعمله - عن ضميرهم الفاسد ، و عزمهم الخائر ، و إرادتهم المشلولة ، و فكرهم الضال ، و غياب المؤسسات الاصلاحية بينهم ، و هكذا حينما تحكم أي مجتمع أفكار سلبية فإنها تتجسد في قيادة ضالة طاغية ، و نظام سياسي منحرف ، و عاقبة سوأى لا تخص الظالمين أنفسهم بل تطال كل أبناءه ، و ربما أقدم الشقي على عقر الناقة للوصول الى حاجة في نفسه هي الرئاسة ، و قد دخل بعمله هذا في صفقة مع المترفين و المستكبرين مباشرة ، و مع المجتمع بصورة غير مباشرة حيث رضوا عنه و لم يمنعوه.

]فتعاطى[

لعل معناه أنه استعد للقيام بجريمته ، و أخذ يتعاطى وسائلها ، و يهيء الأجواء لها ، و نستوحي من هذه الكلمة أن الجريمة لم تمر بسرعة ، و إنما احتاجت إلى التآمر ، و هذه طبيعة أكثر الجرائم ، أنها تسبقها إرهاصات تمهيدية تعطي الفرصة لأهل الحق بالتصدي لها ،و لقد كان مجتمع ثمود قادرا على مقاومة قدار بعد ان شاهدوا إرهاصات الجريمة عنده ، و لكنهم تركوه ، فبدأ عدهم التنازلي نحو النهاية و العذاب ، و وجد هو الفرصة سانحة لتنفيذ جريمته ، و القرآن في موضع آخر يصور طبيعة المجرم.

(1)نهج / خ ٢٠١.

و موقف المجتمع فيقول " : إذ انبعث أشقاها " (١) ولا ينبعث الانسان إلا إذا كان نفسه متحفزا نحو ما ينبعث إليه ، ولا يجد ما يمنعه من نفسه ولا من خارجها ، و هذا حال الأشقى الذي ضرب عرقوب الناقة و قتلها.

]فعقر[

[31 - 30]و لم ينتبه هو ولا من حوله بأنه يبارز الله بعمله ، فنزل العذاب بساحتهم ، و الانسان لا يتصور أنه ينتهي إلى عاقبة كهذه لسبب يبدو تافها في نظره ، إذ قدرة الانسان على استيعاب كل ظواهر الخليقة و عواملها قدرة محدودة ، لذلك جاء القرآن ليرفع الانسان من حالة الشيئية و اللهو الى القيمة والجد.

]فكيف كان عذابي و نذر[

بقدر ما كانت النذر مبينة بالغة كان العذاب مهولا ورهيبا . و يبين الوحي واقع ذلك العذاب فيقول : إنه لم يكن صدفة ، بل كان مرسلا من عند الله ، بلى . قد ياتي العذاب ضمن سنن الحياة الطبيعية و الاجتماعية ، و لكن السنن لا يمكن أن تتحرك في الفراغ ، و بعيداعن تدبير الخالق و هيمنته ، و هذا البلاغ الالهي يضع حدا لمشكلة عميقة هي تفسير ظواهر الخلق تفسيرا ماديا محضا دون التوغل إلى خلفياتها المتصلة بسلوك البشر ، الأمر الذي يصرفه عن العبرة و التذكرة.

]انا ارسلنا عليهم صيحة واحدة[

صوتا هائلا صاعقا ، ربما يشبه انفجار القنبلة الذرية في العصر الحاضر أو أعظم فعن أبي بصير عن الامام الصادق (ع) قال : " فلما كان نصف الليل أتاهم جبرئيل فصرخ بهم صرخة ، خرقت تلك الصرخة أسماعهم ، و فلقت قلوبهم ،(١) الشمس / ١٢.

و صدعت أكبادهم ، و قد كانوا في تلك الثلاثة أيام (التي سبقت الصيحة بالنذر (قد تحنطوا و تكفنوا و علموا أن العذاب نازل بهم ، فماتوا أجمعين في طرفة عين ، صغيرهم و كبيرهم ، فلم يبق لهم ناعقة ولا راغبة ، ولا شيء إلا أهلكه الله ، فأصبحوا في ديارهم و مضاجعهم موتى اجمعين ، ثم أرسل الله عليهم مع الصيحة النار من السماء فأحرقهم أجمعين " (١) لكي لا يبقى لهم أثر في الحياة ، و تحدث الله بضمير الجمع " إنا " الدال على التعظيم و التكبر لأن المقام مقام عزة الله و سلطانه.

]فكانوا كهشيم المحتظر[

و هو بقايا العلف و الحشائش و الاعواد اليابسة التي تتراكم في حظيرة الماشية ، و تبقى و تهشمها بأظلافها و حوافرها ، و حيث لا تجد طريقا للخروج منها تظل تدوسها بكثافة و قد ذكر معاني أخر للهشيم الا ان ماذكرنا يبدو أقرب منها.

و هو بقايا العلف و الحشائش و الاعواد اليابسة التي تتراكم في حظيرة الماشية ، و تبقى و تهشمها بأظلافها و حوافرها ، و حيث لا تجد طريقا للخروج منها تظل تدوسها بكثافة و قد ذكر معاني أخر للهشيم الا ان ما ذكرنا يبدو أقرب منها.

[32]هكذا كان مصيرهم و عذابهم ، و ما تصوره الآيات لنا عنه مجرد لقطات يحفظها القرآن لإنذار البشرية و تذكيرها عبر الزمن ، و نحن لا نستطيع تصور الصيحة التي عبر بها الرب يومئذ عن غضبه بعقولنا المحدودة ، ولا نستطيع أن نتخيل ثمود وقد تعرضوا لها ، بالذات لو كنا في مجتمع القرآن الأول أيام الرسول (ص) حيث لم يصنع الانسان الأسلحة التدميرية المعاصرة ، لذلك نجد القرآن يقرب لنا الصورة بتشبيه واقعي تستوعبه عقولنا ، و يفهمه حتى ذلك البدوي الذي يقطن الصحراء ، و هذا من منهج الله في تيسير كتابه المجيد.

قال الإمام الصادق (ع) يحكي قصتهم :

"هذا كان بما كذبوا صالحا ، و ما أهلك الله عز وجل قوما قط حتى يبعث إليهم قبل ذلك الرسل فيحتجوا عليهم ، فبعث الله إليهم صالحا فدعاهم فلم يجيبوه ، و عتوا(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٨٤.

عليه عتوا و قالوا : لن نؤمن لك حتى تخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عشراء ، و كانت الصخرة يعظمونها ، و يعيدونها ، و يذبحون عندها في رأس كل سنة ، و يجتمعون عندها ، فقالوا له : إن كنت كما تزعم نبيا رسولا فادع لنا إلهك حتى يخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عشراء ، فأخرجها الله كما طلبوا منه ، ثم أوحى الله تبارك و تعالى إليه ، يا صالح قل لهم : إن الله قد جعل لهذه الناقة شرب يوم و لكم شرب يوم ، فكانت الناقة إذا كان يوم شربها شربت الماء ذلك اليوم فيحلبونها ، فلا يبقى صغير ولا كبير إلا شرب من لبنهايومهم ذلك ، فإذا كان الليل و أصبحوا غدوا إلى مائهم فشربوا منه ذلك اليوم و لم تشرب الناقة ذلك اليوم ، فمكثوا بذلك ما شاء الله ، ثم إنهم عتوا على الله ، و مشى بعضهم إلى بعض ، و قالوا : إعقروا هذه الناقة و استريحوا منها ، لا نرضى أن يكون لنا شرب يوم ولها شرب يوم ، ثم قالوا : من ذا الذي يلي قتلها ، و نجعل له جعلا ما أحب ؟ ، فجاءهم رجل أحمر أشقر أزرق ولد زنا لا يعرف له أب ، يقال له قدار ، شقي من الأشقياء ، مشؤوم عليهم ، فجعلوا له جعلا ، فلما توجهت الناقة إلى الماء الذي كانت ترده تركها حتى شربت الماءو أقبلت راجعة ، فقعد لها في طريقه فضربها بالسيف ضربة فلم يعمل شيئا ، فضربها ضربة أخرى فقتلها ، فخرت إلى الأرض على حينها ، و هربت فصيلها ، حتى صعد إلى الجبل فرغا ثلاث مرات الى السماء ، و أقبل قوم صالح فلم يبق أحد إلا شركه في ضربته ، و اقتسموا لحمها فيما بينهم فلم يبق صغير ولا كبير إلا أكل منها ، فلما رأى ذلك صالح أقبل إليهم فقال : يا قوم دعاكم إلى ما صنعتم أعصيتم ربكم ؟ فأوحى الله تبارك و تعالى إلى صالح (ع) : إن قومك قد طغوا و بغوا و قتلوا ناقة بعثها الله إليهم حجة عليهم ، ولم يكن عليهم منها ضرر، و كان له أعظم المنفعة ، فقل لهم : إني مرسل إليكم عذابي إلى ثلاثة أيام ، فإن هم تابوا و رجعوا قبلت توبتهم وصدت عنهم ، و إن هم لم يتوبوا ولم يرجعوا بعثت إليهم عذابي في اليوم الثالث ، فأتاهم صالح (صلى الله عليه) فقال لهم : يا قوم إنيرسول ربكم إليكم ، وهو يقول لكم : إن أنتم تبتم و رجعتم واستغفرتم غفرت لكم و تبت عليكم ، فلما قال لهم ذلك كانوا أعتا ما كانوا و أخبث ، وقالوا : " يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين " قال : يا قوم إنكم تصبحون غدا و وجوهكم مصفرة ، واليوم الثاني و وجوهكم محمرة ، و اليوم الثالث و وجوهكم مسودة ، فلما كان أول يوم أصبحوا و وجوههم مصفرة ، فمشى بعضهم الى بعض وقالوا : قد جاءكم ما قال لكم صالح ، فقال العتاة منهم : لا نسمع قول صالح ، ولا نقبل قوله وإن كان عظيما ، فلما كان اليوم الثاني أصبحتوجوههم محمرة ، فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا : يا قوم قد جاءكم ما قال لكم صالح ، فقال العتاة منهم : لو أهلكنا جميعا ما سمعنا قول صالح ، ولا تركنا آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها ، ولم يتوبوا ولم يرجعوا ، فلما كان اليوم الثالث أصبحوا و وجوههم مسودة ، فمشى بعضهم إلى بعض و قال : يا قوم أتاكم ما قال لكم صالح ، فقال العتاة منهم : لقد أتانا ما قال لنا صالح ، فلما كان نصف الليل أتاهم جبرئيل فصرخ بهم صرخة ، خرقت تلك الصرخة أسماعهم ، و فلقت قلوبهم ، و صدعت أكبادهم ، و قد كانوا في تلك الثلاثة أيام قد تحنطوا وتكفنوا و علموا أن العذاب نازل بهم ، فماتوا أجمعين في طرفة عين ، صغيرهم و كبيرهم ، فلم يبق لهم ناعقة ولا راغية ولا شيء إلا أهلكه الله ، فأصبحوا في ديارهم و مضاجعهم موتى أجمعين ، ثم أرسل الله عليهم مع الصيحة النار من السماء فإحرقهم أجمعين ، و كانت هذهقصتهم " (١(

و هي و سابقاتها وما يليها من القصص وإن تضمنت الكثير من الأفكار إلا أنها تدور حول فكرة محورية بهدف تيسيرها و تقريبنا منها.

]و لقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر[

(1)المصدر / ص ١٨٥.

هكذا يكرر الذكر الحكيم آياته و عبره ، و لعلنا نتنبه من الجهل و الضلال و الغفلة ، و لكنه بالرغم من ذلك لا زال غريبا مهجورا في واقعنا بجميع أبعاده ، فنحن لا زلنا بعيدين عن دعوته للوحدة و العمل ، و

الاستقامة على الحق ، و محاربة الجبت و الطاغوت ، والاتعاظ بالنذر السالفة.

[33]و مع ذلك ما يبرح يتابع إلينا سورة فسورة ، و آية فآية ، و مثلا فمثلا ، فهذه آياته و قد انتهت من عرض قصة ثمود ، تضرب لنا مثلا آخر عن عاقبة التكذيب بقصة قوم لوط ، الذين تورطوا اخلاقيا في الشذوذ الجنسي ، و صاروا يأتون الرجال شهوة من دون النساء ،فحذرهم نبيهم (ع) من هذا الانحراف عن طاعة الله و سنن الحياة ، و لكنهم لم يعتبروا بمصير الماضين ولا بنصح لوط)ع) ، بل راحوا يكذبونه ، و يريدون به الشر و الأذى ، رغم النذر الظاهرة.

]كذبت قوم لوط بالنذر[

قيل أنه من النذر الذين أرادوا الفاحشة بضيف لوط من الملائكة " فأشار إليهم جبرئيل بيده فرجعوا عميانا يلتمسون الجدار بأيديهم " (١. (

إلا أن القوم لم يتعظوا بهم ، بل أصروا على فسادهم ، و تمادوا في التكذيب ، و لعل بعضهم راح يؤول عماهم إلى أسباب أخرى ، فهم كما وصفهم في أول السورة " : وإن يروا آية يعرضوا و يقولوا سحر مستمر " (٢. (

[35 - 34]بلى . إنهم كذبوا فما أهملهم الله ، بل أرسل عليهم ريحا محشوة بالحجارة الصغيرة في بادىء الأمر ، لتكون آخر النذر و علامة إلى لوط و المؤمنين معه بقرب العذاب ، و ربما كان ذلك أواخر الليل ، أما العذاب الحقيقي فقد أخره الى(١) بحار الانوار / ج ١٨ / ص ٣٤٨.

(2)القمر / ٢.

الصباح ريثما يخرجون.

]انا ارسلنا عليهم حاصبا[

و لكن بقيت العناية الالهية تحفظ المؤمنين و ترعاهم ، حيث أمر الله لوطا (ع (و المؤمنين بالخروج من القرية الظالم أهلها ليكونوا في مأمن من العذاب " : فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليسالصبح بقريب : (١) ، فارتحلوا منها ، و هذا يدل على أن العملية كانت تجري بإشراف إلهي مباشر لا صدفة ، فحتى خروجهم لم يكن بسبب الارهاصات الطبيعية للعذاب ، بل كان بأمر نزل من الله ، ولولاه لربما كانوا يبقون ، لذلك يؤكد القرآن بأن الله هو الذي أنجاهم و أنقذهم.

]الأ آل لوط نجيناهم بسحر[

يعني نهايات الليل و بدايات الصباح ، و لا يكتفي الوحي بذلك بل يضيف بأن النجاة كانت نعمة إلهية ، و ليست نتيجة حالة بشرية أو صدفة.

]نعمة من عندنا[

و لكنها مرتبطة بواقع بشري هو الشكر . إنها مرت بدورة متكاملة : إيمان + عمل و شكر صاعد من قبل الانسان + الارادة الالهية بالتوفيق = النعمة النازلة من الله للانسان ، و ربنا لا يخصص هذه الدورة بشخص لوط (ع) بل يخلص من ذكر الخاص الى العام ومن الشاهد الى السنة.

]كذلك نجزي من شكر[

(1)هود / ٨١.

أيا كان ، و في أي مكان و زمان.

[37 - 36]و يعود القرآن إلى التأكيد على أن العذاب مر بدورة متكاملة : إنحراف بشري + نذر إلهية + تكذيب بشري و إصرار على الانحراف = العذاب من عند الله (النقمة في مقابل النعمة) ، إن لوطا شخص الانحراف الاجتماعي ، و سعى جاهدا الى التغيير و الاصلاح ، فأنذر قومه من عواقب ضلالهم و أنه يؤدي بهم الى الانتقام الشديد الذي لا قبل لهم به من عند ربهم.

]و لقد انذرهم بطشتنا[

و بدل أن يفكروا في النذر و يتعظوا بها صاروا يتمارون ، و التماري كما يبدو هو الشك الذي يتحول إلى تشكيك إجتماعي ، و قوم لوط لم يكتفوا بتكذيبهم ، بل صار الواحد يدخل الشك إلى الآخر لكي يمعنه من الايمان بالنذر البالغة ، و سمي الجدال مراء لأن أطرافه يشكل الواحد على الآخر بقصد رد حجته وابطالها.

]فتماروا بالنذر[

فكانوا يدافعون عن ضلالهم وباطلهم في مقابل الحق ، استهزاء وجمودا ، و يسعون إلى تغلب أفكارهم وباطلهم عن الحق المبين في أذهان بعضهم ، و ذلك بصرف الآيات و تأويلها إلى غير مضامينها ، و هذا منهج المكذبين عبر التاريخ ، فها هم قوم عاد يدعوهم هود إلى الايمان، فإذا بهم يصرون على باطلهم الى آخر لحظة : " فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شيء بامر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين " (١) ، و الى مثل هذا انتهى انحراف قوم لوط

(1)الاحقاف / ٢٤ - ٢٥.

و تكذيبهم و مراؤهم ، فلقد أرسل الله إلى نبيه الملائكة ومن بينهم جبرئيل)ع) ، و لكنه أنزلهم في صورة جميلة لتبدأ البطشة من محاولة الاعتداء عليهم فيتأكد للقوم بأن هلاكهم كان نتيجة لذلك الانحراف الذي حذرهم من عواقبه لوط (ع) ، و يؤخذوا بالجرم المشهود.

]و لقد راودوه عن ضيفه[

يريدون بهم الفاحشة ، " قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي أليس منكم رجل رشيد * قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق و إنك لتعلم ما نريد * قال لو أن لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد " (١ (إنه حاول إصلاحهم في بادىء الأمر بتوجيههم إلى الجنس الآخر علاجا لانحرافهم ، و رفعا للحرج مع الضيوف ، ثم هددهم باستخدام القوة " فصاح به جبرئيل فقال : يا لوط دعهم يدخلون ، فلما دخلوا أهوى جبرئيل (ع) باصبعه نحوهم فذهبت أعينهم " (٢. (

]فطمسنا اعينهم فذوقوا عذابي و نذر[

قيل أن الطمس هو حجب البصر مع وجود العين على طبيعتها ، و قيل أنه القلع و المسح ، و الذي يبدو أنه ذهاب الرؤية مع ضمور المعالم الظاهرية للعين ، و عندما أنزل الله بهم العذاب ربما رفع قدرتهم على الاحساس إلى أقصاها تفاعلا و وعيا زيادة في العذاب ، إذ لا قيمة لعذاب لا يتذوقه صاحبه.

[40 - 38]كان ذلك (طمس الأعين) عذابا مؤقتا ، أما العذاب الأ وهي و المستمر ، الذي يتصل بالعذاب المقيم في الآخرة ، فقد ابتدرهم أول الصباح.

(1)هود / ٧٨ - ٨٠.

(2)نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٨٥.

]و لقد صبحهم بكرة عذاب مستقر[

لقد كان عذابا مستقرا لا يجدون منه فكاكا لا في دنياهم ولا في الآخرة.

و يبدو ان كلمة " مستقر " تفسير لقوله سبحانه في فاتحة السورة : " و كل امر مستقر " ، و معناها أن عذاب أولئك القوم كان من السنن الثابتة و المستقرة في الحياة ، و نجد تفصيلا للعذاب ، و بيانا لهذه الفكرة ، في موضع آخر من القرآن ، إذ يقول تعالى : " فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها و أمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد (1) " ، لأن العذاب لم يكن خارقا لسنن الحياة ، ولا عرضا طرأ عليها ، بل هو جزء منها و مظهر لها ، و هي مستقرة لا تحويللها ولا تبديل إلى يوم القيامة ، و قد أذاقهم الله هذا العذاب كما أذاقهم عذاب الطمس.

]فذوقوا عذابي و نذر * و لقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر]هكذا يصرخ فينا القرآن يدعونا إلى مأدبة الله ، و يعيد هذه الدعوة بصيغة أخرى فيقول " : افلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها " (٢) . إن القرآن ذاته ميسر للذكر و التدبر ، و لكن قلوبنا هي المعقدة ، إنه يفتح لنا أبواب العلم و الايمان ، و تغلق قلوبنا عنه بالذنوب و الأفكار المتخلفة . أرأيت كيف يرفع البعض دعوة تضاد دعوة الله ، و تصد عن كتابه ؟ ! إنهم يقولون : لا يجوز لأحد أن يتدبر في القرآن ، ولا يفسره ، و يبررون ذلك بالحساسيات المفرطة المتزمتة ، وبأنه معقد لا يفهمه إلا المجتهدون و الفقهاء ، و لكن القرآن جاء ليرد هذه الفكرة و يهدينا للتي هي أقوم بنص قرآني ظاهر لايقبل التأويل ولا الاجتهاد.

(1)هود / ٨٢ - ٨٣.

(2)محمد / ٢٤.

إنا كل شيء خلقناه بقدر

هدى من الآيات

في الدرس الأخير يذكرنا الوحي بأهم عبرة فيها ، و التي يسرها الله بقصص واقعية من تاريخ البشرية ، ابتداء من قوم نوح و انتهاء بآل فرعون ، وهي عاقبة السوء للذين يعرضون عن آيات الله و نذره ، و يكذبون برسالته و رسله ، لأنهم حينئذ يسيرون بعكس آلاف القوانينو السنن في الحياة ، و لأنهم - وهو الأهم - يخالفون الحق ، و يعصون رب العزة سبحانه ، مؤكدا بأن ما لحق أولئك من شديد العذاب في الدنيا بتكذيبهم ليس إلا شمة و ضغثا بالنسبة إلى العذاب الأدهى و الأمر الذي ينتظرهم في الآخرة ، حيث تدق أجراس بدئه ساعة البعث والحساب.

و بعد ان يضع الذكر الحكيم لوحة من مشاهد الآخرة والعذاب أمام قلوبنا و أعيننا يؤكد لنا حقيقة هامة ، هي أن الدنيا بنيت بكل مفرداتها من الذرة حتى المجردة و أصغر من ذلك و أكبر على أساس من السنن و المقاييس و القوانين الحكيمة " إنا كل شيء خلقناه بقدر" الآية (49)، و بالتالي يجب على الانسان ان يكيفنفسه و حياته و علاقاته بكل شيء فيها على هذا الأساس ، أما إذا انتظر أو سعى لتسير الحياة من حوله بسننها و مقاديرها و خلقها وفق هواه فلن يستطيع الى ذلك سبيلا ، لأنها ثابتة و أقوى منه ، بل و سيخسر إلى الأبد.

فلا يظن الانسان إذا أنه يتحرك في الفراغ ، كلا .. إن حوله ملايين الأنظمة التي تحصي عليه أخطاءه و أفعاله و أقواله ، و حتى نياته مسجلة عليه تسجيلا دقيقا ، و لهذا يقول الله عز وجل مبينا حال المجرمين حين يرون كتبهم في يوم القيامة : " فترى المجرمينمشفقين مما فيه و يقولون يا ويلنا ما لهذا الكتاب لا

يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها و وجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا " (١) و بعد الحساب يلقون جزاءهم إذ يسحبون في النار على الوجوه ، أما المتقون فيعطون كتابهم بيمينهم ، أما جزاؤهم جنات و نهرفي مقعد صدق عند مليك مقتدر .

بينات من الآيات

[42 = 41]كما جعل الله للساعة علامات و نذرا تؤذن باقترابها كانشقاق القمر ، فإنه تعالى أخذ على نفسه أن لا يعذب أمة ولا شخصا قبل إقامة الحجة البالغة عليه ، و قبل أن يقدم له من الأنبياء و نذر البطش ما فيه مزدجر له و هداية لمن أراد " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا " (٢. (

و يضع القرآن شاهدا لهذه الحقيقة أمام ضمائرنا و عقولنا هذه المرة من واقع فرعون و قومه الذين أغرقوا في اليم ، إنهم ضلوا عن الحق ضلالا بعيدا ، إذ اعتمدوا نظاما سياسيا ينطلق من عبادة شخص فرعون ، و ينتهج الافساد و الارهاب و القتل و التضليل ، و كانت هذهالأسباب كافية لأن يمحقهم الله ، أترى أعظم جرم عند الله(١) الكهف / ٤٩

(2)الاسراء / ١٥.

من بشر يقول انا ربكم الأعلى ؟! كلا .. و لكنه أمهلهم ، و أراد لهم الرحمة التي خلقهم من اجلها ، فتابع عليهم الآيات و النذر بلسان موسى و على يديه ومن خلال الطبيعة ، بما أبطل به سحرهم و معتقداتهم الواهية ، و أقام عليهم الحجة البالغة.

]و لقد جاء آل فرعون النذر[

إن الله يتركهم حتى يؤمنوا بانفسهم ، بل ابتدرهم بالهدى الذي بلغ فردا فردا منهم يوم الزينة ، و لم يكتف الله بنذير واحد و هو يكفي حجة عليهم ، إنما جاءهم بنذر كثيرة بينة ، كان من بينها تسع آيات إلى فرعون و قومه ، و لكنهم كما يصفهم القرآن:

]كذبوا بآياتنا كلها[

لا لغموض فيها فقد كانت مبصرة ، بل لمرض في قلوبهم ، ولو أنك بحثت في أعماق نفوسهم لرأيت سلطان الآيات مهيمنا عليها ، و يعلم الله كم تجرعوا من وخز الضمير الذي يدعوهم للايمان وهم يصدون عن الحق المبين . إنهم ما كانوا يقدرون على التكذيب مجردا أمام ذلك الوخز لذلك لجأوا إلى التبرير ، و هذه من طبيعة الانسان حينما يخالف الحق بالرغم من استيقانه به ، " قالوا هذا سحر مبين * و جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم ظلما و علوا " (١) ، فكانوا عند الله يستحقون أشد العذاب ، و كذلك فعل بهم.

]فاخذناهم اخذ عزيز[

لا يقبل الجور على الحق.

(1)النمل / ١٣ - ١٤.

]مقتدر[

لا يشكو ضعفا ولا قصورا ، و هذا ما جعل عذابهم قاسيا ، فمرة يكون العزيز غير مقتدر فهو لا يستطيع أن يحيل عزته فعلا ، و مرة يكون المقتدر غير عزيز فهو لا يغضب لحرمة قيمه ، و إذا أخذ المخالف له فإن أخذه يكون محدودا.

هكذا و بهاتين الآيتين القصيرتين في كلماتهما العميقتين في معناهما يوجز ربنا قصة قوم لا زالت آثارهم

ظاهرة و مثيرة للعجب ، بينما يحتاج الحديث فيها إلى مئات أو آلاف الصفحات ، بل القرآن أراد نفسه تناولها في صفحات و آيات عديدة في مواضع أخرى ، و السبب أنالقرآن أراد من ذلك التأكيد على السنة الواحدة التي أجراها على كل الأمم و في مختلف الأمصار بصور شتى ، لكي نعتبر بها ، و نبصر عواقب التكذيب بالحق أنى كان ، و قد اكتفى السياق بإيجاز قصة فرعون التي فصلها في مختلف السور ، و التي من المفروض أن يعرفها من يتلوا الذكر ، و ذلك عبر آيتين تعكسان إعجاز القرآن البلاغي.

[45 - 43]و من شواهد عاقبة المكذبين في أغوار التاريخ ، ينتقل بنا السياق إلى الحديث عن المجتمع المعاصر للرسالة الاسلامية و موقفهم من الرسالة ، بما هو تأويل لقوله تعالى : " وما هي من الظالمين ببعيد " (١) ، و قوله بلسان رسوله شعيب (ع) : " ويا قوم لا يجر منكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد " (٢) ؟ أن القصة القرآنية لا تأت للتسلية ، إنما لتكشف للانسان عن سنن الحياة من حوله ، فتعطيه تارة إشارة خضراء ترغبه و تشوقه ، و تضع بين يديه إشارة حمراء تنذره و ترهبه تارة أخرى ، و هو

(1)هود / ٨٣.

(2)هود / ٨٩.

بين هذه و تلك يجب ان يشق طريقه نحو الحق و السعادة ، أما إذا تفرج على وقائع التاريخ و مواعظه ، أو استبعد عن نفسه الجزاء بفكرة تبريرية كالعنصرية والفداء ، أو بالاعتماد على غرور النفس و ظنونها و أهوائها ، فسوف يجد نفسه وجها لوجه أما مصير الماضين ممن سبقوه بالتكذيب في الدنيا و الآخرة ، ولن تغير تمنياته و ظنونه من الواقع شيئا ، " ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار " (١. (

كيف يكذب الآخرون بالرسالة و هم يبصرون ما نزل بالغابرين عندما كذبوا بها ؟! إنهم يستبعدون حلول العذاب بهم اعتمادا على واحدة من أمرين:

اولا : الثقافة التبريرية ، و أبرز مفرداتها على صعيد التكذيب بالرسالات العنصرية و نظرية الفداء ، ذلك أن الانسان حينما يكذب حقا ما و يرفضه يبحث داخليا أمام ضميره ، و خارجيا أمام الآخرين ، عن عذر يبرر له موقفه ، و يستمد منه الشرعية لممارسة الخطأ أو الاصرار عليه.

و ربنا ينسف هذه الثقافة فيقول - مخاطبا المعاصرين للاسلام - : لماذا تستثنون أنفسكم من العذاب الذي حل بتلك الأقوام ؟

]اكفاركم خير من أولئكم[

بعنصرهم و أعمالهم حتى لا ينالهم العذاب ؟!

]ام لكم براءة في الزبر[

أم هم يملكون كتابا من عند الله يبرأهم من سوء أعمالهم ؟!

كلا .. فالتكذيب هو التكذيب سواء صدر من أولئك أم منكم ، و السنن الالهية(١) ص / ٢٧

واحدة على مر الزمن لا تتحول ولا تتبدل ، و ليس عند الله قرابة مع خلقه ، و لو كان نبيا مرسلا او ملكا مقربا ، ولا ينفع إلا العمل الصالح ، كما لم تسبق منه كلمة على لسان نبي ولا رسول وفي كتاب من كتبه المنزلة بزكاة أحد ابدا ، حتى يتحصن بها ضد العذاب ، و الضلال الذي عليه كفار المجتمع أيام رسول الله (ص) ليس بأقل من ضلال أولئك ، بل هو أسوء و أبعد.

و إذا كانت ثمة براءة لأحد من كتب الله فهو و رسوله أعلم بها ، و الحال أنهما ينفيانها.

بلى .حاول النصارى تبرير انحرافهم بفكرة الفداء ، و لكنهم اضافوا انحرافا جديدا إلى مسيرتهم الضالة إذ أصبحوا بها كفارا عند الله ، و هكذا زعموا هم و اليهود بأنهم لا يعذبون مهما مارسوا من الذنوب ، لأن عنصرهم يتصل بالله وينتمي إليه ، و لكن القرآن رد عليهم هذه المزاعم ردا عنيفا و حازما ، فقال تعالى : " لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم و أمه و من في الأرض جميعا و لله ملك السماوات و الأرض و ما بينهما يخلق ما يشاء و الله على كلشيء قدير * و قالت اليهود و النصارى نحن أبناء الله و أحباؤه قل فلم يعذبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء و يغذب من يشاء و لله ملك السماوات و الأرض وما بينهما و إليه المصير " (١) و انطلاقا من هذه الثقافة الضالة صاروا يبررون لأنفسهم الخيانة و الغدر و مختلف الذنوب ، فإذا بهم لا يقيمون و زنا لعهودهم و إيمانهم مع الشعوب الأخرى على أساس أنهم أميون ، ولا حرج عليهم إذا نكثوا بهم أو خانوهم : " قالوا ليس علينا في الأميين سبيل " (٢) ، و لكن الله أبطل هذا التبرير فقال : " بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين " (٣. (

(1)المائدة / ١٧ - ١٨.

(2)آل عمران / ٧٥.

(3)آل عمران / ٧٦.

ثانيا : الاغترار بالقوة.

]ام يقولون نحن جميع منتصر[

هل يعرضون عن الآيات ، و يكذبون الحق ، و يتبعون أهواءهم ، ثم يتحدون سنن الحياة ، اعتمادا على جمعهم و قوتهم ؟! وما عسى أن تكون قوتهم و جمعهم بالنسبة إلى الأمم السابقة ؟!

"أولم يعلم (كل واحد منهم) أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا " (١ (، "وكم اهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص (2) " ، ثم " ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم و أرسلنا السماء عليهم مدرارا و جعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم و أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين " (٣. (

و يؤكد الله لأولئك الذين اعتمدوا على عدتهم و عددهم أن المستقبل كفيل بالكشف عن مدى ضلالتهم في الاعتماد عليهما ، حيث يهزمون ، و تبطل تبريراتهم و مزاعمهم بأن العذاب لا يطالهم.

]سيهزم الجمع و يولون الدبر[

و قد رأينا كيف أنزل الله عذابه بهم على أيدي المؤمنين في مواطن كثيرة ، و أظهر رسوله و دينه عليهم بالرغم منهم ، و بالرغم من أنهم كانوا في موقعه كبدر أكثر جمعا و عدة من المسلمين بثلاثة أضعاف أو أكثر!

(1)القصص / ٨٧.

(2)ق / ٣٦.

(3)الانعام / ٦.

[46]و مع ذلك فإن الأدهى من هزيمتهم و عذابهم في الدنيا ما ينالهم من العذاب في الآخرة.

]بل الساعة موعدهم و الساعة ادهى و امر[

إنها أكثر رعبا في مظهر عذابها و أساليبه ، و أعمق ألما و مرارة على أبدانهم و نفوسهم.

و نستلهم من هذه الآية أنه حتى إذا كان عذاب الاستئصال مرفوعا عن أمة محمد)ص) ببركته و دعائه ، فإنه لا ينبغي أن نجعل هذه الفكرة مبررا لنا لاقتحام الذنوب ، فإن من ورائنا الساعة في الآخرة ، و تهددنا في الدنيا ألوان من العذاب التي لا تقل ألما عن الاستئصال ، كالتخلف ، و التفرقة ، و تسلط الظلمة ، و الصراعات الداخلية ، و .. و .. أترى هزيمة الأمة أمام أعدائها في الدنيا أمرا هينا ؟! كلا .. لأنها تفقد بذلك الكثير الكثير.

[48 - 47]و يعود القرآن مؤكدا بأن تلك المزاعم : الأفضلية على الآخرين ، و البراءة من العذاب ، و الاغترار بالنفس ، باطل ، و إنما تدل على مدى ضلال أصحابها و عذابهم.

]ان المجرمين في ضلال و سعر[

و قد سماهم الله بالمجرمين لأن تلك المزاعم لاشك سوف تقودهم الى التوغل في الجريمة ، و السعر قد يكون الجنون أو النار ، و هما من ألوان العذاب التي يؤدي إليها الضلال في الدنيا و الآخرة.

]يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر[

و هنا إشارة إلى نوعين من العذاب : أحدهما المادي حيث يسحبون نكاية بهم ، و السحب وحده يعتبر عذابا للانسان ، فكيف إذا كان على الوجوه أكرم مناطق الجسم ، و اكثرها حساسية ، و في أعظم أودية جهنم عذاب وهو سقر ؟! الذي قال الامام الصادق (ع) عنه : " إن في جهنم لواديا للمتكبرين يقال له سقر ، شكا إلى الله شدة حره ، و سأله أن يتنفس ، فإذن له فأحرق جهنم " (١) " إن في سقر لجبا يقال له هبهب ، كلما كشف غطاء ذلك الجب ضج أهل النار من حره ، وذلك منازل الجبارين " (٢. (

و الآخر العذاب المعنوي الذي يفوق في بعض حالاته عذاب الجسم ، فهناك تتلقاهم زبانية جهنم قائلة : " ذوقوا مس سقر " ، " ذق إنك أنت العزيز الكريم إن هذا ما كنتم به تمترون " (٣. (

و لعلنا نفهم من المس أن النار لا تحرق كل أبدانهم ، بل تحرق جلودهم التي فيها تتركز أعصاب الإحساس عند الإنسان ، مما يجعل العذاب أكثر ألما ، و هذا ما تؤكده الآية الكريمة : " كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب " (٤. (

[49]و هذا العذاب لا شك ليس اعتباطيا وبلا حكمة ، كلا .. فهو كسائر مفردات الوجود مقنن مقدر من قبل الله ، فلو أننا كشف لنا الغطاء لرأينا أن العمل السيء الذي نقوم به هو نفسه الجزاء الذي نلقاه.

]انا كل شيء خلقناه بقدر[

(1)بح / ج ١ / ص ٢٩٤.

(2)المصدر / ص ٢٩٧.

(3)الدخان / ٤٩ - ٥٠.

(4)النساء / ٥٦.

حينما يسأل الامام علي (ع) عن هذه الآية يجيب : " يقول عز وجل : إنا كل شيء خلقناه لأهل النار بقدر أعمالهم " (١) و قال الامام الصادق (ع) : " انها رد على القدرية الذين نفوا تقديرات الله ، و فيهم نزلت هذه الآية : (٢) و قد استدل البعض بهذهالآية على أن أعمال الانسان هي الآخرى مقدرة فزعم أنها تدل على الجبر ، بينما الصحيح أن كل شيء مقدر من قبل الله ، و من تقديراته الاختيار الذي وهبه للانسان.

و الذي يظهر أن الآية تثبت أكثر من أي فكرة أخرى حكمة الله في الحياة ، التي تهدينا معرفتها إلى الايمان بالمسؤولية ، و الدار الآخرة أعظم تجلياتها ، حيث يحاسب الناس على سعيهم ، و يلقون جزاءهم الأوفي خيرا أو شرا ، جنة أو نارا ، يقول السيد قطب في تفسيره(في ظلال القرآن) : (و إن هذا النص القرآني اليسير ليشير الى حقيقة ضخمة هائلة شاملة ، مصداقها هذا الوجود كله ، حقيقة يدركها القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود ، و يتجاوب معه ، و يتلقى عنه ، و يحس أنه خليقة متناسقة تناسقا دقيقا ، كل شيء فيه بقدر يحقق هذاالتناسق المطلق ، الذي ينطبع ظله في القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود) ، و يضرب أمثلة للحكمة الالهية في الخلق فيقول نقلا عن كتاب " الله و العلم الحديث "للاستاذ عبد الرزاق نوفل : (إن الجوارح التي تتغذى بصغار الطيور قليلة العدد ، لأنها قليلةالبيض ، قليلة التفريخ ، فضلا على أنها لا تعيش إلا في مواطن خاصة محدودة ، وهي في مقابل هذا طويلة الأعمار ، ولو كانت مع عمرها الطويل كثيرة الفراخ مستطيعة الحياة في كل موطن لقضت على صغار الطيور ، و أفنتها على كثرتها و كثرة تفريخها ، أو قللت من أعدادها الكبيرة اللازمة بدورها لطعام هذه الجوارح و سواها من بني الانسان ، و للقيام بأدوارها الأخرى و وظائفها الكثيرة في هذه الأرض.

(1)نور الثقلين / ح ٥ / ص ١٨٦.

(2)المصدر / ص ١٨٥.

بغاث الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلات نزورو ذلك للحكمة التي قدرها الله كما رأينا ، كي تتعادل عوامل البقاء و عوامل الفناء بين الجوارح و البغاث. (!

و يستطرد قائلا : (و الذبابة تبيض ملايين البويضات ، و لكنها لا تعيش إلا أسبوعين ، ولو كانت تعيش بضعة أعوام تبيض فيها بهذه النسبة لغطى الذباب وجه الأرض بنتاجه ، و لغدت حياة كثير من الأجناس وأولها الانسان مستحيلة على وجه هذه الارض ، و لكن عجلة التوازن التي لا تختل في يد القدرة التي تدبر هذا الكون أوزنت بين كثرة النسل و قصر العمر فكان هذا الذي نراه!

و الميكروبات - وهي أكثر الأحياء عددا ، و أسرعها تكاثرا ، و أشدها فتكا - هي كذلك اضعف الأحياء مقاومة ، و أقصرها عمرا ، تموت بملايين الملايين من البرد ومن الحر ، ومن الضوء ، و من أحماض المعدات ، و من أمصال الدم ، ومن عوامل أخرى كثيرة ، ولا تتغلب إلاعلى عدد محدود من الحيوان و الانسان ، ولو كانت قوية المقاومة أو طويلة العمر لدمرت الحياة و الأحياء. (!

و يستعرض مثلا من واقع الانسان فيقول : (والثدي يفرز في نهاية الحمل وبدء الوضع سائلا أبيض مائلا الى الاصفرار ، ومن عجيب صنع الله أن هذا السائل عبارة عن مواد كيميائية ذائبة تقي الطفل من عدوى الأمراض ، وفي اليوم الثاني للميلاد يبدأ اللبن في التكوين ،و من تدبير المدبر الأعظم أن يزداد مقدار اللبن الذي يفرزه الثدي يوما بعد يوم ، حتى يصل الى حوالي لتر و نصف في اليوم بعد سنة ، بينما لا تزيد كميته في الأيام الأولى على بضع أوقيات ، ولا يقف الاعجاز عند كمية اللبن التي تزيد حسب زيادة الطفل ، بل إن تركيباللبن كذلك تتغير مكوناته ،

و تتركز مواده ، فهو يكاد يكون ماء به القليل من النشويات و السكريات في أول الأمر ، ثم تتركز مكوناته فتزيد نسبته النشوية و السكرية و الدهنية فترة بعد أخرى ، بل يوما بعد يوم ، بما يوافق أنسجة و أجهزة

الطفل المستمر النمو. (

هكذا قدر الله شؤون الحياة و الخلق ، و هكذا تتجلى حكمته في كل شيء ، و نحن يجب أن نهتدي إلى ما غاب عنا بما نراه و نشاهده ، كما نستدل على وجود التيار الكهربائي بالمصباح و المروحة ، ينبغي أن نهتدي الى الآخرة بالحكمة الربانية الظاهرة في الدنيا ، و حتى في الدنيا نفسها يجب ان نؤمن بالسنن الحاكمة فيها ، و نكيف أنفسنا و فقها ، فالذي يصلي من دون خشوع و إخلاص لا تقبل صلاته ، و الذي يتصدق من دون تقوى تبطل صدقته ، و هكذا الذي يعرض عن آيات الله و يكذب برسالاته و يتبع الهوى فإنه يلقى العذاب في الدنيا و الآخرة، مهما زعم و تمنى بأنه لا يعذب أو أنه قادر على الانتصار على سنن الله في الحياة.

[51 - 50]و فوق تلك الأقدار و السنن تبقى لله المشيئة العليا و الارادة المطلقة يهيمن بها على كل شيء ، و يخرق بها القدر او ينفذه متى شاء في أسرع من طرفة العين ولمح البصر ، فلا يجوز للانسان إذن أن يعبد السنن ، إنما يجب عليه عبادة ربها.

]وما أمرنا ألا واحدة[

سواء كان هذا الأمر مما يختص بشؤون الدنيا أو الآخرة ، و الأشياء كلها تستجيب لأمر الله بمجرد نزوله من عنده دون تردد أو إقناع ، فلا يحتاج تعالى إلى تكرار الأمر ابدا ، و لعل " واحدة " إشارة إلى وحدة زمنية ، كما نقول نحن لحظة أو جزء من الثانية ، بل فوق الزمن إذا نسب الأمر إلى الله ، و حيث لا نستوعب نحن المسافة بين أمر الله و نفاذه ، ولا حتى أضخم الكومبيوترات الحديثة ، فإنه تعالى قربلنا المعنى مشبها بقوله:

]كلمح بالبصر[

أي كما لو أغمض بشر عينه ثم فتحها ليلمح شيئا ما ، و اللمح هو النظرة السريعة الخاطفة ، و لعل تقدير الزمن إنما هو من جانب المخلوق ، فهو بحاجة الى زمن حتى يتحقق فيه أمر الله ، أما جانب الخالق فلا يتصور زمن مديد أو قصير تعالى ربنا عن أوصاف المخلوقين.

نعم في مثل هذا الزمن المحدود ينفذ أمر الله لو أراد إهلاككم أيها الكافرون المكذبون ، دون أن يمنعه مانع ، و التاريخ شاهد على هذه الحقيقة ، و قد قدم القرآن في آياته السابقة قوم نوح و عاد و ثمود و لوط مثلا لها ، ولا زال يؤكد ذلك للكافرين فيقول:

]و لقد اهلكنا اشياعكم[

نظائركم و اشباهكم ، و ربما أراد القرآن بذلك الذين عاصروهم ممن أهلكوا لا الذين من قبلهم و حسب ، و ربنا قادر على أن يفعل بهم ذلك ، و لكنه برحمته و لطفه يقدم النذر على العذاب و التذكرة على الجزاء ، و يدعوهم إلى الايمان ، لأنه خلق البشر ليرحمهم و ليربحوا عليه لا للشقاء و النقمة ، لذلك يهتف بهم كتابه الكريم:

]فهل من مدكر[

وقد كرر ربنا هذا المقطع بعد قوله : " و لقد يسرنا القرآن للذكر " ، فكما يجب على الانسان أن يتعظ بالقرآن و يتذكر بآياته كذلك يجب عليه أن يستنصح التاريخ ، و يعتبر بأمثاله و قصصه ، فإذا وجد نظائره و قد أهلكوا فلا يمني نفسهبالنجاة . أترى لو ذهب شخص إلى الطبيب ، و شخص فيه مرضا مات به آخرون قبله ، أيمن نفسه بالحياة ؟!

[53 - 52]و حينما أهلك أولئك لم ينته حسابهم و جزاؤهم ، بل سجلت أعمالهم ليلاقوا جزاءهم الأوفى في الآخرة.

]و كل شيء فعلوه في الزبر[

أي الكتب " و كل إنسان ألزمناه طائره في عنقه و نخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا * أقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا " (١. (

و قد فسر البعض هذه الآية بما يخدم مذهبه الجبري زاعما أن كل أفعال الانسان مكتوبة سلفا عليه في الزبر ، و هذا التفسير لا يتناسب و السياق ، كما لا يتناسب وما نعرفه من حرية الانسان في حدود قدر الله و قضائه.

و يؤكد القرآن أنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

]وكل صغيرة و كبيرة مستطر[

يجدونه في سطور ذلك الكتاب.

و هاتان الآيتان تهدينا إلى فكرة المسؤولية ، و أن الانسان هو الذي يرسم مستقبله بنفسه من خلال أفعاله صغيرها و كبيرها ، و ما دامت الأعمال لا تذهب إلى الفراغ ، بل تكتب له أو عليه عند الله ، ومادام مستقبله الآخروي الأبدي مرتكز على حياته هنا ، فحري به إذن أن يتحمل الأمانة بصدق و قوة.

(1)الاسراء / ١٣ - ١٤.

[55 - 54]و يختم الله هذه السورة التي تلاحقت فيها النذر المخوفة بالترغيب ، لكي لا ينتهي التخويف الى اليأس ، بل يبقى الانسان متوازنا يتحرك باتجاه الحق بين الخوف من العذاب و رجاء الرضى و الاثابة ، فيحدثنا عن عاقبة المتقين في مقابل عاقبة المكذبين فيقول:

]ان المتقين في جنات و نهر[

أي الأنهار ، وقال بعض المفسرين أنه المكان الواسع ، و هو بعيد ، و قوله " في "يدل على دوام النعيم و خلودهم فيه ، و ذلك مما يميز نعيم الآخرة عن الدنيا المحدودة.

و الى جانب النعم المادية هناك النعم المعنوية ، و أعظمها و أهمها رضى الله عز وجل الذي ينالها المتقون.

]في مقعد صدق[

و يدل المقعد على الدوام و الثبات ، فهم لا يزحزحون عن النعيم ، " لا يصدعون عنها ولا ينزفون " (١) ، كما تدل كلمة " صدق " أنهم استحقوا الجلوس في ذلك المقعد بعملهم و إيمانهم بعد توفيق الله ، فلأن عملهم كان صادقا مخلصا استحقوا مقعد الصدق ، و لكن عند من ؟

]عند مليك مقتدر[

حيث النظر إلى نور الرب ، و هذا بدوره يكمل النعيم ، بل هو النعمة الكبرى ! وما الجنان و النهر و سائر النعم الأخرى إلا مظهر لمقعد الصدق ، و هذان النوعان من(١) الواقعة / ١٩.

النعم (الجنات و النهر ، و حب الله و وجواره) يلبيان تطلعات المؤمن المادية و المعنوية الى اقصاهما.

و المليك هو مالك الأشياء المهيمن عليها ، و لكن قد يوجد من هو أقوى منه ، إلا أن ذلك ينتفي باضافة "

مقتدر " ، و في هاتين الصفتين ضمان للمؤمنين بأن ما يوعدون واقع حاصل ، لأن الذي يعدهم يملك ما وعدهم ، و يقدر على تحقيقه فهو لا يمنعه مانع ، كقدرته على إنزال العذاب بالمكذبين ، بلى . إن المؤمنين يتطلعون إلى نعيم الآخرة ، و لكن طموحهم الأكبر يبقى هو جوار الله و رضاه ، فهذا زين العابدين و سيد الساجدين يناجي ربه : " فقد انقطعت إليك همتي ، و انصرفت نحوك رغبتي ، فأنت لا غيرك مرادي ، و لك لالسواك سهري و سهادي ، و لقاؤك قرة عيني ، و وصلك مني نفسي ، و اليك شوقي ، وفي محبتك ولهي ، و إلى هواك صبابتي ، و رضاك بغيتي ، و رؤيتك حاجتي ، و جوارك طلبي ، و قربك غاية سؤلي ، و في مناجاتك روحي و راحتي ، وعندك دواء علتي ، و شفاء غلتي ، و برد لوعتي ، وكشف كربتي ، فكن أنيسي في وحشتي ، ومغني فاقتي ، و مقبل عثرتي ، و غافر زلتي ، و قابل توبتي ، و مجيب دعوتي ، و ولي عصمتي ، و مغني فاقتي ، ولا تقطعني عنك ، ولا تبعدني منك ، يا نعيمي و جنتي ، ويا دنياي و آخرتي ، يا أرحم الراحمين " (١. (

و نقرأ في دعاء كميل : " يا ولي المؤمنين ، يا غاية آمال العارفين ، يا غياث المستغيثين ، يا حبيب قلوب الصادقين. "

(1)مفاتيح الجنان / مناجاة المريدين.

سورة الرحمن

فضل السورة

- 1في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال : لا تدعوا قراءة سورة " الرحمن " و القيام بها ، فإنها لا تقر في قلوب المنافقين ، و يؤتى بها يوم القيامة في صورة آدمي ، في أحسن صورة ، و أطيب ريح ، حتى تقف من الله موقفالا يكون احد أقرب إلى الله منها ، فيقول لها : من ذا الذي كان يقوم بك في الحياة الدنيا ، و يدمن قراءتك ؟ فتقول : فلان و فلان فتبيض وجوههم ، فيقول لهم : اشفعوا فيمن احببتم ، فيشفعون ، حتى لا يبقى لهم غاية ،ولا أحد يشفعون له ، فيقول لهم : ادخلوا الجنة ، و اسكنوا فيها حيث شئتم. "

تفسير نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٨٧

- 2و بإسناده عن أبي عبد الله (ع) قال : " من قرأ سورة " الرحمن " فقال عند كل "فبأي آلاء ربكما تكذبان " : لا بشيء من آلائك رب أكذب ، فإن قرأ ليلا ثم مات مات شهيدا ، و إن قرأها نهارا ثم مات مات شهيدا. "

المصدر

- 3و عن الصادق - عليه السلام - أنه قال : " من قرأ سورة " الرحمن " ليلا ، يقول عند كل " فبأي آلاء ربكما تكذبان " : لا بشيء من آلائك يا رب أكذب ، و كل الله به ملكا إن قرأها من أول الليل يحفظه حتى يصبح ، و إن قرأها حين يصبح وكل الله به ملكا يحفظه حتى يمسي. "

- 4عن جابر بن عبد الله)رض) قال : لما قرأ رسول الله (ص) سورة " الرحمن " على الناس سكتوا ، فلم يقولوا شيئا ، فقال رسول الله (صلى الله عليه و آله) : " الجن كانوا أحسن جوابا منكم ، لما قرأت عليهم " فبأي آلاء ربكما تكذبان "قالوا : لا ولا بشيء من آلاء ربنا نكذب. "

الاطار العام

لماذا خلق ربنا الغني العزيز هذه الكائنات ؟ أليس لأنه سبحانه الرحمن ؟ آيات رحمته الواسعة تجلت في كل شيء : في هذا الكتاب الذي يهدينا إلى نوره ولولاه لما عرفناه . . في هذا الإنسان الذي أحسن خلقه و أكرمه و علمه البيان ليفضله على كثير ممن خلق ، في الشمسالمضيئة ، و القمر المنير ، في النجم المسخر برحمته ، و في الشجر الساجد لعظمته . في السماء التي رفع سمكها و جعلها سقفا محفوظا . في النظام المحسوب الذي قدره ، و في الميزان الذي وضعه للناس حتى يحكموا العدل بينهم

ولا يطغون...

بلى . سبحات وجهه الكريم تتجلى في آياته . أفلا تتجلى في قلوب عباده ليعرفوه و ليسكنوا إلى رحمته فلا يبتغوا عنه بدلا ؟ ما أعظم خيبة من عاش على شاطىء رحمة الله ظامئا لأنه لم يهتد إليها ؟

هكذا تتواصل آيات سورة الرحمن مذكرة بهذا الإسم المبارك الذي لو انعكسنوره في أفئدتنا غمرها بالسكينة و الأمل ، بالتطلع و التوكل ، بالعطاء و الكرامة.

لماذا اليأس و ربنا الرحمن ؟

لماذا الإنغلاق و خالقنا الرحمن ؟

أفلم يجعل الأرض للأنام ، فيها فاكهة و النخل ذات الأكمام ، فلماذا التكذيب بآلاء ربنا و الكفر بنعمه ؟ (ومن التكذيب : تحريم الطيبات على أنفسنا بعد أن خلقها لنا ، و من الكفر : القنوط من روحه ، و الإنطواء على أنفسنا يائسين. (

خلق الله الإنسان هذا العالم الكبير ابتداءا من صلصال كالفخار (أوليس بقادر على أن يبعثه مقاما محمودا ليكون أكرم من خلقه ، فلماذا اليأس و التكذيب ؟. (

و خلق الجان من مارج من نار فبأي آلاء الرب يكذب الجن و الإنس ؟

و يبصرنا السياق بتجليات رحمة الله في اختلاف الفصول بحساب دقيق ، و بحركة المياه عبر نظام قاهر يفصل بين الفرات و الأجاج ، و إذا باللؤللؤ و المرجان يستخرجان منهما ، و أجرى فيهما السفن الكبيرة بتقدير حكيم ، فأنى يكذبون بآياته ؟

و بعد أن يشير إلى أن الثقة ليست بنظام الخليقة لأنها فانية ، بل بخالقها لأن وجهه الكريم باق لا يفنى ، يعود و يذكرنا بأن خزائن رحمته لا تنفذ ، و منها يسأل من في السموات و الأرض فلنسئله أيضا . لماذا نكذب و نخسر عطاءه ؟

إن التكذيب بآيات الله و نعمائه ليس فقط خيبة أمل في الدنيا ، بل خسارة عظمى في الآخرة ، و هكذا تنذرنا الآيات من عاقبة التكذيب يوم الحساب العظيم فأنى يمكن أن نهرب من حكومته ؟ هب أننا نفذنا من أقطار السموات و الأرضفهل ننفذ إلا بسلطان منه ؟ أفلا نحسب حساب شواظ النار و النحاس ، فهل نقدر على مقاومتها ؟ فلماذا إذا التكذيب بآلاء ربنا الغني العزيز ؟ فيوم تنشق السماء و تتحول حمراء كأنها وردة أنى يمكن التكذيب بآلاء الرحمن ؟

يومئذ لا داعي للسؤال عن المجرمين . أو ليسوا معروفين بسيماهم ؟ فيؤخذ بالنواص و الأقدام و يلقى بهم في نار جهنم التي كذبوا بها (حينما كذبوا بالحساب و كذبوا بآلاء الله . (

تعالوا نؤمن بربنا المقتدر الجبار و نخشاه حتى يرزقنا الجنة ، فلمن خاف مقام ربه جنتان ذواتا ظلال وارفة ، و عيون جارية ، و فواكه متنوعة ، و أسرة موضونة عليها الحرير و الإستبرق ... هنالك تجد قاصرات الطرف من الحور الطاهرات كأنهن الياقوت و المرجان ، بلى. ذلك جزاء إحسانهم ، و أقل منهم بدرجة جنتان ملتفة الأغصان ، تتفجر فيهما عينان ، فيهما من أنواع الثمار ، كما فيهما الخيرات الحسان من النساء حور محفوظات في الخيام لم تصل إليهن يد إنس ولا جان .. هنالك يستريح الصالحون على رفوف خضر و عبقري حسان .. كل هذهالنعم التي يبشر بها القرآن لماذا التكذيب بها بعدم السعي إليها ؟ تبارك اسم ربك ذي الجلال و الإكرام.

الرحمن علم القرآن

هدى من الآيات

إن أهم حكمة وراء خلق الانسان و الكائنات أن يتعرف الرب لخلقه في كل شيء حتى لا يجهلوه في شيء فيعبدونه حق عبادته ، ولا ينظرون إلى شيء إلا و يرونه قبله و معه و بعده ، لقد كان سبحانه و

تعالى كنزا مخفيا فأراد أن يعرف فخلق الخلق (١) ، لا لحاجة منه إليهم ،بل لحاجة منهم إليه ، و لا ليربح عليهم ، بل ليربحوا عليه.

و هكذا فان السمة البارزة في الخليقة هي رحمة الله ، و إن طبيعة الخلق الأولى للانسان قبل أن تدنس من المخلوقين أنفسهم لهي طبيعة إيجابية حميدة ، و إن فطرته ليست نابية ولا معادية . إنه يتفكر في نفسه فيراها غارقة في محيط من النعم و الآلاء ، خلقه رحمة ، وتعليمه و بيانه نعمة أيضا ، ثم يجول بفكره في العالم من حوله فيرى(١ (محتوى حديث قدسي معروف.

الشمس و القمر ، و النجوم و الشجر ، و السماء ، و الميزان ، و هكذا الأرض و ما تحتويه كلها نعم ، و كلها خلقت ولا زالت تؤدي دورها ضمن نظام محكم في صالحه .. لذلك تجد سلوكه تجاه الخلق سلوكا وديعا نابعا من حبه له ، فهو يأبى أن يسلب نملة جلب شعيرة ، و إذامشى على الأرض وطأها برفق و هون.

بينات من الآيات

] [1]الرحمن[

هكذا .تأتي هذه الكلمة و حدها آية قرآنية ، و لعلها أقصر آية بعد الحروف المقطعة ، و لكنها من حيث المعنى تشكل محورا في السورة بتمامها ، يتصل بآية آية فيها ، و يعكس ظله على كلماتها ، و حينما تنطلق من هذه السورة المباركة إلى العالم الواسع تجد هذا الاسمالالهي منبسطا على كل مفردة فيه ، لأنه تعالى كتب الحياة بلغة الرحمة و اللطف ، و لك ان تتصور كم ينبغي أن يكون الانسان ضالا و مجردا عن أي إحساس حتى يكون جاهلا بربه و برحمته ، بل جاحدا بآلائه ، حتى يتساءل بصلافة : " وما الرحمن " ؟ ! (١) إنه لا شك أقل قدرا و وعيا من البهيمة ، لأنها تعي رحمة ربها ، و تؤمن به بقدر شعورها ، بينما الانسان و قد أعطاه الله العقل و لكنه لا ينتفع به ! و صدق عز وجل حين قال عنهم : " أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا " (٢.(

[2]إذا تعال معا نستمع الوحي وهو يعرفنا جانبا من رحمة الله ، و يهدينا إلى تجليات إسم الرحمن في الخلق وفي أنفسنا قبل ذلك.

]علم القرآن[

(1)الفرقان / ١٠.

(2)الفرقان / ٤٤.

إن للرحمة الالهية درجات ، و لكن أعظمها بالنسبة للانسان الهدى المتمثل في القرآن ، فالخلق بحد ذاته رحمة و هي تسبق تعليم القرآن ، إلا أن ذكره ياتي متأخرا ، ذلك أن الهدى هو الهدف من الخلق ، و لو لم يهد الله عباده إليه تكون الحكمة من وجودهم و إيجادهمقد انعدمت . أو لم يقل ربنا سبحانه " : وما خلقت الجن و الانس إلا ليعبدون " ؟.

و القرآن يهدي البشر إلى معرفة ربه ، و لأنه لا يمكنه ذلك إذا كانت بينه و بين الله حجب الغفلة و الجهل و الذنوب ، فان القرآن يزكيه حتى يتجاوز تلك الحجب ، وحتى شرائع الدين تهدف في النهاية تمهيد السبيل إلى معرفة الرب . كيف ؟ لأنه لا يقدر الانسان على معرفة الرب مادام يعيش في مجتمع فاسد منحرف عن سنن الحق لا يني يعتصره حتى يكون متوافقا معه ، فكيف يتخلص من ضغوطه ، و يتحدى فساده ؟ هذا ما تضمنه تعاليم الدين ، و كيف يبني مجتمعا فاضلا بديلا عنه ؟ هذا ما تفصله أحكامه القيمة ، و بالتالي كيف يتجنب عوامل الخطيئة حتى يعرف الله ؟ هذا ما يتكفل به القرآن بهداه و بيناته ، ببصائره و مفصلاته ، بأحكامه و شرائعه ؟ إنه يحقق بكل ذلك الحكمة من خلق الانسان ألا وهي معرفة الله ، التي هي بدورها تجل لرحمانيته تعالى ؟ أليست معرفته عين الكمال ، و محض النعمة ، و وسيلة

الزلفى، و سبب تسخير الخليقة ؟؟

و السؤال : كيف علم الله القرآن للانسان ؟

أولا : بأن علمه رسوله (ص) وهو علمه للبشرية تبليغا و بيانا.

ثانيا :بأن القرآن تعبير صريح عن الحقائق التي أودعها الله في فطرة كل بشر ، مما يجعل إيداعها بمثابة تعليم القرآن نفسه ، مما يجعل دوره بالنسبة للحقائق دور المذكر بما ينطوي عليه و جدان الانسان.

و يبدو أن حذف : مفعول التعليم الثاني فلم يفصح عمن علم القرآن كان لحكمة بالغة هي : إن جعل القرآن علما بحيث ينتفع به كل من شاء هو المناسب لرحمانية الله ، كما قال ربنا سبحانه : " ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر. "

[4 - 3]و حينما نوجه نظرنا صوب الانسان نفسه نراه بكله مظهرا لرحمة الله . إنه لم يكن شيئا ، فأوجده الله من غير استحقاق منه ، و من دون أي جبر أو اضطرار ، إلا رحمة منه عز وجل.

]خلق الإنسان[

و كفى بخلق الانسان دليلا على رحمته . ألا تراه عالما كبيرا بذاته ، تماوجت في كيانه بلايين النعم التي لو فقد واحدة منها انتقصت الرحمة ؟

بيد أن أعظم ما في الانسان قلبه (مخه و عقله) ، ذلك أن الله خلق الانسان في أحسن تقويم ، و فضله على كثير من خلقه ، ثم أكمل خلقه بالعقل ، و أكمل العقل بالقرآن ، و أكمل كل ذلك بنعمة البيان ، الذي يقوم بدور تواصل المعلومات و تناقل الخبرات من إنسان لآخر، و من أمة لأخرى ، و من جيل إلى جيل ، ولولا هذه الميزة لما كانت حضارة ، و كان البشر و سائر الأحياء سواءا ، فحياة الهرة قبل مليون سنة هي حياتها الآن ، لأن كل فرد من هذا الجنس يعيش في حدود غرائزه أو تجاربه الذاتية ، بينما تنمو حضارة البشر بتواصل التجارب و المعلومات و تراكمها ، و هذا كله مرتكز على البيان ، وما كان قادرا عليه لولا فضل الله و رحمته إذ تلطف عليه به.

]علمه البيان[

و هذه النعمة هي الأخرى مظهر لاسم الرحمن ، و آية هادية إليه ، و ما يجب على الانسان هو الاعتراف بهذه الآلاء ، و أداء شكرها ، و لكنك تراه بدل ذلك يمارسالخطيئة بتلك النعم ، فاذا به يسخر البيان من أجل الباطل.

[6 - 5]و من الحديث عن آثار رحمة الله في كيان الانسان تنقلنا الآيات إلى آفاق العالم لعلنا نرى فيها تجليات اسم الرحمن ، هكذا يوصل القرآن الحديث عن الانسان و الكون لكي يخرجنا من قوقعة الذات الى الآفاق الواسعة ، لكي يؤكد لنا بان الكائنات جميعا خاضعةلله ، حيث يؤدي كل شيء دوره و هدفه من الخلق بالتزامه بالنظام الذي رسمه الله له . أنظر الى الشمس تجدها تتحرك بدقة متناهية جدا ، و بتناسق رائع مع حركة القمر ، " لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون " (١) . إذن فأي خروج من قبل الانسان عن حدود الله هو شذوذ و شقاق و ضلال وتيه.

]الشمس و القمر بحسبان[

لقد خلق الله الخلق متناسقا يكمل بعضه بعضا ، فلولا الانسان ما خلق الله الشمس و القمر و النجوم ، و الشجر ، و السماء و الأرض وما فيهما ، ولولا هذه الأشياء ما كان للانسان أن يجد سبيلا للحياة .. و الشمس و القمر لهما آثار مباشرة في حياة الانسان ، بل في الحياة على كوكبنا كله ، فالشمس توفر لنا الضوء ، و لها صلة ماسة بالنباتات على الأرض ، و هكذا يؤثر القمر في بحار الأرض و محيطاتها ، و فوائد اخرى لها لايزال العلم الحديث يحث الخطى لاكتشافها ، و لكن تبقى أعظم فائدة لهما و لكل

شيء أنهما آيتان تهديانا إلى الله ، و نلمس هذا الهدى بصورة أجلى و أفضل بالاطلاع على دقة النظام الذي يتحكم فيهما.

فلو أن الشمس اقتربت إلى الارض او ابتعدت عنها أكثر ، أو تبدل نظامها في الغروب و الشروق ، أو تصاعدت حرارتها أو انخفضت ، لأصبحت الحياة صعبة أو(١) يس / ٤٠

مستحيلة .. و كذلك القمر فاذا رأيناه يحمل ملايين الأطنان من مياه البحر فانه لاشك يؤثر في مخ الانسان الذي يشكل الماء حوالي ٧٠% منه.

]و النجم و الشجر يسجدان[

قال بعض المفسرين : إن النجم هو النباتات الصغيرة ، و الشجر هي النباتات الكبيرة ذات الساق ، و ذلك ليوجدوا ارتباطا بين الإثنين ، و الذي يبدو من ظاهر الآية أنها لا تحتاج إلى هكذا تأويل ، فالنجم هو الذي في السماء ، و الشجر هو الشجر الذي نعرفه ، و ربما الهدف من ذكرهما معا بيان العلاقة بين أبعد الأشِياء عنا و أقربها إلينا في الطبيعة ، فهي وإن كانت في نظرنا جوامد إلا أنها تملك قدرا من الوعي و الإحساس يدعوها لعبادة ربها " وإن من شيء إلا يسبح بحمده و لكن لا تفقهون تسبيحهم " (١. (

و حيث يدل السجود على غاية الخضوع و العبودية ، فإن سجود النجوم و الشجر يتجلى في خضوعها لسنن الله المرتبطة بها ، فإنك لا تجد نجمة تنحرف عن مسارها ، و لا شجرة تنبت غير ثمرها.

ولا ريب أنهما مظهر لرحمة الله بالإنسان ، فللنجوم علاقة و ثيقة بتنظيم هيكلية الجاذبية في هذا الفضاء الرحب ، ثم انها تؤثر بأشعتها على الأرض وعلى الكائنات فيها ، حتى قيل بأن كل مادة في جسم الإنسان تستمد قدرا من وجودها و كيانها - بلطف الله - من الأشعةالمبثوثة في الفضاء ، و العلاقة بين النجوم و الشجر ليست علاقة علمية و حسب ، بل ان الزراع و الفلاحين يستدلون بها على ميعاد زراعة الأنواع المختلفة من النبات ، و أوقات اللقاح و التشذيب و ما إلى ذلك . إذن فلا ينبغي أن(١) الاسراء / ٤٤.

نتصور بان تلك النجوم التي تفصلنا عنها ملايين السنين الضوئية لا علاقة لها بنا ، كلا .. وهذا يفسر الحديث القدسي : " خلقت الأشياء لأجلك و خلقتك لأجلي " الذي يشير إلى العلاقة بين كل شيء و بين الإنسان ، و قد قدم ربنا الإشارة الى خلق الإنسانعلى الحديث عن الكون لأنه الهدف.

[9 - 7]ثم أن السورة المباركة تذكرنا بتجل آخر لإسم الرحمن في نعمة السلام و الأمن ، سواء كان أمن وجود الإنسان أو أمن حقوقه ، فالسماء رفعت كي تحافظ بطبقاتها على وجوده ، فهي تمنع عنا النيازك و الشهب الساقطة ، كما يمتص الغلاف الجوي الأشعة الضارة أن تصل إلينا ، و يخفف من الأشعة الأخرى التي من شأنها لو وصلت إلينا بصورة مركزة الإضرار بنا أيضا ، و هكذا .. و كما ضمن الله حياتنا بالسماء ضمن برحمته الحقوق للإنسان عندما وضع الميزان.

]و السماء رفعها و وضع الميزان[

الحياة كلها من النبتة الصغيرة حتى الشجرة الكبيرة ، و من الذرة المتناهية في الصغر حتى المجرة المتناهية في السعة و الضخامة ، و فيما بينها الإنسان و الشمس و القمر ، كل ذلك يتجلى فيه التدبير اللطيف و النظام الدقيق ، حتى قالوا أن الحياة كتبت بلغة رياضية، و لذلك فإنها تنعكس في ضمير الإنسان وفي رسالات الله بصورة موازين و قيم . أليس الفكر مرآة صافية ؟ أو لا تعكس هذه المرآة ذلك النظم الدقيق ، و التدبير الحسن ؟ بلى . و كذلك الوحي يذكرنا بالعقل ، و يفصح عن تلك الموازين الحق التي انبثت في الخليقة.

فالإنسان يعرف الخير من الشر ، و الحسن من القبيح ، بل و يزن أيضا أي الشرين أهون و أي الحسنيين أفضل ، كما أنه يتمتع بحس جمالي . ألا تراه كيف يميز بين لوحة و أخرى ، ووجه و آخر ، كما أنه بحواسه

يفرق بين الأحجام ، و الألوان ،و المسافات ، و الأصوات . هل فكرت كيف يميز الإنسان بأذنه بين الأصوات المختلفة ، يقيس - مثلا - صوتين متقاربين لأخوين ، بل صوت الإنسان الواحد في حالتين أو مرحلتين ، حينما يستيقظ من نومه ، و حينما يكون مريضا .. ولو أنك قارنت بين أكثر المسجلات تطورا و بينالأذن ، أو بين المصورات المتقدمة و بين العين ، لوجدت حواس الإنسان تتميز بدقة الموازين ، و هذه الموازين عكسها الإنسان في صور محسوسة ، فصنع للثقل ما يسمى بالميزان ، و للمسافات المتر و الذراع وما إلى ذلك ، و للزمن الساعة ، و للحرارة و الرطوبة مقياسا آخر، كما وضع قوانين و أنظمة تجسد موازين العدل و الأخلاق و القيم و الأعراف . إذن ربنا هو الذي خلق الموازين في الطبيعة ، إذ خلق كل شيء بحسبان و قدر ، ضمن زمن ، و حجم ، ولون ، و شدة ، و ضعف ، و عدد من الموازين الأخرى ، و عكس ذلك في ضمير الإنسان و حواسه و عقله.

و هناك علاقة بين رفع السماء و وضع الميزان في الآية الكريمة ، فالسماء رفعت بالميزان و من أجل الميزان (القوانين و الأنظمة الخاصة بها) ، ولولاها لكانت تقع على الأرض ، و هكذا كل شيء في الحياة ، فحياة الإنسان تستحيل عذابا لو لم يلتزم بالميزان ، لذلكيؤكد ربنا مباشرة بعد هذه الآية و بآية أخرى على ضرورة احترامه و إقامته.

إن الله وضع الميزان في الطبيعة ، و لكن رحمته لا تتجلى فيها فقط بل على يد الإنسان أيضا ، فهو بحكم حريته قد ينغص صفو الأمن على نفسه و يفسد السلام ، كما أنه يستطيع أن يساهم في جلب السلام و السعادة إليها لتتجلى رحمانية الله على يديه ، و ذلك إذا لم يطغفي الميزان و أقامه بحق ، فلم يسرف في الأكل و الشرب ، ولم يبذر في الصرف ، و لم يستهلك أكثر مما ينتج ، و لم ينم أكثر من حاجته ، بل أقام الوزن في جوانب حياته الشخصية و الإجتماعية.

]ألا تطغوا في الميزان[

و الطغيان هو إخسار الميزان بصورة فظيعة ظاهرة ، و ربنا ينهانا عن ذلك ، و يلحق بالنهي دعوة إلى إقامة الوزن باحترامه و الإلتزام الدقيق به ، و بأفضل صور العدل و هو القسط.

]و أقيموا الوزن بالقسط[

وهو أقرب الى التقوى حتى من العدل ، ذلك أن القسط ليس مجرد العدل ، بل العدل باضافة الإحتياط الذي يضمن حصوله بالفعل ، فمثلا إذا كنت صاحب محل تزن للناس تعادل ما تبيع بالوزن المطلوب ثم تضيف إليه شيئا ، وإذا كنت تشتري تنقص ما تشتريه عن الوزن المتفق بينكو بين البائع ، و ذلك للتأكيد من فراغ الذمة في الحالتين . هذا هو القسط ، و كم تكون البشرية سعيدة لو عملت بهذه القاعدة.

و الإقامة هي الإلتزام بالشيء و أداؤه على أحسن وجه ، و إقامة الوزن تكون في أفضل صورها عند العمل بالقسط.

و ربنا لا ينهى عن إخسار الميزان بصورة ظاهرة و فظيعة ، بل و ينهى حتى عن مخالفته بصورة بسيطة ، أو خفية باستغلال غفلة الناس و ثقتهم ، أو بالإحتيال على القانون ، فيقول:

]ولا تخسروا في الميزان[

و العمل بالقسط يضمن من جانب تحقق العدالة ، و من جانب آخر يجنب الإنسان مخالفة الحق و النظام ، و السؤال : كيف يخسر الإنسان الميزان ؟

من المفاهيم الحضارية بل من الإنجازات الهامة في عالمنا اليوم وحدة الموازين ،)الكيلو غرام ، الكيلو متر مثلا ، و كذلك المقاييس و الوزان الأخرى) و هذه يتفق عليها الناس ، و يعتمدونها في معاملاتهم ، و لعل هذا من أبرز معاني إقامة الميزان و احترامه و عدم التلاعب به ن بان يعتبر البعض الكيلو 900غراما ، و البعض الآخر ١٠٠ غراما ، فذلك يفقد البشرية إنجازا حضاريا ، و يفسح المجال للمزيد من الظلم و التلاعب بالحقوق ، بل إن إقامة الوزن) الهدف) لا يتحقق إلا بالميزان ، و إخساره تضييع لهذا الهدف.

و كلمة " الميزان " واسعة تشتمل على كثير من المضامين ، فالعقل ميزان ، و القرآن ميزان ، و العهد ميزان ، وما تتفق عليه التنظيمات في اجتماعها إلى بعضها ميزان ، ولا يصح لأحد أن يخرج عليه مهما كان مخالفا لمصالحه الشخصية ، و لكن أظهر معاني الميزان هو القيادة الرسالية ، بأقوالها و أفعالها و آرائها باعتبار قربها من القيم فهما وتطبيقا ، قال الإمام الرضا (ع) : " و الميزان أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) نصبه لخلقه ، قال الراوي : قلت :الا تطغوا في الميزان ؟ قال : لا تعصوا الإمام ، قلت: و أقيموا الوزن بالقسط ؟ قال : و أقيموا الإمام بالعدل ، قلت : ولا تخسروا الميزان ؟ قال : لا تبخسوا الإمام حقه ولا تظلموه " (١) و القرآن يضرب لنا مثلا لإخسار الميزان في الحقل الإجتماعي و الإقتصادي فيقول متوعدا : " و يل للمطففين * الذين إذا اكتالوا علىالناس يستوفون * و إذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون " (٢) و التطفيف كما يظهر من الآية يناقض بالضبط إقامة الوزن بالقسط.

[10]و الأرض هي الأخرى تجل لرحمة الله الشاملة ، حيث خلقها و وفر فيها عوامل الحياة التي من شأنها أن تجعل عيش الإنسان عليها ممكنا بل طيبا ، كالجاذبية و الأكسجين و الماء و مختلف أنواع الأكل ، و كذلك وفر فيها الضوء و الحرارة(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٨٨.

(2)المطففين / ١ - ٣.

بقدر حاجة البشر.

]و الأرض و ضعها للأنام[

و القرآن يشير إلى معنى الوضع هنا في آية أخرى إذ يقول : " الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون " (١) ولولا رحمة الله و تمهيده الأرض لنا لاستحال عيشنا على هذا الكوكب كما هو مستحيل على الأجرام الأخرى كالشمس و الزهرة و غيرهما ، وفي الآية فكرتان حضارية و شرعية نستفيدهما من كلمة " وضعها: "

الأولى : أن الله سخر الأرض عمليا للإنسان ، و أعطاه الوسائل و القدرات العلمية و المادية يسميها القرآن " سبلا " للانتفاع بها و الهيمنة عليها من قمم الجبال الشاهقة إلى قعر المحيطات ، فعليه أن يسعى لتسخيرها في مصلحته ، و أي بقعة لم يسخرها الإنسان من الأرض ، أو أي فرصة أو طاقة فإنما ظلم نفسه ، و ألحق بها خسارة و غراما ، و التبصر بهذه الحقيقة يزيل عن البشر الإنطواء و التردد و الخشية من التقدم ، و هكذا تحرض هذه الحقيقة الإنسان نحو المزيد من التقدم ، و تفتح له آفاقا واسعة.

الثانية : ثم أن الآية تهدينا شرعا إلى أن الإباحة هي الأصل في النعم حتى يدل الدليل على الحرمة ، كما قال الله عز وجل : قل من حرم زينة اله التي أخرج لعباده و الطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة " (٢. (

و لعل النصوص الشرعية لا تدل فقط على إباحة كل شيء للإنسان (إلا ما اقيمت الحجة على حرمته) ، بل و ايضا على ضرورة الإنتفاع بما في الأرض ، مما(١) الزخرف . 10 /

(2)الأعراف / ٣٢.

يدل على أن تحريم الطيبات و الجمود و الإنغلاق نوع من السفه بل من الظلم للنفس.

قال تعالى : " هو أنشأكم من الأرض و استعمركم فيها " (١) و قال الإمام علي (ع " : (إتقوا الله في عبادة و بلاده ، فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع و البهائم (2) "وفي احتجاجه على عاصم بن زياد حين لبس العباء ، و ترك الملاء (أي تصوف فتخلىعن الدنيا و اعتزل الناس) و شكاه أخوه الربيع بن زياد إلى أمير المؤمنين (ع) أنه قد غم أهله ، و احزن ولده بذلك ، فقال أمير المؤمنين (ع " : (علي بعاصم بن زياد

" ، فجيء به فلما رآه عبس في وجهه فقال له : " أما استحيت من أهلك ؟ أما رحمت ولدك ؟ " ثم دعاه إلى عمارة الأرض و الإنتفاع بالطيبات فيها قائلا : " أترى الله أحل لك الطيبات و هو يكره أخذك منها ؟ ! أنت أهون على الله من ذلك . اوليس الله يقول : " والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة و النخل ذات الأكمام " ؟! إلى أن قال : " فبالله لابتذال نعم الله بالفعال أحب إليه من ابتذالها بالمقال ، و قد قال عز وجل : " و أما بنعمة ربك فحدث " فقال عاصم : يا أمير المؤمنين فعلى ما اقتصرت في مطعمك على الجشوبة ، وفي ملبسك على الخشونة ؟! فقال : " ويحك ! إن الله عز وجل فرض على أئمة العدل ان يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره. (3) "

إذن لست النعم والإمكانات في الأرض مباحة للإنسان فقط ، بل ينبغي له أن يسعى لتسخيرها و الإنتفاع بها أيضا.

[12 - 11]ثم أن القرآن يذكرنا ببعض النعم التي مهد الله بها العيش على الأرض ، و التي هي مظهر لإسم الرحمن أيضا ، و يبدأها بالفاكهة وهي ذات فائدة(١) هود / ١١.

(2)ههج / ح ١٦٧.

(3)نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٨٩ - و تتمته ص ١٩١.

و نفع للجسم بما تحتوية من فيتامينات و مواد اخرى.

]فيها فاكهة[

و يبدو أن تقديم ذكرها على النخل النعمة الوسط ، و على الحب المأكول الرئيسي للإنسان ، لأنها كمال نعمة الخلق و كمال نعم المائدة ، و هذا يتناسب مع سياق هذه السورة التي جاءت لبيان تجليات رحمة الله أن تشير إلى النعمة ابتداء من أكمل النعم ، ولا شك أن رحمةالله أكثر تجليا في المائدة ذات الفاكهة من الأخرى التي لا فاكهة فيها.

]و النخل ذات الأكمام[

و هي كذلك مظهر لرحمة الله ، و لعلنا نقترب أكثر إلى مهم هذه الحقيقة إذا رجعنا إلى الوراء في التاريخ بذاكرتنا ، و تعرفنا على أهمية النخل و دورها بالنسبة للإإنسان آنذاك ، إنه يستفيد منها حتى النخاع ، من النواة التي يقدمها مع العلف للحيوان ، إلى جذعهاو خوصها و كل شيء فيها ، فبكربها يوقد النار للطبخ و التدفئة ، و بسعفها وجذوعها يبني بيته ، ومن ثمرها ياكل طيلة السنة.

و لكن القرآن يلفت انتباهنا إلى أكمام النخل ، لأن ما تحتويه من الثمر هو أهم النعم بالنسبة للإنسان . إنه يستطيع العيش من دون بيت السعف ، و من دون التدفئة بالنار أيضا ، و لكنه لا يعيش من دون الأكل ، والأكمام هي التي تحفظ الثمر من الآفات و السموم ، بلو تقوم بدور أساسي جدا في تكوينه ، لأنها تشبه الرحم الذي يتكون فيها الجنين ، و القرآن في آية منه يوجهنا إلى هذا الدور عندما يلحق ذكر الأكمام التي تحمل بالثمر ثم تلده بانشقاقها بذكر المرأة حينما تحمل و تلد ، قال تعالى : " وما تخرج من ثمرات من أكمامها و ما تحمل من أنثى ولا تضع

إلا بعلمه " (١ (، ولولاها لانعدم الثمر ، و انقرض النخل بمرور الزمن حين تتوقف دورته الحياتية . إذا فهي أظهر لرحمة الله من كل شيء في النخل.

و كما النخل كذلك مختلف الحبوب كالحنطة و الأرز و ا لشعير حيث يتجلى فيها إسم الرحمن ، فهي ذاتها ينتفع بها الإنسان غذاء يحتوي على ما يحتاجه ، كما يستفيد من حطامها كالأعواد و القشرة و الورق بعد الحصاد و قبله في أغراض عديدة كالبناء ، كما يقدمها علفا للحيوان ، و هو عصف الحب.

]و الحب ذو العصف[

قال الراغب : (العصف و العصيفة الذي يعصف من الزرع ، و يقال لحطام النبت المتكسر عصف ، قال : (و الحب ذو العصف ، كعصف مأكلول ، ريح عاصف. ("

]و الريحان[

الرائحة الطيبة الزكية ، و سمي به نوع من الورد ، و يقال لكل نبات طيب الرائحة (٣ (، فتلك نعمة تلبي الحاجات المادية للإنسان ، و هذه تلبي حاجة معنوية بشمها ، و إضافة طيبها إلى الأكل و الشراب ليضفي عليهما نكهة خاصة.

[13]هكذا تحيط نعم الله و آياته بنا ، و أخرى كثيرة يتعرض السياق لذكرها فيما بعد ، و لكنه قبل ذلك يستوقفنا بآية محورية في السورة ليطرح علينا من خلالها أهم سؤال يجب طرحه على أنفسنا و نحن نرى آلاء الله.

(1)فصلت / ٤٧.

(2)مفردات الراغب الاصفهاني / مادة) : عصف. (

(3)المنجد.

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

إنها من الكثرة و الوضوح بما لا يجد أحد سبيلا لأنكارها ، لنقف ساعة تفكر . كم هي نعم الله علينا ؟ كل ذرة في كياننا وفي المحيط من حولنا هي نعمة من الله ، و كل لحظة نمارس فيها الحياة هي الأخرى نعمة . ولو أننا صيرنا أغصان الشجر أقلاما و الورق كتبا ، و البحار مدادا ، فإننا لا نزال عاجزين عن إحصائها ، و ربنا إذ يكرر هذه الآية الكريمة بعد كل مقطع يشتمل على ذكر لشيء من آلائه ، فإنما ليؤكد لنا بان ما ذكر هو شيء بسيط من النعم الكثيرة ، كما في قوله عز وجل : " الله الذي خلق السموات و الارض و أنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم و سخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره و سخر لكم الأنهار * و سخر لكم الشمس و القمر دائبين و سخر لكم الليل و النهار * و آتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار " (١. (

بلى . إن نعم الله جاءت لكي تلبي حاجات الإنسان المادية و المعنوية ، و لكن هدفها الأعظم أن يهتدي بها إلى المزيد من المعرفة بربه ، و ربنا في سورة النحل يقول وقد تعرض لذكر جانب من نعمه في (١٥) آية : " و ألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم و أنهارا و سبلا لعلكم تهتدون * و علامات و بالنجم هم يهتدون * أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون * و إن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم. "

إذا فالأهم من الأهتداء بالسبل في الأرض و بالنجوم إلى معرفة الطرق و الوصول إلى الأهداف المحدودة ، و الأهم من معرفة عدد النعم ، أن يهتدي الإنسان بذلك كله إلى ربه عز وجل . و كمن يكون البشر ظلوما و جهولا إذا أشرك بربه أو كفر به وهو(١) ابراهيم / ٣٢ - ٣٤.

في هذه البحبوحة من النعم ؟!! ولك أن تدرك مدى ضلال أولئك الذين انكروا على الله أظهر أسمائه إذ " قالوا وما الرحمن " ؟!! و أنا و أنت قد لا نقول ذلك ، ولا نكذب بآلاء الله بألسنتنا ، و لكننا كثيرا ما نكذب بها بأعمالنا و سلوكنا ، و بغفلتنا عن الشكر.

الخليقة كلها تجليات لرحمة الله ، فهي وجهه " و لله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم " (٢) ، و لكن الإنسان حينما يضل ليس فقط لا يهتدي بالآثار إلى معرفة رحمة ربه و شكره ،

بل و يتخذ النعم مطية للمزيد من التكذيب ، فإذا أصبح غنيا و وجب عليه الشكر تراه يبطر معيشته ، و يزداد ترفا و فسادا في الأرض ، أو حين يمن عليه بالملك تراه يستعلي على الناس و يطغى و يستبد ، و لعلنا نجد إشارة إلى ذلك عند قوله " فبأي آلاء " إذا اعتبرنا الباء سببية.

إن الحياة و هي وجه الله بكل مفرداتها السلبية و الإيجابية تدعونا إلى الايمان بالله ، و التصديق بآياته ، و التسليم بالطاعة لأوامره ، فما هو تبريرنا و نحن نكذب بآلائه ؟! لماذا ندخل في سجن ذواتنا أكثر فأكثر عند كل نعمة ، بدل أن ننطلق منها إلى آفاق الإيمان بربنا و ربها عز وجل ؟"! إننا عوض ذلك يجب أن نقول كلما تذكرنا النعمة ، و كلما انتفعنا بها ، بل و كلما قرأنا آية تذكرنا بآلاء ربنا ، و من بينها و أهمها الآية الكريمة " فبأي آلاء ربكما تكذبان " ، يجب أن نقول : لا بشيء من آلائك ربنا نكذب ، و ذلك زيادة في الهدى و الشكر و الفضل من الله ، ولا ريب ان هدف الإمام الصادق)ع) من هذه العبارة ليس مجرد الكلام ، فالأهم من تصديق اللسان بالنعمة هو تصديق القلب و الجوارح ، فالذي يصدق بآلاء الله هو الذي يؤدي واجب الشكر له عز وجل ، " ولا يعرف النعمة إلا الشاكر ، ولا يشكر النعمة إلا

(1)النحل / ١٦ - ١٨.

العارف "كما قال الإمام العسكري (ع) . و الشاكر كما يقول الإمام الهادي (ع " : (أسعد بالشكر منه بالنعمة التي أوجبت الشكر ، لأن النعم متاع ، و الشكر نعم و عقبى " (١) ، " و شكر المؤمن يظهر في عمله ، و شكر المنافق لا يتجاوز لسانه "(٢) و جاء في الصحيفة السجادية : " الحمد لله الذي لو حبس عن عباده معرفة حمده على ما أبلاهم من مننه المتتابعة ، و أسبغ عليهم من نعمه المتظاهرة ، لتصرفوا في مننه فلم يحمدوه ، و توسعوا في رزقه فلم يشكروه ، و لو كانوا كذلك لخرجوا من حدود الإنسانية إلى حد البهيمة ، فكانوا كما وصف في محكم كتابه : " إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا " (٣. (

و الذي يلاحظ سورة الرحمن يجد آياتها تنصب في منهج محدد ، فمقاطعها ترتكز على إسم الرحمن الذي جاءت السورة لتعرفنا به من خلال تجلياته في جوانب الحياة المختلفة ، و من هذا المنطلق يذكرنا كل مقطع فيها ببعض آلاء الله ثم يضع أمامنا التساؤل الذي تكرر (٣١) مرة ، و هكذا تتوالى المقاطع بنفس الصيغة حتى الأخير . إذن فالسورة تستهدف تعريفنا بربنا ، كخطوة أولى تنقلنا بها إلى الهدف الأسمى من المعرفة إلا وهو العبادة بتمام المعنى . أترى هذه النعم كلها جاءت لهدف و دور محدد هو مصلحة الإنسان ، فما هو هدف الإنسان نفسه ، وما هو الدور الذي يقوم به لتحقيق ذلك الهدف ؟ إنه معرفة الله من خلال آياته و نعمه ، و القيام بها كما يريدها عز وجل خلال عبادته.

[16 - 14]و هنا يوجه القرآن أنظارنا وعقولنا إلى تجل آخر لرحمة الله متمثلا في خلقه الإنس و الجن.

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٨٧.

(2)بح / ج ٧٨ / ص ٣٧٨.

(3)الدعاء الاول.

]خلق الإنسان من صلصال كالفخار[

قيل أن الصلصال هو المنتن من الطين ، من قولهم صل اللحم (١) إذا تعفن و تغير ، و قال علي أبن إبراهيم : هو " الماء المتصلل بالطين " (٢) . إذن خلق الله الإنسان من هذه المادة الوضيعة في نظرنا " ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين " (٣) ،و لكنه بقدرته صيره خلقا محكما ، فيه الأذن التي تلتقط بمثلثاتها أدق الأصوات و تميز بينها ، و الكبد التي تقوم باكثر من (٧٠٠ (عملية ، و المخ الذي هو أكثر الأشياء إعجازا في الإنسان ، و النخاع الذي هو امتداد لخلايا المخ ، و الذي لو حاولنا استبدال سانتيمتر

مربع منه لاحتجنا إلى جهاز كمبيوتر ضخم بحجم الغرفة الكبيرة ، يستطيع أن يستوعب حسابات الدنيا كلها!

إننا لا نستيطع أن نتصور العدم المحض حيث خلقنا الله ولم نك شيئا ، و لكننا قد نستيطع تصور المسافة الهائلة بين صلصال من طين و بين إنسان سوي لنعرف جانبا من عظمة الخلق . هذا في الجانب المادي ، أما إذا تجاوزناه إلى عالم الروح حيث نفخ الله في آدم من روحهفهنالك التجلي الأعظم ، و سبحان الله أحسن الخالقين.

]و خلق الجان من مارج من نار[

أي النار المختلطة فهي إذا قويت التهبت ، و دخل بعضها في بعض ، كما يتداخل ماء البحر في بعضه ، و أساس الخلق نعمة ينبغي على الجن شكرها ، فكيف و قد من الله عليه من القوة ما يستطيع بها نقل عرش عظيم كعرش بلقيس من اليمن حتى فلسطين قبل أن يقوم سليمان (ع) منمقامه ! وإذا نظر كل منهما إلى أصله

(1)مفردات الراغب.

(2)نور الثقلين / ج ٢ / ص ٧.

(3)السجدة / ٨.

و إلى نعم الله المسبغة عليه ، علم أنه ما نال من الشرف إلا بفضل الله تعالى ، فكيف يكذبان بآلائه ؟! (١. (

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

ومن آلاء الله عليهما أن خلقهما من مادة تتناسب مع تطلعات ودور كل منهما في الحياة ، فخلق الإنسان من صلصال نتن ضعيف ، و لكنه قومه و قواه بالعقل و العلم ، بحيث يستطيع أن يسخر حتى الجن ، و خلق الجن من النار ، و جعل تفوقه في بعض جوانب القدرة و القوة المادية ، و لكن هذا الإختلاف في الخلقة لا يعني تمايزا لعنصر على عنصر ، لأن القيمة للعمل الصالح ، سواء صدر من الصلصال أو من مارج النار ، ولا يعني أن أحدهما رب و الآخر مربوب حتى يعبده و يشرك به ، بل هما مخلوقان و ربهما واحد وهو الله.

[18 - 17]و جانب آخر من الرحمة الإلهية يطالعنا كل يوم في حركة الشمس و الأرض.

]رب المشرقين و رب المغربين[

الآية الكريمة تلفت انتباهنا إلى حركة الأرض حول الشمس و التي تكتمل في كل عام مرة ، و تتسبب في تغير الفصول الأربعة و خلالها تتبدل يوميا منازل الشمس بالنسبة الى الأرض شروقا و غروبا ، فهي تشرق في أول يوم من أول منزلة لتبلغ الأقصى في اليوم الأخير ، و فيالمقابل تجد ذات الحركة و بذات النسبة غروبا ، و في الاحتجاج للطبرسي رحمه الله ، قال أمير المؤمنين (ع) : " و أما قوله تعالى : (الآية) فان مشرق الشتاء على حده ، و مشرق الصيف على حده . أما تعرف ذلك من غروب الشمس و بعدها " ؟ و يفصل في بيان حركة الشمس قائلا : " و أما قوله : " رب

(1)التفسير الكبير للفخر الرازي (بتصرف . (

المشارق و المغارب " فان لها ثلاثة و ستين برجا تطلع كل يوم من برج ، و تغيب في آخر ، فلا تعود اليه إلا من قابل في ذلك اليوم " (١) ولا شك ان الفصول الأربعة نعمة إلهية تدخل رقما أساسيا في تكامل الحياة و نموها . ولولاها لكانت تنتفي الكثير من صفاتالتنوع و التكامل عند الانسان و في الطبيعة و الاحياء ومن حوله ، و قد قال بعض العلماء ان اكثر الحضارات نشأت في البلاد ذات الفصول القاسية ، فمن أجل مواجهة الحر الشديد دأب الانسان على اكتشاف وسائل التكيف في لباسه و منزله و الوسائل التي يستخدمها ، و بذلكالروح تحدي قسوة البرد ، و لا شك أيضا ان تنوع الفصول يكمل الوجود النفسي و الروحي و الجسمي للانسان و يخدم مصلحته ، و يفسح المجال أكثر فأكثر لتفجير طاقاته و استغلال الطبيعة و تسخيرها.

و تذكرنا الآية ايضا بحركة الأرض حول نفسها مرة و احدة في كل يوم ، وما ينتج من تعاقب الليل و النهار ، الذي يكمل هو الآخر مسيرة الانسان و يخدم مصالحه و تطلعاته في الحياة ، فسباته بالليل و نشاطه و سعيه بالنهار ، و قوله تعالى : " المشرقين و المغربين " لا يحتاج إلى تفصيل و بيان ، لانه و قد تقدم بنا العلم أصبح الكل يعي هذه الحقيقة و هي انقسام الأرض الى شطرين ، فاذا كان النصف الأول يستقبل الشمس بالشروق فانها لاريب تودع الآخرين غروبا ، و العكس صحيح ، اذا فهناك مشرقان و مغربان يتعاقبان على الكرة الأرضية.

و كلتا الحركتين نعمة تعكس لنا اسم الرحمن ، و لكنك ترانا و نحن نعيش بكل ذرة في وجودنا محاطين بآلاء الله نكذب بها . أفلا يحق لربنا اذا أن يكرر معاتبتنا و تذكيرنا ؟!!

]فبأي الآء ربكما تكذبان[

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٩٠.

الانسان حينما يكون عارفا برحمانية ربه ، و انه تعالى سخر الوجود لمصلحته ، فانه يعيش متفائلا و نشيطا لانه سيكون مطمئنا الى سعيه ، انطلاقا من احساسه بأنه خلق ليرحم لا ليعذب ، و من جانب آخر انه سوف يتعايش مع الحياة من حوله تعايشا ايجابيا . يعتمد السعيمن أجل الاستفادة القصوى مما خلق من أجله . و هذا لا يتحقق إلا اذا صدق بانه فعلا من نعم ربه و آلائه عليه ، اما اذا كذب بذلك شل سعيه ، و خارت ارادته ، و قنطت نفسه من امكانية تسخير الحياة ، و كم عاش الانسان على هذا الكوكب دون أن يسعى للتعرف على حركة الشمس ، و الاستفادة من ذلك في حياته ، و تحقيق أهدافه الشخصية و الحضارية ، لأنه لا يؤمن بعلاقته بها ، أو كان يعتقد بسبب بعدها انها لايمكن تسخيرها بل لم تخلق من أجله ؟! و الآن جاء العلم الحديث ليؤكد بانها نعمة إلهية عظيمة ، و انما خلقت لصالح الانسان ، و انطلاقا من ذلك عكس حركتها على حساباته الزمنية ، ولا يزال العلماء يقومون بمختلف الدراسات التي من شانها تسخير الشمس الى أقصى حد ممكن في خدمة الأهداف و التطلعات الحضارية للبشر.

كل يوم هو في شأن

هدى من الآيات

"لا بشيء من آلائك رب أكذب " إنها العبارة التي ينبغي أن نكررها كلما تساءل السياق القرآني " فبأي آلاء ربكما تكذبان " ، و لكن هل يكفي أن نكرر ذلك كشعار دون معرفة و تطبيق ؟ كلا .. فماذا يعني إذا التكذيب بآلاء الله ، و كيف نصدق بها؟

هناك فريقان من الناس يكذبون بآلاء الله . الاول الذين لا يعتقدون بالنعمة ، لانهم ينظرون الى الحياة من خلال رؤية مشؤومة ، و نفسية معقدة فاذا بكل شيء عندهم نقمة ، " و إذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا "(١) و الفريق الآخر هم الذين يعترفون بالنعمة ، و لكنهم ينكرون عمليا انها من الله فتراهم يتوجهون بالشكر الى غيره " و من آياته الليل و النهار و الشمس و القمر ، لا تسجدوا للشمس و لا للقمر و اسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم(١) الفرقان. 60 /

إياه تعبدون " (١) و هذا نوع من التكذيب ايضا فالذي لا يؤمن برب النعمة او يشرك به لا يشكره عليها ، ومن لا يشكر النعمة لا يعمل على ضمان استمرارها و نموها ؟ ، و الاستفادة منها في مواردها السليمة ، أليس ذلك كله مرهون بالشكر على وجهه الصحيح ؟ جهاز الهظم عند الانسان مثلا)الفم ، المريء ، المعدة ، الامعاء) ينبغي أن نستفيد من هذه النعمة ، فالذي يعلم بانها من الله ، سوف يبحث عن برنامج الرسالة في الاكل و الشرب ، نوع الطعام و الشراب المطلوب ، و مقداره ، و طريقة استهلاكه (آداب الاكل و الشرب) أما الآخر المكذب بالله فلن يلتزم بحد في ذلك ، سيسرف فيهما و لن يمتنع عما يضره كالخمر و لحم الخنزير ، و هذا نوع من التكذيب أيضا ، و كذلك يكذب بالنعمة الذي يستخدم الثروة من اجل استغلال الآخرين و استبدادهم ، و الاسراف و التبذير على النفس ، كما ان الذي يتخذ السلطة و سيلة للقهر و الاستعلاء هو الآخر يكذب بآلاء ربه.

و الذي لا يستخدم النعمة في الخير لنفسه و للبشرية ، و بالتالي لا يعمل على ضمان استمرارها باستمرار عواملها ، فانه ليس فقط يحرم من نموها ، بل و يجعلها عرضة للزوال " وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لازيدنكم و لئن كفرتم إن عذابي لشديد " (٢) اذا فتطبيققولنا " لا بشيء من آلائك رب اكذب " يكون بالتزام شكر النعمة دائما ، و ذلك يعني أن نعترف بانها نعمة فعلا ، و ثانية أن نعرف بأنها من الله فنشكره قولا ، و نطبق منهجه عملا ، و هذا هو التصديق بآلاء الله.

بينات من الآيات

[21 - 19]و من حركة الشروق و الغروب في آفاق السماء ، ياخذنا القرآن الى مياه البحار التي تلتقي مختلفة مع بعضها دون أن تبغي او تطغى.

(1)فصلت / ٣٧.

(2)ابراهيم / ٧.

]مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان[

وفي الآية إشارة الى عدة ظواهر طبيعية ، الاولى إلتقاء مياه البحار المالحة بالمياه الاخرى العذبة ، كمياه الشط و الانهار ، فانها وان كانت تلتقي مع بعضها و لكنها تبقى على طبيعتها لا تتغير لفترة من الوقت . و صورة أخرى من حكمة الرب انه جعل الأنهار في كلالعالم مرتفعة عن البحار ، قال تعالى " : وهو الذي مرج البحرين هذا عذاب فرات و هذا ملح أجاج و جعل بينهما برزخا و حجرا محجورا " (١) و الظاهرة الثانية هي التقاء البحار حتى المالحة مع بعضها . إن ثلاثة أرباع كوكبنا يتكون من ماء البحار و المحيطات ،و هي متصلة مع بعضها ، و الأرض في حركة دائمة حول نفسها و حول الشمس إلا ان منسوب المياه فيها كلها يبقى ثابتا ، و لم نجد يوما انها انسكبت في بحر واحد ليطغى ماؤه مثلا.

و حينما نبحث في الطبيعة من حولنا نجد شواهد اخرى لهذه الآية الكريمة ، فان شطري البيضة (الصفار و البياض (مهما رجحتها لا يمتزجان ، و كذلك بحار النور و الظلمة في حركة الليل و النهار فانهما يتحركان حركة ذاتية و بينهما نقطة التقاء دائمة و لكنهما لا يختلطان " يولج الليل في النهار و يولج النهار في الليل " (٢) و حينما نعود من رحلة التفكر في الآفاق الى شوط آخر من التفكر في أنفسنا نجد مظهرا لهذه الحقيقة في حياة الانسان ، حيث يلتقي ماء الرجل بماء المرأة و يكونان النطفة التي تنمو حتى تصير خلقا سويا ذكرا أو أنثى ، و تظل خصائص المرأة و خصائص الرجل هي هي لا تتغير ، بل أن المياء العذبة التي نستخرجها من باطن الأرض لشربنا تلتقي أحواضها مع مياه البحر التي تتشبع بها الأرض حتى الأعماق و لكن " هذا عذب فرات سائغ شرابه و هذا ملح أجاج " (٣) وفي الواقع

(1)الفرقان / ٥٣.

(2)فاطر / ١٣.

(3)المصدر.

الاجتماعي يلتفي المؤمنون بالكافرين و تبقى بينهما الفواصل.

اما البرزخ الذي يقف حائلا بين البحرين فقد يكون جسما ماديا كاليابسة تفصل بين بحر و آخر ، و لو طغت البحار عليها لانعدمت حياة الانسان فوقها ، أو الغشاء الذي يمنع صفار البيض من الاختلاط ببياضها لو كانا يختلطان لما صلحت البيضة ان تكون فرخا و لانقرضت الطيور بانواعها . وقد يكون البرزخ هو السنن و القوانين الطبيعية كالجاذبية و الكثافة و الخصائص المختلفة للخليطين ، و قد يكون القيم و الثقافة التي يؤمن بها كلا التجمعين الكافر و المؤمن ، و كلها لا شك من صنع الله ، و مظهر لهيمنته على الحياة ، و رحمته بالانسان اذ جعل التنوع و الحدود قائمين في ذات الوقت ، أليس ذلك يدل على حسن النظم ، و دقة التدبير ، و متانة الصنع ، و عزة الخالق و حكمته ؟

و حينما ندقق النظر و نركز الفكر في هاتين الآيتين نجدهما بكل كلمة و ردت فيهما تعبير عن رحمة الله و إشارة اليها ، اترى لو طغت البحار على اليابسة أو على بعضها و انعدمت الفوارق هل ذلك في صلاح الانسان ؟ كلا .. ثم ان القرآن يقول " مرج " و هو الحركة الذاتية في كلا البحرين بفعل التموجات كما يقول " يلتقيان " إشارة الى الحركة الثنائية ، و هما معا رحمة إلهية ظاهرة ، فلو جعل الله البحار راكدة لأسن ماؤها و تعفن و بالتالي استحال عيش الاسماك و الكثير من الاحياء الاخرى فيها ، و ما كان الانسان يستخرج منها حلية و لا لحما طريا . ثم انه جعل البحار متصلة تلتقي ببعضها ليسهل على الاحياء البحرية الانتقال مهاجرة عبرها ، و يسهل السفر الى أكثر نقاط العالم . ولو لم تكن الانهار - و بالذات الكبيرة منها - تلتقي بالبحار لتصب فيها فائض مياهها لكانت تطغى و تهلك الحرث و النسل.

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

[22]و يذكرنا السياق بنعمة الزينة التي أودعها الله في البحار ، و هي من الحاجات الكمالية لا الأساسية عند الانسان ، إنسجاما مع سياق السورة الذي يهدف بيان تجليات رحمة الله (إسم الرحمن) في الحياة ، لأن الزينة أقصى النعمة و أرفعها.

]يخرج منهما اللؤلؤ و المرجان[

إن الله لم يودع في البحار حاجاتنا الضرورية و حسب ، بل الكمالية أيضا ، " وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، و تسخرجوا منه حلية تلبسونها ، و ترى الفلك مواخر فيه و لتبتغوا من فضله و لعلكم تشكرون " (١) و القرآن بهذه الآية من سورة الرحمن يفند المزاعم القديمة بأن الأنهار لا تربي اللؤلؤ و المرجان ، و قد جاء العلم الحديث فأثبت خلاف ذلك ، و هكذا يبقى كتاب الله سابقا للحضارة.

و لعل الآية تشير الى إباحة استخراج الزينة و التحلي بها أو لم يقل ربنا سبحانه : " قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده و الطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا .." كما قال : " خذوا زينتكم عند كل مسجد " .

[25 - 23]تلك كانت مظهر من آلاء الله التي تتجلى للانسان كلما ركب البحر ، و كلما غاص في أعماقه ، و هكذا كلما دار البصر في آفاق الخليقة و نظر الى الشمس و القمر و النجوم و الارض و البحار و الانهار ، ثم غار في أعماق النفس وما فيها من أبعاد و آماد ، كلما وجد آلاء ربه تنهمر عليه من كل حدب و صوب أولا تكفيه دليلا الى ربه ، و هاديا الى معرفته ، و باعثا له الى شكره ؟ لكنك ترى اكثر الناس يكذبون بالنعم و يقصرون في الشكر بل يشكرون ابدا ، وحتى أولئك الذين يقضون سحابة اعمارهم في خوض لجج العلم او متابعة قوانين الطبيعة عبر البحوث

(1)الكهف / ١٠٧.

الميدانية ، و الاكتشافات الجديدة ، لا ينطلقون من اكتشافاتهم الى خلفياتها ، حيث الايمان برب العزة و الرحمة ، بل تراهم ينظرون الى الحياة نظرة سطحية فلا يزدادون إلا ضلالا و تكذيبا بالحق ، انهم يقفون عند ذلك الحد و يظنون انها التي تحرك الحياة و لا يتساءلون من الذي وضع القوانين و الانظمة و السنن ؟! ومن الذي يسيرها و يهيمن عليها ؟! بلى . ان العلم الذي لا يتأسس بالايمان و المعرفة بالله ، قد يضر الانسان اكثر مما ينفعه ، لانه قد يصبح و سيلة للكفر و التكذيب بالرب و إرادته.

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

و من آلاية السفن التي تحملنا الى الأقطار المتباعدة في أسفارنا و تجارتنا و مظان الصيد ، أترى لولاها هل استطعنا أن نركب البحر ، أو وصلت أيدينا الى كنوزه لحما و زينة ؟؟ كلا .. و لهذا كان من البديهية في هذه السورة الرحمانية أن يحدثنا القرآن عن السفينةفور حديثه عن البحر.

]و له الجوار المنشئات في البحر كالاعلام[

و الجري هو المشي السريع ولا يقال للسفينة سارت ، قال تعالى : " وهي تجري بهم في موج كالجبال " (١. (

و المنشآت من الانشاء و الصناعة ، و شبهها الله بالأعلام (الجبال (لارتفاعها كالعلم في البحر . و هذا المعنى يكون اكثر ظهورا في السفن الشراعية.

و السؤال لماذا لم يقل ربنا عند حديثه عن النعم الاخرى كالشمس و القمر ، و النجم و الشجر انها له ، بينما قال هنا " وله الجوار " ؟؟ و الجواب لأن الانسان لا يستطيع أن يدعي ملكية تلك النعم ، و لم تصل يده اليها في شيء ، و لكنه قد يظن(١) هود / ٤٢.

بانه مالك السفينة و خالقها ، لانه الذي خطط لصناعتها و نشر ألواحها و جمعها الى بعضها بالدسر و المسامير فهنا يحتاج الى من يذكره ان صانع السفينة بذاته مخلوق الرب ، و انه لم ينشئها إلا بحوله و قوته و بما أودع الله فيه من عقل ، و حكمة ، و أعطاه من علم و معرفة ، و هيأ له من فرص العمل .. فالسفينة لله ، و هو الذي يجريها بقدرته في البحار . و البحارة يعرفون كم هي الاخطار العظيمة التي تحيط بهم ، و هم يعتركون الامواج الهادرة في أعالي البحار.

ثم ان ربنا هو الذي علم نبيه نوحا (ع) صناعة السفن وهو بدوره علمها للبشرية ، كما علم عباده الكثير من الشؤون و الامور عبر أنبيائه و رسله كالميزان ، و قد روى الطبرسي في جوامع الجامع : " ان جبرئيل (ع) نزل بالميزان فدفعه الى نوح و قال : مر قومك يزنوا به " (١) و السفينة الى الآن أفضل وسائل للنقل التي أكتشفها البشر ، فهي إذا نعمة إلهية ، و القرآن يطرح بعد التذكرة بها هذا السؤال:

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

أو يكفي العقل دليلا على ضرورة شكر من أسبغ علينا هذه النعم الجسيمة ؟ بلى . و لكن ربنا الرحمن يزيد بلطفه على هدى العقل التذكرة بالوحي بالرغم من أن العقل حجته علينا بالغة ، بل يبصرنا بنعمه من خلال الوحي و يستثير عقولنا و يشد أسرها في مواجهة هوى النفسو طباعها ، فلا يقول أحد وقد كذب بآلاء الله انها مجهولة لديه . و بعد هذا البيان و التأكيد لن يكون قصور الانسان عن الشكر ، و معرفته ربه ، بغفلة و قد سبق اليه منه الذكر بفضله ، ولا بجهل و قد تقدم منه إليه العلم برحمته.

[28 - 26]و بعد مخاطبة العقل بلغة الحقائق العلمية التي يراها البشر بعينه(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٥٠.

فتنفذ الى ضميره يخاطب الوحي وجدان الانسان مباشرة ، و يهزه باعظم الحقائق و طأة في نفسه .

إنها حقيقة الموت و الفناء التي يحاول دائما الفرار منها ، فيعطي ماله أو يضحي بأعز الناس اليه و اقربهم منه لعله يفتدي نفسه منه او يؤخره عنها ولو لسنة اضافية أو حتى بضعة أيام . و كما فناء الانسان كذلك فناء الأشياء من حوله دليل و حدانية الله و ربنا يذكرنا بذلك كأعظم آية تهدينا الى معرفته و توحيده.

بلى . لقد دعانا الله الى النظر في ظواهر الطبيعة ، و التفكر فيها ، و لكن من دون الانبهار بها ، لانها مجرد نعم و آيات يجب ان نؤدي شكرها و نهتدي بها الى دلالاتها . إنها محدثة فلابد لها من خالق ، و هي تفنى أو تموت فهي ليست إلها ، لان الاله لا يموت .

]كل من عليها فان[

اي كل ما في الارض بكله لا بعضه ، ولكن الله لا يقول ميت ، لأن الموت يجري في الاحياء فقط ، بل يقول فان ، لأن الفناء يشمل كل شيء مخلوق . وفي دعاء إدريس النبي (ع) : " يا بديع البدائع ، و معيدها بعد فنائها بقدرته " (١. (

]و يبقى وجه ربك ذو الجلال و الإكرام[

فما هو وجه الله الذي يبقى بينما يفنى كل شيء ؟ إن الألفاظ تفقد ظواهرها التجسيدية لتبقى حقائقها عند الحديث عن ربنا القدوس سبحانه فليست يده سوى قدرته ، و عينه إلا احاطته علما و شهادته على كل شيء و هكذا وجهه ، فانه ما يتجلى به في الخليقة ، حتى يعرفه بها من اراده ، و يرى نوره من خلالها من أحبه ، أو لسنا نحن البشر نرى نظراءنا من خلال أوجههم الظاهرة ، و تعالى الله عن الأمثال ،(١) المصدر / ص ١٩٣.

كذلك الوجه الظاهر لربنا دينه المشتمل على سننه و شرائعه و الحقائق التي تدل عليه ، كذلك قال الامام أمير المؤمنين (ع) : " و أما قوله : " كل شيء هالك إلا وجهه " ، فالمراد كل شيء هالك إلا دينه ، لأن من المحال أن يهلك الله كل شيء و يبقى الوجه، هو أجل و أعظم من ذلك ، و إنما يهلك من ليس منه ألا ترى انه قال : " كل من عليها فان * و يبقى وجه ربك " ففصل بين خلقه و وجهه. (1) "

و يتجلى الدين بدوره فيمن يمثله كالأنبياء و الأئمة الهداة الى الله و هكذا يفسر الامام الرضا عليه السلام الوجه حينما يسأله أبو الصلت قال : يابن رسول الله ! فما معنى الخبر الذي رووه أن ثواب لا إله إلا الله النظر الى وجه الله تعالى ؟! فقال : " ياأبا الصلت من وصف الله عز وجل بوجه كالوجوه فقد كفر ، و لكن وجه الله أنبياءه و حججه صلوات الله عليهم ، الذين بهم يتوجه الى الله عز وجل و الى دينه و معرفته " (٢. (

و قال الصادق (ع) : " نحن وجه الله " (٣. (

إذا وجه الله هو الحق المتمثل في سننه و شرائعه و دينه و أوليائه ، و يفنى كل شيء دونها ، فعلينا التمسك بها دون أن تؤثر فينا المتغيرات فّاذا كان احدنا يعمل الصالحات فليعملها لوجهه ، إذا كان يبحث عن الجزاء ، أترى لو عمل صالحا رياء أو شركا هل ينفعه شيء؟

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

فلا يمكن مع آية الفناء أن يدعي أحد الألوهية أو تدعى له ، أو يدعي بأنه جاهل(١) المصدر / ص ١٩٢ نقلا عن الاحتجاج.

(2)المصدر.

(3)المصدر.

بربه ، و إذا كان لابد له من ذلك فليدفع أولا الموت عن نفسه ، أو يدفعه الآخرون عنه.

[30 - 29]ثم يذكرنا القرآن بصفة أخرى لربنا عز وجل تجعلنا أكثر طاعة له و تبتلا إليه ، و تلك هي صفة البداء التي تعني الهيمنة الشاملة و الدائمة له على الوجود ، فليس الكون شعلة أبدية كانت ولا تزال كما تدعي الماركسية الضالة . إن الطبيعة ليست هي التي تميت و تحيي ، و السنن و الأنظمة و القوانين ليست بذلك الثبات المطلق ، إنما الذي يتصرف في الخلق هو الله ، و كل شيء يستمد ثباته و استقراره منه ، فهو يغيره متى شاء و كيف أراد . ولو أننا أمعنا النظر في الحياة لوجدنا هذه الحقيقة بوضوح فإلى جانب الثوابت هناك متغيرات غير معروفة عند الانسان . الدكتور يقدم وصفته للمريض بعد الفحص ، و لكنه يعترف بانه لا يعرف كل الامراض (١٠٠%) ولا يعطي ضمانة للعلاج مئة بالمئة لماذا ؟ لان هناك هامشا مجهولا في المرض و العلاج ، فالامراض تتداخل اعراضها ، كما انه قد لا يستقبل الجسم الدواء ، لذا يقول هذا مرضك حسب الظاهر ، و هذا دواؤك إن شاء الله . ومن الطب الى كل جانب و ميدان في الحياة هناك دائما فراغ في القوانين الطبيعية لا يقدر علم الانسان و قدرته أن تملأه إنما هو خاص بمشيئة الله سبحانه . من هنا لا يثق أحد كل الثقة بما أوتي من علم و قوة ، بل يظل في ريب من أن المستقبل قد يحمل إليه ما لم يحتسبه . بلى . لقد علمته تجارب لا تحصى انه ليس مليك الكائنات ، بل ولا يملك نفسه ، فكم قد خطط لمستقبله فقلبت المتغيرات خططه ، و كم قد عقد عزائم قلبه على شيء ففسخت المفاجئات عزائمه . و هكذا ينطوي ضمير كل انسان بأن يد الغيب تهيمن على الخليقة لا يده ، و يمثل هذا حجة بالغة تهدينا الى ربنا سبحانه . و صدق أمير المؤمنين (ع) حيث قال : " عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم و حل العقود ، و نقض الهمم " (١. (

(1)نهج / حكمة ٢٥٠.

الامريكيون يصنعون ما أسموه (بالتحدي) الكوكب الفضائي (تشالنجر) ، و يصرفون عليه مئات الملايين من الدولارات ، صناعة و دعاية ، و قبل إطلاقه يقومون بالحسابات الدقيقة عبر العقول الألكترونية ، و إذا به ينفجر في الفضاء و يتحول تحديا مضادا ، و نكسة لا زالت آثارها قائمة في نفوسهم و حيرة في عقولهم ، و كذلك تتجلى الارادة الالهية المطلقة في عملياتهم العسكرية ضد الاسلام في صحراء طبس .

]يسئله من في السموات و الأرض[

لأنه وحده الاله و القادر على قضاء حوائجهم و تحقيق طموحاتهم . و السؤال ليس مقتصرا على الانس و الجن و الملائكة ، بل يشمل كل الخلق العاقل و البهيم ، و الجامد و المتحرك ، لأنه ما من شيء إلا و يفتقر الى الله ، و ما من شيء إلا وله لغة مع الله " تسبحله السماوات السبع و الارض ومن فيهن ، و ان من شيء إلا يسبح بحمده ، و لكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفورا (1) " و ليس من طريق للانسان لكي يبلغ طموحاته بفضل الله ، و يرفع عن نفسه كل عقبة و اذى بتوفيقه ، قبل العمل و بعده إلا الدعاء ، قال تعالى : " قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم " (٢) " و قال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين " (٣) و قال أمير المؤمنين)ع) : " من قرع باب الله سبحانه فتح له " (٤) و قال الامام الصادق (ع " : (أكثر من الدعاء ، فانه مفتاح كل رحمة ، و نجاح كل حاجة ، ولا ينال ما عند الله إلا بالدعاء ، و ليس باب يكثر قرعه إلا و يوشك ان يفتح لصاحبه " (٥ . (و لكن ينبغي للعبد ان يرعى آداب الدعاء و(١) الاسراء / ٤٤.

(2)الفرقان /٧٧.

(3)غافر / ٦٠.

(4)غرر الحكم.

(5)بح / ج ٩٣ / ص ٢٩٥.

"كل دعاء لا يكون قبله تمجيد فهو أبتر " (١) ، و قال الرسول (ص) : " صلاتكم علي إجابة لدعائكم و زكاة لاعمالكم " (٢) " ولا يزال الدعاء محجوبا حتى يصلى على محمد و ربه ، أتراه سوف ينطلق نحوه ، أو يسأله حوائجه ، أو يتوسل اليه و قد غل يديه و لسانه و قلبه بالقنوطو اليأس ؟ و لماذا يتعب نفسه بالسؤال من رب لا إرادة عنده ؟ فالأقدار هي هي لا تتغير ، و ما عسى أن يكون ينفع الدعاء إذا ؟ و بهذا نعرف الفرق الكبير بين المعارف الالهية و الفلسفات البشرية ، فبينما تزرع الفلسفات البشرية اليأس بين المعارف الالهية و الفلسفات البشرية ، فيما تزرع الفلسفات البشرية اليأس في نفس الانسان ، و تقل فاعلياته و تجمد طاقته بالحتميات التي تزعم انها تحيط بالقدرة البشرية كما جران السجن بالمجرم ، نجد النهج الالهي الحنيف يفتح آفاق الرجاء أمامه ، و يعطيه الثقة بربه القادر على إنجاح طلباته ، و تغيير المعادلات و الواقع الى صالحه ، و يفند الأفكار الجبرية و القدرية بفكرة الدعاء الذي ينطلق من العبد الى ربه (السؤال) و انه فوق الحتميات و الأقدار و فوق القضاء ، قال الامام الباقر (ع) يخاطب زرارة (رض) : " ألا أدلك على شيء لم يستثن فيهرسول الله (ص) ؟ قلت : بلى قال : الدعاء يرد القضاء و قد أبرم إبراما " (١) و ضم أصابعه و قال الامام الكاظم (ع) : " عليكم بالدعاء فان الدعاء لله و الطلب الى الله يرد البلاء و قد قدره و قضي ولم يبق إلا إمضاءه ، فاذا دعي الله عز وجل و سئل صرف البلاء صرفه " (٢. (

و لعل الآية التالية تدل على صفة البداء التي هي مفتاح بصيرة الدعاء فلولا ان الله قادر على تغيير الخليقة و دفع البلاء و رفع القضاء إذا لم يبق أثر للدعاء و من لا يعتقد بالبداء ولا يؤمن بسلطة الله المطلقة التي لا يقيدها اي شيء مما سواه ، و من نفسه سبحانه فانه لا يعتقد بإلوهية ، كيف و انه يجعله تعالى أقل قدرا و قدرة حتى من الملوك إذ تجرد عنه أهم صفاته وهي السلطة " وما قدروا الله حق قدره ان ا لله لقوي(١) اصول الكافي / ج ٢ / ص . 469

بلى . قد يضل الانسان و يكفر بالله فلا يسأله أو يدعوه بلسانه ، و مع ذلك فانه لا يستطيع أن ينكر ربه في نفسه ، بل و يظهر فيه الاعتراف به تعالى ، والاستكانة و الحاجة ساعة الضيق و الحرج ، " و إذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين. (5) "

لقد تسربت بعض الفلسفات الجاهلية القديمة الى الأديان فزعموا ان السؤال لا ينفع شيئا ، و حكى الله عنهم ذلك في كتابه إذ قال : " و قالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم و لعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء " (٦) و هكذا تسربت هذه الفلسفة الموغلة في الضلال الى أذهان البعض من المسلمين تحت عناوين مختلفة ، كالجبرية و القدرية ، فاعتقدوا ان الله كتب أقدار الخلق ، و انه لا

(١) المصدر / ص ٣٢١.

(2)بح / ج ٩٤ / ص ٥٤.

(3)بح / ج ٩٣ / ص ٣١١.

(4)المصدر / ص ٣٨١.

(5)لقمان / ٣٢.

(6)المائدة / ٦٤.

يقع إلا ما كتب عليهم ، و قد جف القلم و طوي الكتاب ، و انطلاقا من هذه النظرة السلبية أنكروا أثر الاستغفار و الدعاء . و كم تقف هذه الفلسفة حجابا بين العبد و ربه

(2)بح / ج ٩٣ / ص ٢٩٥

عزيز " (١) سبحانه و تعالى عما يصفون علوا كبيرا.

]كل يوم هو في شأن[

قال النبي (ص) : " من شأنه أن يغفر ذنبا و يفرج كربا ، و يرفع قوما و يضع آخرين " (٢. (

و قال علي بن ابراهيم (رض) : " يحي و يميت ، و يرزق و يزيد و ينقص " (٣ (فلا ثبات بعد الدعاء و استجابة الله ، أو بعد بدائه عز وجل ، حتى في ليلة القدر التي تكتب فيها أقدار الخلائق الى مثلها من قابل فان الكتاب ليس أبديا إذ اشترط ربنا لنفسه البداء فيما كتب سبحانه فيها - كما جاء في الحديث - و كما قال ربنا سبحانه " يمحو الله ما يشاء و يثبت و عنده أم الكتاب " (٤. (

و لعلنا نفهم من هذه الآية ان الله يخلق كل يوم خلقا جديدا لا نعلمه ، و نجد إشارة الى هذه الحقيقة في قول أمير المؤمنين)ع) : " الحمد لله الذي لا يموت ولا تنقضي عجائبه ، لأنه كل يوم هو في شأن من إحداث بديع لم يكن " (٥. (

و قد أشارت البحوث القضائية الى وجود أدلة على ان هناك حالة تكون لمجرات جديدة في أعماق الفضاء الرحيب . إذا فلندع اليأس و لنطلق العنان لطموحاتنا تصل الى أقصاها انطلاقا من توكلنا على رب واسع الرحمة مطلق الارادة يجيب المضطر إذا دعاه وهو منتهى الآمال ، ثم نسعى لتحقيقها نستمد منه العون و التوفيق ، و نسأله الاجابة . لا ندع سقفا ولا حدا لطموحاتنا ، فهذا نبينا الاكرم (ص) وهو أعلم الخلق(١) الحج. 74 /

(2)مجمع البيان / ج ٩ / ص ١٠.

(3)نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٩٣.

(4)الرعد / ٣٩.

(5)نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٩٣.

يدعو ربه " زدني علما " (١) وهو أرفع الناس درجة و أقربهم منزلة الى الله ، و لكن الوحي يأمره بان يتطلع الى المزيد من الشأن و الرفعة " ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا " (٢) و يأمرنا بأن نصلي عليه في كل شارق وغارب حتى يزيده الله من فضله فنقول اللهم آت محمدا أفضل ما سأل و أفضل ما سئل له و افضل ما أنت مسؤول له الى يوم القيامة لماذا ؟ لآن نعمة الله لا تنتهي . و هكذا لابد أن يكون طموح المخلوق . و إنها دعوة الى التفكير في طموح اكبر ، و العروج الى منزلة أرفع عند الله . و من وصايا الامام علي (ع) لابنه الحسن (ع) : " إعلم ان الذي بيده خزائن ملكوت الدنيا و الآخرة قد أذن لدعائك ، و تكفل لإجابتك و أمرك أن تسأله فيعطيك ، و هو رحيم كريم لم يجعل بينك و بينه من يحجبك عنه ، و لم يلجئك الى من يشفع لك اليه ، .. ثمجعل في يدك مفاتيح خزائنه بما أذن فيه من مسألته ، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب خزائنه " (٣) و الذي أعطي السؤال لا يحرم الاجابة ، فالسؤال و البداء مظهران جليان لإسم الرحمن ، و نعمتان عظيمتان للخلق من الله.

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

إنها من الظهور و الكثرة بما لا يمكن إنكارها ، و لكن الخلق يكذبون ، و من أبرز عوامل التكذيب لدى البشر الشرك بالله ، فاذا به يعبد البقر لأنها تدر عليه الحليب ، و يعبد النار لأنها تدفئه و ينتفع بها في الطهي ، بينما الله هو ربه و ربهما ، و اليه ينبغي الاعتراف بالفضل ، و صرف الشكر . و السؤال كيف يكذب الانسان بنعمتي الدعاء ، و البداء ؟ إن ذلك يكون حينما ينكر حقيقة البداء ، أو نعمة الدعاء فيحرم

نفسه من معطياتهما.

(1)طه / ١١٤.

(2)الاسراء / ٧٩.

(3)نهج / كتاب ٣١.

[32 - 31]و إذا ما كذب المخلوق بنعم الله و آياته (آلائه) فانه سيعرض نفسه لسخط الله و عذابه ، بالذات عندما يحين موعد الحساب.

]سنفرغ لكم أية الثقلان[

يعني الانس و الجن . ذهب المفسرون مذاهب شتى عند بيان معنى الفراغ ، بيد ان إيهام المعنى يتضح جليا إذا عرفنا منهج القرآن فيما يتصل بأفعال ربنا القدوس حيث تؤخذ الغايات و تترك المبادىء ، و ترمز الكلمات الى نتائج المعاني و نهايات الحقائق .. لا الى كيفيةوقوعها و طريقة تحققها ، فمثلا إذا قال ربنا سبحانه " وجاء ربك و الملك صفا صفا " فان غاية المجيء وهو الحضور و الشهادة قد تحققت اما الكيفية التي نعرفها من مجيء البشر بالانتقال من مكان لمكان ، فانها لا تتصور في الله الذي وسعت رحمته كل شيء ، وهوالشاهد على كل شيء ، كذلك إذا قال سبحانه : " رضي الله عنهم ورضوا عنه " ، فان نتيجة الرضا تتحقق ، و هي الرحمة والعطاء لا ما يحدث عندنا من مقدماته كالانفعال الايجابي في النفس ، و هكذا الغضب الالهي معناه ما ينتهي إليه الغضب من الانتقام لا مقدماته و مبادئه من جيشان الدم و توتر الاعصاب ، و مثل ذلك الحب و العطف والحنان و الكره و البغض و .. و .. فربنا السبحان متعال عن الكيف والأين والتحول و .. و .. وفي الآية لا يعني سنفرغ لكم ان ربنا كان مشغولا عنهم بحيث لو يتسع لهم وقته ، ولم تحتمل قدرته بما عنده من الشؤون كلا .. سبحانه لا يشغله شأن عن شأن ، إنما الغاية من الفراغ تمام التدبير و القدرة و الجزاء ، و منه قولنا تفرغ فلان للعمل اي انصب عليه بكامل قدرته و وعيه و ارادته ، و الآية تشير الى ان الله أعطى الثقلين حرية نسبية في الدنيا ، أما في الآخرةفالامر لله و حده "يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار " (١. (

(1)غافر / ١٦.

و لك أن تتصور شيئا من الرهبة التي تحملها الينا كلمة سنفرغ ، إذا علمت انه تهديد من رب العزة و القدرة المطلقة ، الى مخلوق ضعيف محدود كالانسان الذي تؤلمه البقة و تقتله الشرقة و تنتنه العرقة ، كما يصفه الامام علي بن أبي طالب عليه السلام ، و يكفي هذا الوعيد العاقل الذي يلقي سمعه شهيدا أن يتورع عن التكذيب بآيات ربه و نعمه ، لأن ذلك مما يوجب عذابه ، و إن الله يوم القيامة يوقف عباده للسؤال عن النعيم " ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم " (١ " (و قفوهم إنهم مسؤولون " (٢. (

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

ومن صور التكذيب بذل النعمة في غير موقعها ، أو أخذها من الحرام ، و الاستعانة بها في مخالفة الحق ، كالعين ينظر بها الى أعراض الناس ، و الأذن يستمع بها الغيبة و النميمة والغناء و اللغو ، و الرجل يمشي بها الى المعصية ، قال رسول الله (ص) : " لا يجاوز قدما عبد حتى يسأل عن أربع عن شبابه فيما أبلاه و عمره فيما أفناه ، و عن ماله من أين جمعه و فيما أنفقه ، و عن حبنا أهل البيت " (٣. (

[36 - 33]و يفتح الله آفاق الطموح اما الانسان بعيدا عن الأساطير البشرية ليسجل سبقا على العلم الحديث بأكثر من (13)قرنا من الزمن ، ولا غرابة فهو كتاب الله . إن الفلسفات البشرية كانت دائما تكبل عقل الانسان ، و تغل طموحاته ، و تضع إصرا على نفسه تمنعهمن الثقة بها و التوكل على ربه و ذلك

عندما كرست الجهل و و ضعت مجموعة نظريات بدائية عن الانسان و العالم و اعتبرتها غاية العلم و نهاية المعرفة ، فتحولت الى سقف للفكر و سجن للعقل ، و عقبة اجتماعية كاداء امام التقدم.

(1)التكاثر / ٨.

(2)الصافات / ٢٤.

(3)نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٠٢.

و كانت من أهداف رسالات الله كسر هذه الحدود الوهمية ، و بعث الانسان نحو آفاق العلم و اثارة تطلعاته الكامنة . هكذا يقول ربنا سبحانه عن رسالة النبي محمد (ص) ، " يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر و يحل لهم الطيبات و يحرم عليهم الخبائث و يضع عنهمإصرهم و الأغلال التي كانت عليهم " (١. (

لقد كانت السيارة في ذلك العصر أمرا مستحيلا لا يداعب مجرد خيال الناس ، فاذا بالقرآن يأخذهم بعيدا جدا ليحدثهم بما يتضمن التشجيع على الوصول الى أقطار الارض و آفاق السماء . و كم ينمي مثل هذا الحديث من الله المقتدر الثقة في الانسان بنفسه ، و يوسع من حدود طموحاته حينما يسمعه مصدقا به مؤمنا بقوله .

لقد اختلف المفسرون وهم يبحثون عن مضمون الآية (٣٣) مع انها واضحة . لماذا ؟ لأن فكر الانسان يتحدد بالجو العلمي المحيط ، فبعد أن اتصل فكر المسلمين بالفكر الاغريقي و بالذات في مجال الهيئة البطليموسية التي كانت تتصور السماء من الجواهر غير القابلة للرتقو الفتق لذلك نجد بعض المفسرين طرح آراء بعيدة ، فقالوا بما انه يستحيل على الانس و الجن أن يصعد الى الآفاق فان " إن استطعتم " في الآية ظاهر في التحدي ، أي إنكم لا تستطيعون أن تنفذوا من أقطار السموات و الأرض بينما الآية ظاهرة في خلاف ذلك حيثنقرأ في نهايتها " لا تنفذون إلا بسلطان " ، فهم ينفذون ولكن بسلطان . و هكذا القرآن لم تنعكس على آياته النظريات العلمية الشائعة في عهد نزوله ، و لو كان من صنع البشر لكان يستحيل أن يبقى معتصما عن آثارها عليه أليس الانسان يكون افكاره من الجو العلمي المحيط به ؟ ألا ترى كيف ان تفاسير الناس للقرآن تأثرت بالاجواء العلمية لعصر كتابتها ، مع انها كانت تحوم حول الكتاب المتعالي عن النقص ، ولا نجد كتابا ألفه البشر عبر التاريخ إلا و كان مرآة للمستوى العلمي الذي بلغه الناس يومئذ إلا القرآن ، أو

(1)الاعراف / ١٥٧.

لا يهدينا ذلك الى انه كتاب ربنا الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟

و هكذا القرآن لا يزال هو المقياس للحضارة ، و اذا عارض نظرية علمية ما فاننا لا ريب سنجد قوله هو الثابت ، و اما تلك النظرية فتذهب هباء.

]يا معشر الجن و الأنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات و الأرض فانفذوا]هكذا يستثير القرآن التطلع الكامن داخل نفس الانسان نحو العلم و المعرفة و التقدم ، فهو يحدثه عن بساط الريح الذي كان لدى سليمان (ع) ، و كيف انه سخر الحياة من حوله (الجبال و الجن و الطير و ..) و جعلها في خدمة الحضارة البشرية ، ليؤكد له بان الطريق سالك أمامه للوصول الى هذه القمة السامقة من التحضر . و بالطبع إنه لا يرسم خريطة عن المركبة الفضائية حينما يستثيرنا في هذه الآية عن إمكانية اختراق الفضاء ، و لم تتنزل فيه سورة تحدثنا عن لغة الطير لماذا ؟ لأنه ليس كتابا تكنلوجيا وإن كان يشير الى بعض الحقائق إشارة مباشرة ، إنما هو كتاب حياة يستثيرنا نحو العلم ، و يعطينا الثقة بأنفسنا ، و يوجه عقولنا و قدراتنا في قنواتها الاستراتيجية الصحيحة ، أما التقدم العلمي أو تحول التطلعات و

الحقائق التي يبينها الى واقع فذلك من وظائف العقل البشري ، و لو فعل ذلك لكانيشكل سقفا للفكر وحدا للعقل و عقبة أمام التطور ، بينما المطلوب أن يكون منهجا للفكر و محرضا للعقل وباعثا نحو التطور.

و القرآن هنا وهو يريد ان يستثيرنا نحو تطلع حضاري كبير ، هو اختراق الآفاق و تسخير رقعة أو سع في هذا الكون الرحيب الذي خلق من أجلنا ، في خدمة الحضارة البشرية ، فانه يدخل الى ذلك بكلمة عميقة تحتمل من الافكار الحضارية الشيء الكثير إذ يخاطبنا " يامعشر " و المعشر هو من العشرة و التعاشر وهو التجمع الذي تربطببعضه و شائج محددة ، بل إن الكلمة تفيض بأوسع معاني التعاون الاجتماعي بين الافراد ، و بذلك يضع القرآن فكرة هامة أمام أبصارنا و بصائرنا ، و هي ان المنجزات الحضارية الكبيرة كالنفاذ من الآفاق لا يمكن أن تنتقل من التطلع الى الواقع العلمي و العملي ، إلا بجهد جمعي تتعاون فيه القدرات ، و تتلاقح فيه الافكار ، و تتكامل فيه المعارف ، و تتظافر فيه الارادات ، و لم يكتف بذكر الانس و حدهم ، بل قال الجن و الانس بينما القرآن قدم الانس على الجن حينما تحدث عن الخلق في الاية (١٤ ، ١٥) و هنا حدث العكس ، و ذلك لأن السياق في تلك الآيتين يتناول الأفضلية فتقدم الانسان لانه الأفضل ، بينما الحديث في هذه الآية عن الأكثرية " يا معشر " لذلك تقدم الجن و هم الأكثر ، و يبدو ان سبب ذكر الجن في هذا السياق هو:

- 1إن القرآن رسالة كونية شاملة ، و هي موجهة للجن كما هي موجهة الى الانس ، فهما قد خلقا لهدف واحد هو العبادة " و ما خلقت الجن و الانس إلا ليعبدون " (١) كما خلقت النار لمن عصى منهما ، " ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة و الناسأجمعين " (٢) كذلك نزل القرآن لهما معا . و هناك إشارات و اضحة وظاهرة الى هذه الحقيقة قال تعالى : " قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدي الى الرشد فامنا به و لن نشرك بربنا أحدا .. و إنا منا الصالحون ومنا دون ذلككنا طرائق قددا ..وإنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا (3) " .. و نداء كوني كهذا الذي يوجه القرآن لا يليق إلا برب العزة ، و حتى الانسان مهما بلغ من التطلع العالمي لا يجد طريقا لمخاطبة الجن و لعل البشر يتقدم يوما حتيصل الى مستوى التعاون مع الجن كما حدث للنبي سليمان حسب القرآن : " قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن(١) الذاريات / ٥٦.

(2)السجدة / ١٣.

(3)راجع سورة الجن.

تقوم من مقامك " (١(

- 2و اراد الوحي من ذلك أن ينسف إحدى النظريات الخاطئة التي تقف عقبة في طريق خوض الانسان لعلم الفضاء و اكتشافه كنوز الأرض و مساحاتها ، و هي ان الانسان عاجز عن النفوذ من أقطار السماء و ان ما بعد البحر و الصحراء ليس إلا بحار الظلمات و عوالم غريبة مخيفة لا سبيل للبشر إليها ، و ان الجن و حدهم يستطيعون ذلك ، فجاءت هذه الآية لتعيد للانسان الثقة بنفسه ، و تؤكد له قدرة متساوية لا أقل مع قدرات الجن بالرغم من أن الجن خلق من مارج من نار فهو بطبعه - حسب نظرة البشر - ضعيف قابل للنفاذ بينما الانسان خلق من صلصال من طين فهو بطبعه - حسب رؤية البشر - ليس قابلا للنفاذ.

- 3و لعل في الآية معنى حضاريا يستهدف إثارتنا و الجن نحو التسابق الى تحقيق التطلع الحضاري الذي تطرحه الآية بالنفاذ في أقطار السماوا ت و الارض ثم ان الآية تقول إن استطعتم ولا تقول لو استطعتم لأنها للامتناع ، بينما إن للشرط ، و ربنا يعبر عن هذا الشرطبالاستطاعة أي القدرة بتمام المعنى و شموله و هذا يشبه قوله تعالى : " و لله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا " (٢) و لكن الاستطاعة في النفاذ من أقطار السماء و الأرض لا تتحقق إلا بدراسة التحديات الموجودة في الطريق الى ذلك التطلع و تجاوزها و اهمها إثنان:

الأول : الأخطار المحتلة كالأجرام السماوية الحارقة و هذا ما سيأتي الحديث عنه عند الاية (٣٥. (

الثاني : تحدي طبقات لاسماء و الارض ، وهو التحدي الأساسي و الثابت ، فاذا(١) النمل / ٢٧.

(2)آل عمران / ٩٧.

ما أراد الانسان أن يصل الى كنوز الارض عمقا فلابد أن يتحدى وهو يقطع المسافة من السطح الى المعدن الطبقات المختلفة.

و هكذا إذا أراد اختراق الآفاق باتجاه القمر أو أي هدف آخر في السماء ، فانه سوف يواجه تحديات أكبر إذ لابد أن يصل إليه بالعلم أولا من قبل و صوله المادي إليه فربما يتحطم كما حدث في التجارب الأولية للانسان في هذا الحقل ، فهناك تحدي الجاذبيات ، و الطبقاتالتي يختلف بعضها عن بعض ، حيث تنعدم الجاذبية في بعضها ، و يرتفع الضغط في أخرى ، و ينعدم الأوكسجين في أكثرها ، بل يحتوي بعضها على غازات مضرة بالانسان ، و لعل معنى النفاذ وهو لا يكون إلا من المانع يدل على هذه التحديات و قد كشف العلم الحديث ولا يزال عنجانب من تلك التحديات ، و خبراء المحطات الفضائية الآن لا يرسلون الأقمار و الخبراء إلا بعد الدراسات المفصلة لطبقات الجو ، لكي يختاروا المكان الأضعف و المناسب للنفاذ منه.

و إذا ما استطاع الانس و الجن الانتصار على تلك التحديات فانهم ينفذون من الاقطار حيث يقول ربنا سبحانه : " فانفذوا . "

و هذا الفعل لييس فقط يفيد الامكان ، بل ينطوي حسب الظاهر على الدعوة و التحريض الى النفاذ ، فهي كقوله سبحانه : " فامشوا في مناكبها و كلوا من رزقه " ، و قوله : " قل سيروا في الأرض فانظروا " ، و قوله : " قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده و الطيبات من الرزق " ، و هكذا ينبغي للانسان ان يستفيد من قدراته في تسخير أكبر مساحة من هذه الكائنات التي خلقت من أجله ، فربما وجد بالاضافة الى المعرفة شفاء لكثير من أمراضه و حلا لمشاكله و أزماته في الآفاق.

هكذا يسعى الاسلام من أجل رفع الأغلال التي تضعها الفلسفات البشرية علىالنفس و العقل عن الانسان لينطلق نحو تطلعاته و أهدافه الكبرى . ولكن الاسلام الى جانب ذلك لا يطلق الثقة هكذا بلا حد لكي لا تصبح تمنيات و أحلاما ، إنما يؤكد ان الثقة وحدها لا تصل بالانسان الى طموحاته ، ولا تحقق أهدافه ، بلى . هي الوقود الدافع له من داخله، و حتى ينطلق في الواقع العملي ، لابد أن يحصل على سلطان ، و هو العلم الذي يتحول الى برنامج ، فقدرة فعلية.

]لا تنفذون إلا بسلطان[

اللام هنا ليست للنهي و إلا جاء الفعل بعدها مجزوما بحذف النون ، إنما هي للنفي ، و هذا يعارض قول من قال ان ظاهر الآية هو التحدي . نعم ربنا يتحدى الجن و الانس إذا حاولوا النفاذ من دون سلطان ، لان في الطبيعة قوانين و واقعيات ، و الهيمنة عليها و تسخيرهاممكن و لكن بما هو فوق ذلك كله من السلطان.

إن الانسان البسيط الذي يعيش على ساحل البحر ، و يأكل و يسترزق من صيده نهارا ثم يعود الى بيته ليلا كل يوم ، يطبق من القوانين و السنن الحياتية الشيء القليل ، أما الذي يعيش الحياة العلمية المعقدة ، كرائد الفضاء الذي يريد الصعود الى القمر ، أو الى كوكبآخر أرفع منه ، فانه لا ريب سيواجه عشرات الآلاف من القوانين ، فهو بحاجة الى معرفتها بدقة ليتسنى له القدرة على تسخيرها لأن أعظم و سيلة لتسلط الانسان على الطبيعة هي العلم ، و قد أنعم الله علينا بذلك كما أودع الطبيعة حالة الاستجابة لنا.

ثم ان التكذيب بواحد من القوانين او الحقائق الواقعية من قبلنا كفيل بأن يقطع الطريق علينا فلا نصل الى ما نريد.

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

إن من نعم الله علينا أن جعل نفاذنا من أقطار السماوات و الأرض ممكنا ، و جعل في ذلك خبرا كثيرا للبشرية ، و لكننا قد نكذب بهذه النعمة إذا كفرنا بهذه المقدرة رأسا كما فعل آباؤنا أو حققنا ذلك ثم سخرناه في الأمور الضارة كالتكبر في الارض ، أو إذا عصينا ربنا بدل شكره على هذه النعمة الكبرى ، و هو حينئذ سوف يعذبنا ولن نجد لنا وليا ولا نصيرا ، حيث تجبهنا نار بلا دخان شديدة اللهب عظيمة الحر.

]يرسل عليكما شواظ من نار و نحاس فلا تنتصران[

و لعل الآية هذه تشير هنا إضافة الى الفكرة الآنفة الى حقيقة علمية ، و هي الأخطار التي تعترض طريق الانسان في القضاء ، و تمنعه من الوصول الى النقطة التي يريد كالقمر ، و منها كما يصرح القرآن و يؤكده العلم الحديث الغازات المشتعلة . و الكتل المعدنية الملتهبة التي تسمى بالنيازك و الشهب ، و هذه هي الأخرى بالاضافة الى القوانين و الموانع الأخرى التي تمنع النفاذ ينبغي للانسان أن يتسلط عليها ، فيقاومها و ينتصر عليها أو يتجنبها .فاذا كفرنا بهذه السنة و حاولنا النفاذ بلا سلطان اعترضتنا هذه العقبة ..كذلك حين يكفر الانسان بواحدة من سنن الله في المجتمع و النفس فانه يكتوي بنار لاهبة . أجارنا الله من نقماته في الدنيا و عذابه في الآخرة.

ولمن خاف مقام ربه جنتان

هدى من الآيات

بعد ان يذكرنا القرآن بانشقاق السماء يوم القيامة ، و يعرض لنا في بضع آيات منه حال المجرمين وعذابهم (٣٥ / ٤٧) (ربما لان الاسهاب في ذلك لا ينسجم مع سياق السورة التي تكشف لنا عن تجليات اسم الرحمن في الخليقة) بعدئذ يستعرض بشيء من التفصيل التجليات الاعظم لرحمة الله ، و ذلك من خلال الحديث عن ثواب اهل الجنة و الذي يقع في (٣٣) آية كريمة تمتد الى آخر السورة.

ان ربنا رحيم وآلاء رحمته ظاهرة في الدنيا و الآخرة ، و لكن النظرة السلبية الناتجة من امراض النفس و عقدها ومن الفلسفات هي التي تعمينا عن هذه الحقيقة الجلية ، فاذا بنا ندس بناتنا في التراب خوف العيلة ، و نقتل اولادنا و نغل ايدينا عن العطاء ، ولا توفيالكيل والميزان ، و انما تبخس الناس اشياءهم كل ذلك خشية الفقر و نأكل اموال اليتامى ظلما ، كل ذلك لاننا لا نطمئن الى رحمة الله الذييبسط الرزق لمن يشاء ، و الذين نعمه لا تعد ولا تحصى ، و يعلم الله كم تسبب هذه النظرة الموغلة في السلبية في العقد و الانحرافات النفسية و الاجتماعية عند الانسان ، فهي التي تغل فاعلياته و يمنعه من السعي ، و لماذا يسعى وهو يائس من التوفيق و النجاح ؟

بينما النظرة الايجابية الى أسماء الله ، بالتعرف عليها و الايمان بها ، تملأ القلب أملا و رجاء و تبعث بالانسان نحو السعي و النشاط ، و تفجر الطاقات الكامنة في شخصيته ، انه حينئذ ينفق و يضحي في سبيل الله و من اجل مبادئه ، راضيا بما يفعل ، مطمئنا الى رحمة ربه ، و في الخبر " من ايقن بالخلف جاد بالعطية " (١) و كيف يوقن احد بالخلف فيعطي او يقلع من ذنوبه و اخطائه و هو لا يعرف ربه بالرحمة و الغفران ؟! لا ريب انه لن ينفق و لن يتوب.

و لذلك يسعى القرآن بمنهجيته الحكيمة التي يلمسها المتدبر في آياته مواجهة النظرة السلبية المقيتة ، و بث البصيرة الايجابية في ردع البشر تجاه ربه و حيث تدعونا هذه السورة الى التعرف على اسم) الرحمن) ، و تذكرنا بمظاهر هذا الإسم في الخليقة ، و الآيات الهادية اليه فانها تحذرنا من التكذيب بها ، بذكر جانب من عذاب المجرمين الذين صاروا الى الجريمة بسبب تكذيبهم كما ترغبنا في التصديق بها ، من خلال التفصيل في بيان جزاء الذين عرفوا الرحمن حق معرفته ، و قدروه حق قدره فخافوا مقامه.

بينات من الآيات

[38 - 37]يمكن للانسان في الدنيا ان يكذب بآلاء ربه (نعمه و آياته) أو يتملص من تطبيق الحق ، و يبرر ذلك بمختلف الحجج الواهية ، لأن الله أمهله فيها(١) بح / ج ٦ / ص ١٣٣.

و سمح له أن يفعل ما يشاء ، أما في الآخرة حيث يخلص الحكم لله ، فلا يملك إلا التسليم للحق ، قال تعالى : " و يوم تشقق السماء بالغمام و نزل الملائكة تنزيلا * الملك يومئذ الحق للرحمن و كان يوما على الكافرين عسيرا " (١) فمنظر القيامة بما فيه من تحولات كونية هائلة يعري الانسان من كل لبس

في شخصيته الفقيرة المحتاجة.

ان السماء هذا السقف العظيم الذي يحفظ الناس و يظلهم تفقد تماسكها يوم القيامة ، و يتبدل لونها من الزرقة الى الحمرة تشبه في ذلك الوردة الحمراء ، "و انشقت السماء فهي يومئذ واهية " (٢) ثم تذوب و تسيل " يوم تكون السماء كالمهل " (٣) حتى تضحى دهانا ، و هو ما يستخرج من الورد بعد غليه و عصره.

]فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان[

لعل سبب تشبيهها بالوردة لانها ليست قطعة واحدة ، بل عدة قطع منشقة عن بعضها ، ذات صبغة حمراء ، يجمعها الاصل ، و لان السماء (السقف المرفوع) هي رمز الأمن و السلام ، فان انشقاقها يؤذن بالأخطار و الخوف ، و لهذه الآية اتصال وثيق بالآية (٣٥) " يرسلعليكما شواظ من نار و نحاس فلا تنتصران " ذلك ان الغلاف الجوي - احد طبقات السماء - هو الذي يمنع عنا النيازك و الغازات الحارقة ، و لو حدث - لا سمح الله - أن انشق فان الارض ستكون عرضة لتلك الاخطار ، و يقول العلماء : لو فتحت ثغرة في الغلاف الواقي -لنفترض مثلا بمساحة كيلو متر مربع واحد - فان الارض تحته لا تصلح للحياة أبدا .. لما تنهال عليها من خلال تلك الثغرة من اشعة ضارة او نيازك حارقة مدمرة.

و هل لنا ان نفهم من هذه الحقيقة العلمية شيئا بسيطا عن طبيعة الحياة حينما(١) الفرقان / ٢٥ - ٢٦.

(2)الحاقة / ١٦.

(3)المعارج / ٨.

تنفطر السماوات السبع و تستحيل لهبا و مهلا ؟!

ان احدا لا يملك يومئذ أن يكذب بهذه الآية من آيات الله ، و التي تظهر هيمنته ، و ضرورة التسليم له - وهو لو شاء لجعلنا نصدق بآلائه و آياته بالقوة - وهو القائل : " طسم * تلك آيات الكتاب المبين * لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين * إن نشأ ننزل عليهمآية من السماء فظلت أعناقهم لها خاضعين " (١. (

و لكن رحمته تأبى ذلك كما أن حكمته من خلقنا في الحياة الدنيا و التي صرح بها بقوله : " الذي خلق الموت و الحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا " (٢) لا تتفق مع هذا النهج.

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

[40 - 39]بلى . ان احدا لن يجرأ حينها على التكذيب أبدا ، بل يخضع الجميع خضوعا مطلقا للحق " فتول عنهم يوم يدع الداع الى شيء نكر * خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كانهم جراد منتشر * مهطعين الى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر " (٣) ولا يجرأأحد حتى على الكلام ، إلا بعد اذن سبق من الله " يوم يأت لا تكلم نفس إلا باذنه فمنهم شقي و سعيد " (٤) فكيف يستطيع احد ان يكذب ربه ذلك اليوم ؟! بلى . قد يؤخر العذاب عنهم في الدنيا فيجدون فرصة للتكذيب ، و التبرير ، و إخفاء ذنوبهم . أما يوم القيامة فهو - سبحانه - محيط بهم من كل جانب.

(1)الشعراء / ١ - ٤.

(2)الملك / ٢.

(3)القمر / ٦ - ٨.

(4)هود / ١٠٥.

]فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان[

و يكفي بهذا رادعا لنا عن المعاصي ، و التكذيب بالنعم و الآيات ، الذي هو من أكبر الذنوب.

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

[42 - 41]ان المحاكم في الدنيا تقام من اجل معرفة المجرم ، اما في الآخرة فهي تقام لغرض آخر ، وهو اثبات العدالة الالهية اثباتا عمليا للخلق ، فليس معنى" لا يسأل " انهم لا يحاكمون البتة ، لان الله يقول : " ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى و ربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون " (١) و قال : " احشروا الذي ظلموا و ازواجهم وما كانوا يعبدون * من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم * و قفوهم انهم مسؤولون. (2) "

عن الذنوب هل هي من قبلهم أم لا .. فهم معروفون عند الله . و لكن هذا الايقاف ليس لسؤالهم و انما السؤال للتبكيت و التقريع . اذا لا ينبغي أن تختفي وراء جدر التبرير و الأعذار لاننا لن نجد مجالا يومئذ لبيانها حتى تقبل أو ترد.

و قيل : ان فريقا من المجرمين وهم أئمة الاجرام و الكفر و الموغلين في الانحراف لا يسألون حتى مجرد السؤال و انما يؤمر بهم الى جهنم مباشرة حيث العذاب ، ولا يعطون فرصة لسؤالهم إمعانا في تحقيرهم و إهانتهم و عذابهم ، قال رسول الله (ص) : " ان الله عزوجل يحاسب كل خلق إلا من أشرك بالله عز وجل فانه لا يحاسب ، و يؤمر به الى النار (3) " و قال : " ستة يدخلون النار بغير حساب منهم الامراء(١) الانعام / ٣٠.

(2)الصافات / ٣٢ - ٣٤.

(3)بح / ج ٧ / ص ٢٦٠

بالجور " (١) و قال الصادق (ع) : " ثلاثة يدخلهم الله النار بغير حساب ، امام جائر ، و تاجر كذوب ، و شيخ زان " (٢. (

و السؤال كيف يعرف المجرمون يوم القيامة ؟!

ان الله يعرفهم بعلمه الذي احاط بكل شيء ، و من خلال كتب اعمالهم ، ثم ان يوم القيامة هو التجلي الاعظم للحقائق ، فالذي ياكل أموال اليتيم بالباطل انما يأكل في بطنه نارا و هذه الحقيقة تتجلى يومئذ لكل الناس ، حيث يشاهده العالمون و النار تشتعل في بطنه اشتعالا.

كما ان الذي يمارس الجريمة - أية جريمة - فانها تترك أثرا على شخصيته ، بيد ان الحقيقة خافية على الناس في الدنيا ، أما في الآخرة حيث تبلى السرائر فانها تظهر على الملأ لا تخفى منه خافية ، فإذا به ياتي مسودا وجهه كقطعة من ليل دامس الظلام ، و في المقابلترى المؤمنين و المؤمنات مبيضة و جوههم " يسعى نورهم بين أيديهم و بايمانهم " (٣) " يوم تبيض وجوه و تسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون " (٤) هذه عاقبة الكفر . و قد ثبت علميا ان الجريمة تترك أثرها على فاعلها ، كالارتباك ، و التلعثم في الكلام اثناء الاستجواب مما يعكس حالة نفسية معينة تخلقها الجريمة عنده ، و لعل العلم اذا تطور و تقدم يلحظ اثارا مادية على شخصية الانسان كالوان لا تلحظ بالعين المجردة تعلو الوجه..

(1)ميزان الحكمة / ج ٢ / ص ٤١٩ عن كنز العمال ح (٤٤٠٣٠. (

(2)بح / ج ٧٥ / ص ٣٣٧.

(3)الحديد / ١٢.

(4)آل عمران / ١٠٦.

ان ذلك حقيقة واقعية في الدنيا و الآخرة ، و لكن الفرق بينهما اننا في الدنيا محجوبون عن رؤية تلك الآثار بوضوح كاف ، أما في الآخرة فيكشف عنا الغطاء فاذا ببصرنا حديد ، و حتى في الدنيا لو تطور علمنا باتجاه اليقين لتكشف لنا الكثير من الحقائق المغيبة.

]يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي و الاقدام]و يجرون الى النار حيث يعذبهم ملائكة شداد غلاظ و الناصية هي مقدمة الرأس ، و هذا العذاب جزاء تكذيبهم بالحقائق الربانية و الآيات الدالة عليها و من بينها النار ، فلم يحتسبوا انهم مواقعوها فيستعدوا ، و يعملوا للخلاص من حرها ، فوقعوا فيها ، و ربنا يحذرنامن التكذيب بها.

]فبأي ءالآء بكما تكذبان[

[45 - 43]و الآيات السابقة تشير الى امكانية تعاون الجن و الانس في المعصية و التكذيب ، و هذا امر واقعي ؛ لأن أبالسة الجن من المكذبين بالله هم الذين يوسوسون في صدور الناس ، و يثيرون في البشر عوامل المعصية و الانحراف ، لذلك أمرنا الله بالاستعاذة " من شر الوسواس الخناس * الذي يوسوس في صدور الناس * من الجنة والناس " (١) ، بل قد يصل التعاضد بينهما على التكذيب الى الحد المادي ، قال تعالى حاكيا عن الجن : " و انا ظننا أن لن تقول الإنس و الجن على الله كذبا * و أنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا * و انهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا " (٢) و الشعوذة و السحر القائمان على التكذيب بالله و بآياته هما من صور التعاون بين الاثنين.

(1)الناس / ٤ - ٥.

(2)الجن / ٥ - ٧.

و لكن مهما كذب الفريقان بالحقائق الواقعية كالنار و تعاونا على ذلك ، فانها لن تتبدل و لن تنتفي أبدا ، فالنار موجودة و ان كذبتا بها ، بها كما ان تكذيب بعض السوفسطائيين بواقعية الخلق لا يحيله خيالا ، بل ان التكذيب بالنار يجعلها أقرب و أشد على المكذبينبها ، و يوم القيامة يؤتى بالمجرمين مأخوذين من نواصيهم و أقدامهم الى جهنم ، و يقال لهم:

]هذه جهم التي يكذب بها المجرمون [

فيرونها عين اليقين ، و يصدقون بها بعد طول تكذيب ، و لكن ماذا ينفعهم الإعتراف حينئذ ، بلى . اذا عرف الانسان بالخطر قبل وقوعه فيه ، و كانت ثمة فرصة يستغلها للنجاة ينفعه علمه . بيد ان هؤلاء كذبوا فعلا بآيات الله الدالة الى هذا الحق ، فصاروا من حطب جهنم و وقودها ، فتراهم ينتقلون بين النار و الحميم.

]يطوفون بينها و بين حميم ءان[

اي بالغ الحدة : حرارة و غليانا ، و منه آنت الثمرة : اذا نضجت و اينعت ، و المجرمون في طواف دائم ، تسوقهم الملائكة بين جهنم النيران (أشدها حرارة) و بين السوائل المغلية الى درجات عالية من الحرارة ، و ان المجرم يحترق بالنار ، و يفقد سوائل جسمه ، فيسعى لشرب الماء فيجسده حميما ، و

هذا هو حال النعمة حينما يفرط فيها الانسان ، فيكذب بها ، و ينسبها الى غيره شركا ، او يستخدمها في المعصية ولا يؤدي حق شكرها ، و حري بنا أن نصدق بآلاء الرحمن ، و نؤدي واجبنا تجاهها . انها رحمة من الله فأما أن نصيرها نقمة أونجعلها رحمة أكبر و أوسع ، تنمو في الدنيا و نتلقاها أضعافا مضاعفة في الآخرة.

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

[47 - 46]و ينتهي السياق يحدثنا عن جزاء اولئك الذين عرفوا ربهم حق معرفته عرفوه بانه الرحمن فصدقوا بآلائه ، و رغبوا في رحمته قلبا ، و سعوا اليها عملا ففتحت لهم ابوابها في جنة عرضها كعرض السماوات و الارض.

و هكذا يطبع السياق صفة ثنائية على آيات هذه السورة (الشمس و القمر و النجم و الشجر ، و السماء و الميزان ، و الفاكهة و النخل ، و الحب و الريحان ، و الانس و الجان ، و الصلصال و النار و البحرين ، و اللؤلؤ و المرجان) الى ان يحدثنا عن صنفين من الناس فيسلوكهم و جزاء الله لهم ، و هم المجرمون الذين انتزعوا من قلوبهم خشية الخالق ، فصاروا لا يتناهون عن منكر ، و يحدثنا في مقابلهم عن الخائفين ، الذين براهم خوف الله بري القداح.

و هذا منهج سائد في كتاب ربنا حيث يذكرنا بالفارق بين المتقين و الفجار عبر بيان ا لفوارق الأشياء المختلفة لنزداد و عيا بهذه المفارقة ، و تصديقا بآثارها في الآخرة.

و للثنائية التي صبغت بها آي سورة الرحمن فائدة اخرى تلك هي العلم بالفوارق الممتدة بين الأشياء ، فعندما يكون المرء جاهلا يرى الأشياء المختلفة بلون واحد ، و لكنه كلما تقرب الى العلم كلما بدت له الفوارق أكثر وضوحا و عددا ، فالغازات كلها عند الانسان تنضوي تحت اسم عريض هو الهواء ، و اذا به الآن وقد تقدم به العلم تزيد على مئات الأتواع ، كما ان هذه الثنائية تدلنا على الحاجة ايضا ، حيث يحتاج كل اثنين الى من يدبر امرهما اذن فهذه الثنائية بين المخلوقين تهدينا الى الثنائية المطلقة بين المخلوق و الخالق.

]و لمن خاف مقام ربه جنتان[

هؤلاء لا يعبدون الله خوفا من النار فقط و لا طمعا من الجنة فحسب - و ان كان ذلك بعض تطلعاتهم - و لكن دافعهم الاساس للعبادة هي المعرفة اليقينية العميقة بربهم - عز وجل - اذ انهم وجدوه أهلا للعبادة فعبدوه ، قال أمير المؤمنين)ع) : " فتلك عبادة الاحرار ، و هي أفضل العبادة " و قال زين العابدين (ع " : (اني أكره ان اعبد الله ولا غرض لي إلا ثوابه ، فأكون كالعبد الطمع المطمع ، ان طمع عمل و الا لم يعمل (و) اكره أن (لا) أعبده إلا لخوف عقابه ، فأكون كالعبد السوء ان لم يخف لم يعمل " .. قيل : فلم تعبده ؟ !قال : " لما هو أهله بأياديه علي و انعامه " (١) و يبين الامام الرضا (ع (خلفية هذا النهج في العبادة اذ يقول (ع) : " لو لم يخوف الله الناس بجنة ونار لكان الواجب عليهم ان يطيعوه ولا يعصوه ، لتفضله عليهم ، و احسانه اليهم ،و ما بدأهم به من انعامه الذي ما استحقوه " (٢. (

و الامام الصادق (ع) يشير الى الدوافع الحقيقية لسلوك هذا الفريق الا وهو العلم و المعرفة ، فيقول : " من علم ان الله عز وجل يراه ، و يسمع ما يقوله و يفعله من خير أو شر ، فيحجزه ذلك عن القبيح من الاعمال ، فذلك الذي خاف مقام ربه ، و نهى النفس عن الهوى " (٣. (

و حتى لو خشي هؤلاء النار ، أو طمعوا في الجنة فليس لذاتيهما ، بل لان الأولى تبعدهم عن الله ، و الثانية تقربهم الى مقامه تعالى في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، و الامام علي (ع) يقول في مضمون حديث : لو علمت ان رضا الله في ان ألقي بنفسي في النار لفعلت ، ولو علمت ان رضى الله في أن ألقي بنفسي من على شاهق لفعلت.

(1)بح / ج ٧١ / ص ١٧٤.

(2)المصدر / ص ٢١٠.

(3)أصول الكافي / ج ٣ / ص ١٢٦.

ولان هذا الفريق من العباد خافوا ربهم في الدنيا استحقوا أمنه و جناته في الآخرة.

قال رسول الله (ص) : " قال الله تبارك و تعالى : و عزتي و جلالي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين ، فاذا أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة يوم القيامة ، و إذا خافني في الدنيا آمنته يوم القيامة " (١. (

و هؤلاء يستحون من ربهم ، و يخافون شهوده في السر و العلانية ، و الجنتان التي يعطيها الله لهم هي في مقابل العذابين (جهنم و الحميم) اللذين يطوف بينهما المجرمون.

قال البعض : ان هؤلاء هم أرفع المؤمنين درجة و مقاما ، حيث لا يرقى الأدنى الى منزلة الأرفع فان الله أعطاهم جنتين ، جنة تخصهم و أزواجهم ، و جنة يستقبلون فيها المؤمنين كدار للضيافة ، و قال قائل : الجنة الأولى داخل بيته و الثانية خارجه ، و قال آخرون : ان الاولى جزاء أعمالهم و الاخرى زيادة و فضلا من عند الله ، و قيل : ان الاولى جزاء اعمالهم و سلوكياتهم ، و الثانية جزاء ما انطوت عليه قلوبهم من العلم و المعرفة ، و نفوسهم من الايمان و التصديق ، و الذي يظهر من عموم القرآن ان للمؤمنين أكثر من جنتين قال تعالى : " ومن يطع الله و رسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار " (٢. (

و قوله : " جنتان " يخص بالذكر اثنتين تتميزان عن سائر الجنات ، و هما جنة عدن وجنة الفردوس ، أو جنة عدن و النعيم ، أو هي الخلد و المأوى.

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٩٦.

(2)النساء / ١٣.

بعد بيان مقام الخائفين من مقام ربهم يطرح القرآن هذا التساؤل ، ربما ليقول لنا بان السبل مشرعة للجميع لو ارادوا الوصول الى هذه المنزلة الرفيعة ، لأن الله لم يجعلها حكرا على أحد ، و لكن يشترط أن لا يكذب بآلاء ربه ، فذلك يحرمه منها.

[49 - 48]و يشوقنا الوحي الى تلك الجنتين ، اذ يرينا صورا رائعة عنهما و يكتسب التشويق أهميته من كونه اذا تفاعل معه السامع ، و صدق به ، يتحول الى ما يشبه الوقوف في داخل الانسان ، يدفعه بفاعلية قوية و عميقة الى العمل على تحقيق الغاية المطلوبة منه.

و البشر يخشى الإجرام و يتجنبه مرة لانه يؤدي الى جهنم ، و مرة لأنه يخسر الانسان قربه من ربه و ثوابه الجزيل.

]ذو اتا أفنان[

اشارة الى صفتين لتينك الجنتين ، احداهما : كثرة الأغصان ، و العرب تقول للغصن فنن و جمعه أفنان ، و

هي لاشك تدخل على النفس البهجة و السرور ، بالنظر الى خضرتها و كثافتها ، و كثرة الأغصان تدل على نوع معين من الأشجار غير ذات السوق كالنخل ، و الشجر تلك تكون أكثر استيعابا لثمر ، كما انها تلقي بظلها على الارض ليجد المؤمنون لذة الجلوس في الظلال ، " متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا * و دانية عليهم ظلالها و ذللت قطوفها تذليلا " (١) " هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون " (٢) و الصفة الثانية : التنوع ، قال صاحب المنجد : أفنان ، و فنون ، و أفانين : الضرب من الشيء أو النوع (٣. (

(1)الانسان / ١٢ - ١٤.

(2)يس / ٥٦.

(3)راجع معنى (فنن) المنجد.

و يعود السياق هنا - وبعد ذكر كل نعمة في الجنة - ليشقي قلوبنا من داء التكذيب بآلاء الله ، و هذا هو طبيعة منهج القرآن : انه لا يجعل الحديث عن المستقبل الغائب مجردا و بعيدا عن واقعنا ، بل يوصله بنا ، و يسعى من خلال ذكره الى علاج مشاكلنا ، و دفعنا باتجاه ايمان و معرفة أكثر و أعمق ، و هو في هذا المورد يريد القول بان ذلك النعيم نتيجة شكر نعيم الدنيا.

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

و يصرح القرآن بهذه الحقيقة بعد حديث مفصل عن الجنة في سورة الانسان قائلا " : ان هذا كان لكم جزاء و كان سعيكم مشكورا " (١) بل هي التجلي الأعظم لقول الله : " واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد (2) " اذا لندعالتكذيب بآلاء الله.

[51 - 50]و تطمع نفوسنا المجبولة على حب الاستطلاع في معرفة المزيد من الجنتين ، فيقول ربنا:

]فيهما عينان تجريان[

العين في الدنيا تتصل بمخازن الماء في الأرض و كلما استنزفت ملأتها المخازن ، و لكن الله لا يقول " عينان " و حسب ، بل يضيف " تجريان " و توحي هذه الجملة بان الماء هناك في حركة دائمة مما تزيد المنظر روعة و جمالا.

ولا يذكر القرآن ما في العينين : هل هو الماء ، أم اللبن ، أم الخمر ، أم العسل ، أم هو شيء آخر ؟ والابهام يزيد النفس شوقا ، و الله يبهم قاصدا وهو القائل : " فلا(١) الانسان / ٣٢.

(2)ابراهيم / ٧.

تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون " (١)فيا حسرة على العباد يتحبب لهم ربهم فيتبغضون اليه ، و يتقرب منهم فيبتعدون عنه ، و يفتح لهم أبواب رحمته ثم يدعوهم اليها فيعرضون ، و يكذبون ، و هو لا يزال يتلطف بهم ، لا يسخط من تكذيبهم ، ولا يعرض عنهم بانحرافهم عن آلائه بل يكرر عتابه.

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

وله العتبى حتى يرضى ، انه لا يحتاج الى تصديقنا به ، و شكرنا لآلائه فذلك لا يزيده شيئا ، كما لا ينقص كفرنا و تكذيبنا من مقامه تعالى شيئا ، انما نحن المحتاجون اليه.

[53 - 52]و جانب آخر من نعيم الجنتين الأكل ، و القرآن لا يحدثنا عن أوليات النعمة (الاشياء الضرورية) انما يحدثنا عن تمامها) الكماليات) و هي الفواكه ، مؤكدا بأنها الأخرى موجودة وفي غاية الكمال ، كثرة و تنوعا.

]فيهما من كل فاكهة زوجان[

فليس ثمة فاكهة إلا وهي موجودة ، و الفاكهة بالإضافة الى فائدتها المادية للجسم ، فهي لها نكهة و لذة خاصة يجدها الانسان في منظرها على المائدة أو في الشجرة ، حيث الأشكال و الألوان البديعة ، و في روائحها الطيبة و مذاقها اللذيذ ، و لعل اسمها مشتق من الفاكهة و التفكه و هو حديث ذوي الأنس و السرور.

و السؤال : ما معنى " زوجان "؟

(1)السجدة / ١٧.

قيل :من كل نوع صنفان ، احدهما يشبه الذي في الدنيا ، و الآخر يختلف عنه في حجمه و مذاقه و ألوانه ، مما يختص بالآخرة و هو الأفضل ، قال تعالى : " و بشر الذين آمنوا و عملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها (1) "و قد يكون المعنى من الزوجين : أي ان ما في الجنة الأول موجود في الثانية ، فيكون المقصود المقابلة أو يكون المعنى : نوعين من الفاكهة الواحدة ، و يحتمل معنى التكامل ، بحيث تجد لكل فاكهة اخرى تكملها شكلا و فائدة ، و كما نعيم الجنة يكمل بعضه بعضا ، كذلك عذاب النار ، فجهنم يكملها الحميم الآن.

و هذا النعيم لا يحصل عليه إلا من عرف الرحمن ، و قدره حق قدره ، فصدق آلاءه ، و خاف مقامه.

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

و هذه الآيات تؤكد أن الحديث عن الجنة و النار حق و ليس مجرد إثارة لحالة الطمع و الخوف عند البشر - كما يزعم البعض - ذلك ان ربنا غني عن مخالفة وعده ، أو بيان ما ليس بحق ، و ان قدرته في موضع الرحمة ، أو في موضع النكال و النقمة مطلقة لا يحدها شيء ، " انما أمره إذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون " (٢) و لكن مشكلة الإنسان أنه يقيس الأمور على قدره ، و حسب قدراته و فهمه المحدودين ، فلأنه لا يستطيع إحياء الموتى يشكك في البعث ، ولأنه محجوب عن علم المستقبل وما لا يراه ، تراه يرتاب في الغيب أو يكفربه ، و هذا نوع من الشرك الفكري ، قال تعالى : " وما قدروا الله حق قدره و الارض جميعا قبضته يوم القيامة(١) البقرة / ٢٥.

(2)يس / ٨٢.

و السموات مطويات بيمينه سبحانه و تعالى عما يشركون " (١)و حتى يتجاوز الانسان هذا الشرك الذي يقوده الى التكذيب بآيات الله ، يجب أن ينظر الى الامور ، و بالذات الحقائق الكبيرة من خلال الايمان بقدرة الله المطلقة ، "وما قدروا الله حق قدره ان الله لقوي عزيز " (٢. (

[55 - 54]بلى . ان الجنة حق ، كما الوجود حق ، و كما الموت حق ، و الذين يدركون هذه الحقيقة ببصائرهم ، و ينفذ نور الايمان بالله الى كل ابعاد قلوبهم ، فانهم لا يعرفون وقفة عن العمل الصالح ، و الكلم الطيب حتى الرمق الاخير ، انهم صيح بهم فانتبهوا ، و علموا ان الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، وما تركوا لحظة تمر عليهم من ليل ولا نهار ، إلا ازدادوا فيها ايمانا و عملا في سبيل الله ، لانهم ادركوا بان الحياة الدنيا فرصة محدودة يخسرها من يغفل عنها.

و اليك برنامجهم في الحياة عن لسان أميرهم و سيدهم الامام علي (ع: (

"أما الليل فصافون أقدامهم ، تالين لأجزاء القرآن ، يرتلونها ترتيلا ، يحزنون به أنفسهم ، و يستثيرون به دواء دائهم ، فاذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا اليها طمعا ، و تطلعت نفوسهم اليها شوقا ، و ظنوا انها نصب اعينهم ، و اذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم ، و ظنوا أن زفير جهنم و شهيقها في أصول آذانهم ، فهم حانون على أوساطهم ، مفترشون لجباههم و أكفهم و ركبهم ، و أطراف أقدامهم ، يطلبون الى الله تعالى في فكاك رقابهم ، و أما النهار فحلماء علماء ، أبرار أتقياء ، قد براهم الخوف بري القداح ينظر اليهم الناظر فيحسبهم مرضى ، و ما بالقوم من مرض و يقول : لقد خولطوا!

(1)الزمر / ٦٨.

(2)الحج / ٧٤.

و لقد خالطهم أمر عظيم ! لا يرضون من أعمالهم القليل ، ولا يستكثرون الكثير ، فهم لأنفسهم متهمون ، و من أعمالهم مشفقون . اذا زكي أحد منهم خاف مما يقال له ، فيقول : أنا أعلم بنفسي من غيري ، و ربي أعلم بي مني بنفسي ! اللهم لا تؤاخذني بما يقولون ، و اجعلنا أفضل مما يظنون ، و اغفر لي مالا يعلمون.

فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين ، و حزما في لين ، و أيمانا في يقين ، و حرصا في علم ، و علما في حلم ، و قصدا في غنى ، و خشوعا في عبادة ، و تجملا في فاقة ، و صبرا في شدة ، و طلبا في حلال ، و نشاطا في هدى ، و تحرجا عن طمع ، يعمل الأعمال الصالحةوهو على وجل ، و يمسي وهمه الشكر ، و يصبح وهمه الذكر ، و يبيت حذرا ، و يصبح فرحا ، حذرا لما حذر من الغفلة ، و فرحا بما أصاب من الفضل و الرحمة ، ان استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحب ، قرة عينه فيما لا يزول ، و زهادته فيما لا يبقى . يمزج الحلم بالعلم ، و القول بالعمل . تراه قريبا أمله ، قليلا زلله ، خاشعا قلبه ، قانعة نفسه ، منزورا أكله ، سهلا أمره ، حريزا دينه ، ميتة شهوته ، مكظوما غيظه . الخير منه مأمول ، و الشر منه مأمون . ان كان في الغافلين كتب في الذاكرين ، و ان كان في الذاكرين لم يكتب من الغافلين . يعفو عمن ظلمه ، و يعطي من حرمه ، و يصل من قطعه . بعيدا فحشه ، لينا قوله ، غائبا منكره ، حاضرا معروفه ، مقبلا خيره ، مدبرا شره ، في الزلازل وقور ، و في المكاره صبور ، وفي الرخاء شكور . لا يحيف على من يبغض ، ولا ينسى ما ذكر ، ولاينابز بالألقاب ، ولا يضار بالجار ، ولا يشمت بالمصائب ، ولا يدخل في الباطل ، ولا يخرج من الحق . ان صمت لم يغمه صمته ، و ان ضحك لم يعل صوته ، و ان بغي عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له . نفسه منه في عناء ، و الناس منه في راحة . أتعب نفسه لآخرته ،و أراح الناس من نفسه بعده عمن تباعد عنه زهد و نزاهة ، و دنوه ممن دنا منه لين و رحمة . ليس تباعده بكبر و عظمة ،ولا دنوه بمكر و خديعة " (١. (

هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فانهم ينوون مواصلة التعب شكرا لله ، و لكنهم فور ما يسجدون يخاطبهم الجليل الاعلى ليس هذا يوم تعب و عبادة ، انها دار الراحة و الحصاد بعد تعب الدنيا و عملها.

]متكئين على فرش بطائنها من إستبرق[

أي داخل المتكأ و حشوه من الديباج الغليظ ، و الإستبرق كما قالوا : كلمة معربة من قولهم : (ستبرك] وهو مصغر (ستبر) بمعنى الثخين الغليظ ، و قالوا : ان ما كان حشوه حريرا خالصا فظاهره يكون كذلك بالاحرى (٢. (

و الآية بكل مفرداتها و ايحاءاتها تعبير بليغ عن اقصى غايات الراحة ، فهم متكئون و على فرش الحرير الناعم البارد و المريح ، و من حولهم كل صنوف الفواكه ، و من تحتهم الانهار بأنواعها ، و تظلم الأغصان النضرة الخضراء الندية.

]و جنى الجنتين دان[

الانسان في الدنيا لا يحصل على شيء إلا بالتعب و بذل الجهد ، و الفلاح لا شك انه يلغى تعبا في الحصاد و قطف الثمار ، لان بعضها بعيد عن متناول يده ، فلابد أن يتمطى لقطفها أو يركب الشجرة أو يستخدم وسيلة لذلك أي انه لابد ان يبذل جهدا اما في الآخرة فان ثمرالجنة متدل قريب متى ما اشتهى المؤمن شيئا منه تناوله بيده عن قرب و دنو ، أو يتدلى اليه الغصن بقدرة الله ، فهو لا يتعب من أجل ذلك ، و في كلمة ايحاء بأن الثمر في غاية النضج ، و على الدوام ولا يتلف ، يقال دنت(١) نهج / خ ١٩٣ / ص ٣٠٣.

(2)تفسير الرازي / ص ٢٦ / ج ٢٩.

الثمرة إذا نضجت و اقترب قطافها.

و السؤال الذي يطرح نفسه هو : لماذا حدثنا ربنا بصيغة المضارعة عن الاتكاء ، و الحال كما نفهم ان الصيغة يجب ان تكون للمستقبل (سيتكئون) ؟

الجواب :لان المتكلم هو الله ، و ما يريده الله و يعد به يحدث لا محالة ، و سواء عنده تحدث بصيغة الماضي أو الحاضر أو المستقبل ، لأنه قادر فعلا على تحقيقه ، مثل قوله على صيغة الماضي : " و أدخلناهم في رحمتنا انهم من الصالحين " (١) أو بصيغة المستقبل كقوله تعالى : " و الذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الانهار " (٢) او بكليهما : " أتى أمر الله فلا تستعجلون " (٣) فقد أكد وقوع امره بصيغة الماضي " أتى " حتى لكان أمره وقع فعلا ، و لكنه استدرك قائلا : " فلا تستعجلوه " دلالة عدم تحقق وقوعه.

نعم . بالنسبة للمخلوق لا يصح منه القول : فعلت أو سأفعل اذا كان يريد شيئا في المستقبل ، لان ارادته محدودة باطار مشيئة الله ، و قد تعجزها الظروف و العقبات " وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات و لا في الأرض انه كان عليما قديرا " (٤. (

و بعد ان يشير القرآن الى اتكاء المتقين الخائفين مقام ربهم على فرش الحرير ، بين صنوف الفواكه الدانية يوجه خطابه الى الثقلين : بماذا تكذبان من هذه الآلاء الربانية ؟

(1)الانبياء / ٨٦.

(2)النساء / ٥٧.

(3)النحل / ١.

(4)فاطر / ٤٤.

هكذا بعد ذكر كل نعمة من نعيم الآخرة يأتي هذا التساؤل ليهدينا الى ضرورة حمد الله و شكره على آلائه في الدنيا عند كل خير و نعمة.

]فبأي ءالاء ربكما تكذبان[

] [57 - 56]فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان]جاء في المنجد " :الطمث : الدنس و الفساد " (١) و سمي دم الحيض طمثا لفساده ، و حيث ان البكارة عنوان الطهر و العفة عند المرأة ، فان افتضاض بكارتها ، و خروج الدم دليل فساد المرأة أو فساد بكارتها التي تذهب بذلك ، ولا ريب ان الواحد يأنس بالبكرو يرغب اليها أكثر من الثيب ، و حور كل جنة انما خلقن لصاحبها لا يسبقه اليهن احد

من الخلق ، و حيث يأتيهن يرى علامة ذلك فهن طاهرات.

و لكن لماذا يقول الله " ولا جان " ؟ ربما لان الجنة للمؤمنين من الإنس و الجن ، فإراد التأكيد على عدم سبق أحد اليهن ، و التأكيد على الطهارة الشاملة ؛ ذلك أن الشيطان يوسوس للمرأة ، و يثير غلمتها عبر الخيال ، و بالذات حين بلوغها ، و قد تنتهيبها تلك الوساوس حتى تفض بكارتها بصورة أو بأخرى ، و لذلك جاء في القرآن الامر بالتعوذ منه.

و يسبق تأكيده تعالى على طهارتهن (المادية) بعدم الطمث ، بيان لطهارتهن المعنوية ، فهن قد قصرن طرفهن (العيني و النفسي) من غير أزواجهن ، قال أبو ذر رضي الله عنه : " انها تقول لزوجها : وعزة ربي ما أرى في الجنة أخير منك ، فالحمد لله الذي جعلني زوجك و جعلك زوجي " (٢) و هكذا حال الطاهرات العفيفات من(١) راجع مادة طمث.

(2)نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٩٨.

النساء ، و حال الأزكياء من الرجال انهم يمنعهم خوف مقام ربهم ان يمدوا عيونهم الى ما حرم الله عليهم ، و اذا كان الأمن في الآخرة جزاء خوفهم في الدنيا ، و الراحة (اتكاؤهم على الفرش) جزاء تعبهم و عملهم الدؤوب فيها ، فان تلكم الحور جزاء لطهارتهم في الدنيا، بغضهم من أبصارهم ، و ترفعهم عما حرم الله ، استجابة لدعوته ، و التزاما برسالته " قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم و يحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون " (١) و لعلنا نهتدي من علاقة قصر الطرف بالطمث ، ان النظرة المحرمة قد تنتهيالى الزنا ، و ذلك مضمون روايات كثيرة ، منها قول نبي الله عيسى (ع) : " لا تكونن حديد النظر الى ما ليس لك فانه لن يزني فرجك ما حفظت عينك ، فإن قدرت ان لا تنظر الى ثوب المرأة التي تحل لك فافعل " (٢) و ربما نهتدي بذلك الى ان الجنتين ليستا منزلالمن خاف ربه من الرجال فحسب ، بل حتى للمؤمنات العفيفات ، اللواتي منعهن خوف الله حتى من مجرد النظر الحرام فهن من السابقات الطاهرات ، و ربنا يجعلهن يوم القيامة سيدات نسائها ، و أعظم جمالا ، جزاء تقواهن و طهارتهن ، حيث يجعلهن كالياقوت و المرجان ، ولا ريبان ذلك مما تتطلع اليه كل انثى.

جاء في تفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٢٠١ نقلا عن كتاب من لا يحضره الفقيه عن الامام الصادق (ع) : " الخيرات الحسان من نساء أهل الدنيا ، و هن أجمل من الحور العين. "

و معنى قوله : " لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان " انهن في الجنة يرجعن أبكارا على الدوام ، بحيث اذا جاءهن اترابهن من المتقين وجدوهن ابكارا ، لم يسبقهم أحد اليهن ، أو ان المعنى ، بالطمث المحرم ، فهن بعيدات عن ذلك ، و لم يتورطن(١) النور / ٣٠.

(2)تنبيه الخواطر ، و نزهة النواظر) مجموعة ورام) ج ١ / ص ٦٢.

فيه ماديا ولا معنويا ، فهن من الزوجات التي وعد المتقون : " وأزواج مطهرة (1) " كما تشمل الآية قاصرات الطرف من الحور اللواتي يخلقهن الله للمتقين خصوصا ، و لكن المعنى قد يكون : أنهن قصرن أنظارهن عن غير أزواجهن ، و ان عدم الطمث يكون مطلقا ، فهنأبكار في الجنة و لم يقض بكارتهن أحد قبلهم.

و بالعودة الى أول الآية ، و مقارنتها بالآيات السابقة (٤٨ - ٥٠ - ٥٢) نجد الخطاب بالتثنية " ذواتا ، فيهما " عطفان على الجنتين ، و لكنه هنا جاء بصيغة الجمع " فيهن " و ذلك اما وصلا بالحديث عن الفرش و هو قريب ، حيث يجلس المؤمنون معهنعليها ، قال تعالى : " متكئين على سرر مصفوفة و زوجناهم بحور عين " (٢) وقال : " هم و أزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون * لهم فيها فاكهة و لهم ما يدعون " (٣) و هذا العطف يشبه وصله الآية (٥٨ (بالآية (٥٦) ، و اما يكون المعنى : ان فيالجنتين المذكورتين - و هما الاساس - جنات كثيرة في كل واحدة قصورها و حورها الخاصة بها ، و قال بعض المفسرين : ان ذلك متصل بالآية السابقة " فبأي آلاء ربكما تكذبان " باعتبار الحور شيئا من تلك الآلاء ، و ان رحمة الله تحيط بالانسان من كل جانب ،و هي تمتد الى الآخرة و تتسع هناك - في الجنة - للمؤمنين ، بما لا

يقاس بالدنيا ، ففي الجنة التجلي الأعظم لإسم الرحمن ، حيث النعم المتميزة كما و نوعا ، و اذا كانت رحمته تعالى تشمل المحسن و المسيء في الدنيا فهي هناك للمؤمنين وحدهم ، لأن الآخرة دار الفصل.

]فبأي ءالآء بكما تكذبان[

بلى . أنتم يا معشر الجن و الإنس قد تكذبون بآيات الله ، و تكفرون بنعمه ،(١) آل عمران / ١٥.

(2)الطور / ٢٠.

(3)يس / ٥٦ - ٥٧.

و لكنها تظل تتوالى عليكم ، و ربما زادها الله ليزداد المكذب إثما ، فلا يبقى ثمة حظ له في الآخرة ، و لا نصيب من رحمة الله ، و رحمة ربك خير مما يجمعون " ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا منم فضة و معارج عليها يظهرون* و لبيوتهم أبوابا و سررا عليها يتكئون *و زخرفا و ان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا و الآخرة عند ربك للمتقين (1) " و ما قيمة حطام الدنيا حتى يغتر به الانسان ، فيعتبره خيرا كلما زاده الله منه ، و يتخذه و سيلة للتمادي في الكفر ، و التكذيب بالرحمن- عز وجل -إنه سوف يحرم نفسه من رحمته العظمى في الآخرة من العيون ، و الانهار ، و الفواكه ، و فرش الاستبرق ، و الحور العين ، فلماذا يحيل رحمة ربه له في الدنيا خسارة لذلك النعيم ، و غضبا عليه بسبب التكذيب ؟!

ولاننا لا نستوعب حقيقة نعيم الاخرة ، فانه تعالى يشير اليه إشارة تقريبية ، من خلال التشبيه ، ففي الجنة مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، و في الأخبار لو حدث الله الناس عن الجنة كما هي لما صدقوا ، و لعلنا نهتدي الى هذا المعنى من الآية الكريمة : " فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون " (٢) اذ ينفي ظاهرها امكانية العلم أصلا.

ولكي نقترب من هذه الفكرة دعنا نتصور قاصرات الطرف : هل هن يشبهن نساء الدنيا ؟ وما مدى جمالهن ؟

قد نجيب على تلك الأسئلة ، و لكن بأي دليل ، و على أي مقياس ؟! لعل عقولنا بل خيالاتنا تتمكن من استيعاب اقصى حد للجمال ، بأجمل امرأة في العالم ، و لكن هل يمكنها ان تتصور جمالا يفوق ذلك مليون مرة ؟! كلا .. لذلك يقول ربنا وهو(١) الزخرف / ٣٢ - ٣٥.

(2)السجدة / ١٧

يحدثنا عن قاصرات الطرف مشبها:

]كأنهن الياقوت و المرجان[

قيل يشبهن الياقوت صفاءا ، فبشرتهن لا يشوبها عيب ، و تشبه المرجان حمرة ، أو هي ناصعة البياض مشربة بحمرة الياقوت ، و ربما نستوحي من الآية معنى آخر فكما ان الياقوت ليس كأي حجر يحصل عليه الانسان بسهولة ، بل لابد له من البحث عنه و الاجتهاد ، و كما ان اليد لا تصل الى المرجان إلا بالغوص الى أعماق البحار و تحمل المشقة ، فان للجنة ثمنا لا يحصل عليها صاحبها الا به ، قال تعالى : " أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء و الضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول و الذين آمنوا معه متى نصر الله " (١. (

و لعل شكر نعم الله المادية و المعنوية من أهم مفاتيح الجنة ، فإن شكر الآلاء بارك له و زاده ؛ ليس في

الدنيا و حسب ، بل في الآخرة أيضا ، لأنها امتداد للأولى ، و مصيره فيها يحدده موقفه من نعم الله.

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

و للعبد أن يعرف حجم تكذيبه بآلاء ربه ، من خلال العذاب الذي سوف يلقاه في الآخرة ، و من الحسرة و الندامة التي تحل به جزاء خسارته الأبدية الكبرى لنعيم الجنة و ثوابها.

[60]كل أبعاد الخليقة نعمة و هي -بالتالي - من آلاء ربنا الرحمن ،(١) البقرة / ٢١٤.

و أصحاب الجنة هم الذين تحسسوا شهود ربهم عبر آلائه ، و عرفوه فآمنوا برسالاته ، و اتبعوا رسله ، و اتقوه حق تقاته ، فأحسنوا بذلك في الدنيا .. لقد احسنوا التصرف في نعم الله وآلائه كلها ، فكان من احسانهم بذلهم إياها للآخرين . إنهم أدركوا بعمق معنى الخوف منمقام ربهم ، فلم يجعلوه محدودا بقلوبهم ، بل جعلوه برنامجا متكاملا لحياتهم ، و اذا بهم يفيضون فاعلية و عطاء و تضحية ، فتراهم يبذلون كل ما يملكون ، اتقاء غضب الله ، و طمعا في رضاه و ثوابه ، و لن تذهب اعمالهم سدى ، و لو كان بمقدار حبة من خردل خيرا يأتيبه الله ليجزي عليه صاحبه " ان الله لا يضيع أجر المحسنين " (١) انما يحفظه و ينميه و ينمي به خير فاعله ، و يرده عليه في الدنيا و الآخرة ، "و يمحق الله الربا و يربي الصدقات و الله لا يحب كل كفار أثيم " (٢) و لقد فطر الله الحياة بهذهالسنة ، ان الانسان يحصد ما يزرع ، فان زرع خيرا حصد الخير ، و ان زرع الشر لا يحصد إلا الشر.

]هل جزاء الاحسان إلا الاحسان[

انها حقيقة فطرية يشهد بها الجميع : ان الاحسان لا يكافىء إلا بالاحسان و تتجلى هذه الحقيقة في أبهى صورها في الجنة ، و هكذا القرآن يستثير في البشر ركائز فطرتهم ليستشهد بها على أنفسهم بما جبلوا عليه ، و تعارفوا فيما بينهم به.

يروى عن علي بن سالم انه قال : سمعت أبا عبد الله الصادق (عليه السلام) يقول : " آية في كتاب الله مسجلة " قلت : وما هي ؟ قال : " قول الله عز وجل : " هل جزاء الإحسان إلا الإحسان " جرت في الكافر و المؤمن ، و البر و الفاجر ، ومن صنع اليه معروف فعليه أن يكافىء به ، و ليس المكافأة أن يصنع كما صنع(١) التوبة / ١٢٠.

(2)البقرة / ٢٧٦.

حتى يربى ، فان صنعت كما صنع كان له الفضل بالابتداء " (١. (

و جاء في حديث ماثور عن النبي - في تأويل الآية - " هل جزاء من أنعمنا عليه بالتوحيد إلا الجنة " (٢. (

[61]و تنعكس هذه الآية على سلوك المؤمن فيتخذ آلاء ربه المسبغة عليه سلما الى الكمال الروحي ، و بناء المجتمع ، و سببا الى نيل رضوان الله ، و ليست وسيلة الى التكذيب به تعالى كما يفعل الكثير من الجن و الإنس.

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

أوليس قد أحسن الله اليهم و اسبغ عليهم نعمه ظاهرة و باطنة ، فكذبوا بآلائه ؟! و لماذا نبخل على الآخرين ؟! وما يدريك لعل الله يقطع إحسانه عنا اذا تركنا الاحسان الى الناس ، أو ليس لله ملكين يناديان كل ليلة جمعة : " اللهم اعط كل منفق خلفا ، و كل ممسك تلفا " (٣) فعلى م البخل اذن ؟! كما ان في داخلهم إحساس عميق بانهم لا يملكون النعم ، و انما هي آمانات الله استخلفهم فيها ، فلماذا يخرجون عن امره بانفاقها ؟! يقول سبحانه " : وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه " (٤) " وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة و لا تنس نصيبك من الدنيا ، و أحسن كما أحسن الله اليك ان الله لا يحب المفسدين "

(٥. (

و كما ان الاحسان يجلب الاحسان و الزيادة في النعم ، فان الاساءة و الفساد في الأرض يسلب النعمة ، بل و يجعلها نقمة ، قال ربنا سبحانه : " إن أحسنتم(١) نور الثقلين /ج ٥ / ص ١٩٩.

(2)المصدر / ص ١٩٨.

(3)بحار الانوار / ج ٩٦ / ص ١١٧.

(4)الحديد / ٧.

(5)القصص / ٧٧.

أحسنتم لأنفسكم و إن أسأتم فلها ؟ (١. (

[62]ثم يمضي السياق يحدثنا عن جنتين أخريين ، تختلفان في نعيمهما عن الأوليتين:

]ومن دونهما جنتان[

يبدو من المقارنة بين الجنان الاربع و سائر النصوص ان درجات الجنة عديدة و الناس فيها متفاضلون ، فبالرغم من أن أهل الجنة جميعهم منعمون و راضون بما قسم الله لهم من الفضل ، و لكنهم كما تفاوتوا في الايمان و العمل في الدنيا فانهم يتفاوتون و يتفاضلون في درجات الجنة ، قال تعالى : " هم درجات عند الله و الله بصير بما يعملون " (٢) و حتى الانبياء يتفاضلون فيما بينهم ، قال الله : " تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض " (٣) و هذا التفاضل الذي يقره الله ليس اعتباطيا ، انما يعتمد الحكمة و العلم قال تعالى : " نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم " (٤. (

و قال النبي (ص) : " جنتان من فضة ، أبنيتهما وما فيهما ، و جنتان من ذهب ، ابنيتهما وما فيهما " (٥) ، و قال الامام الصادق (ع) يخاطب أحدا : " لا تقولن الجنة واحدة ، ان الله يقول : " ومن دونهما جنتان " ولا تقولن درجة واحدة ، انالله يقول : " درجات بعضها فوق بعض " - ثم أضاف - " انما تفاضل القوم بالأعمال " (٦) . و لكن اختلاف الدرجات و التفاضل لا يخلف أثرا(١ (الاسراء / ٧.

(2)آل عمران / ١٦٣.

(3)البقرة / ٢٥٣.

(4)الاعراف / ٨٣.

(5)مجمع البيان / ج ٩ - ١٠ عند تفسير الآية.

(6)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٠٠.

من حسد أو بغضاء بين المؤمنين هناك بعكس حال أهل الدنيا حيث يتعالى الغني على الفقير ، أو العالم على الجاهل ، أو الحاكم على المحكوم ، قال ربنا : " و نزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين " (١) فهم راضون قانعون بما قسم الله لهم ، اذايعلمون بحكمته و انهم الذين وضعوا أنفسهم حيث هم ، قال رسول الله (ص) في وصيته لابي ذر (رض) : " يا أبا ذر ! الدرجة في الجنة كما بين السماء و الأرض ! و ان العبد ليرفع بصره فيلمع له نور يكاد يخطف بصره ، فيفزع لذلك ، فيقول ما هذا ؟! فيقال : هذا نور أخيك ، فيقول أخي فلان ! كنا نعمل جميعا في الدنيا ، و قد فضل علي هكذا ؟ فيقال له :إنه كان أفضل منك عملا ثم يجعل في قلبه الرضا حتى يرضى " (٢) و لعل أعظم مقاييس التفاضل :

التطوع في سبيل الله فهناك فريق من المؤمنين ينذرون أنفسهم في سبيل الله ، وهم مفضلون على من سواهم ، و سواء كان هؤلاء ربانيين أو أحبارا أو مجاهدين فانهم السابقون بالخيرات على عامة المؤمنين ، الذين يلتزمون بالواجبات ، و يتجنبون المحرمات ، و يعملون الحسنات ، و لكنهم لا يتطوعون كليا لله ، بل تراهم يمارسون حياتهم العادية ضمن ماشرع لهم ربهم ، و هم القاعدون الذين وعدهم الله الحسنى أيضا ، و لكن فضل عليهم المجاهدين أجرا عظيما.

و القاعدون من المؤمنين أمثال العمال و الفلاحين و الحرفيين و التجار و الموظفين ، و سائر أبناء الأمة ، بينما المجاهدون هم المتصدون لقضايا الأمة ، كالعلماء العاملين و المجاهدين في سبيل الله ، ان هؤلاء يسهرون على مصالح الأمة ، و يبادرون للدفاع عنها ، ويتصدون لقيادتها نحو الخير و الحق ، متحملين في ذلك الصعاب ، انهم يستقرون في منازلهم و درجاتهم الرفيعة في الجنة ، يقول من دونهم اذا نظروا اليهم :

(1)الحجر / ٤٧.

(2)بح / ج ٧٧ / ص ٧٨.

"ربنا اخواننا كنا معهم في الدنيا فبم فضلتهم علينا ؟! فيقال : هيهات هيهات !انهم كانوا يجوعون حين تشبعون ، و يظمأون حين تروون ، و يقومون حين تنامون و يشخصون حين تحفظون " (١) هكذا قال رسول الله (ص) ، و لعلنا نلمس في النصوص المأثورة عن النبي والأئمة (ع) أبعاد هذا التمايز ، فمثلا أكثر وصاياهم وكلماتهم موجهة الى عامة الناس ، بينما نجد في كلماتهم و صايا تخص الطلائع و القادة من أمثال كميل ، و أبي ذر ، و سلمان ، و ابن مسعود ، و ابن جندب.

و انما يؤكد الله هذا التفاضل - كما هو الحال في حديثه هنا عن الجنات الاربع لكي يتسابق الناس الى الخير ، و قد صرح القرآن بهذا الهدف اذ قال : " سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السموات و الأرض اعدت للذين آمنوا بالله و رسله " (٢) بل اعتبر القرآن التسابق في اتقان العمل هدفا للخلق : " وهو الذي خلق السموات و الأرض في ستة أيام و كان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا " (٣) و قال : " الذي خلق الموت و الحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا " (٤. (

و نخلص الى القول بان الدونية في الآية بمعنى الأقل في الفضل ، كقولنا فلان دون فلان في العلم ، فهو أقل منه علما ، و عليه فان الجنتين الأخريين اما تكونان لصاحب الجنتين الاوليتين المذكور في قوله تعالى : " ولمن خاف مقام ربه جنتان " يستقبل فيهما من هو أقل منه فضلا و درجة عند الله ، و هما بذلك دار ضيافته لاخوانه من المؤمنين ، الذين يتزاورون في الجنة ، أما الأوليتين فتخصه و يستقبل فيهما أو في احداهما انداده ، او تكونان (الاخريين) منزلا لمن هم أقل درجة ممن يخافون مقام ربهم.

(1)بح / ج ٧٧ / ص ٧٧.

(2)الحديد / ٢١.

(3)هود / ٧.

(4)الملك / ٢.

و قد تكون الجنتان الدانيتان هما في الدنيا معدتان لمن خاف مقام ربه قبل دخول جنة الخلد ، و بذلك جاءت رواية عن الامام الصادق عليه السلام ، قال عنهما : " خضراوتان في الدنيا يأكل المؤمنون منها حتى تفرغ (يفرغون) من الحساب " (١. (

[63]و مما يحدد درجة العبد ابتداء من اعلى درجة في الجنة و انتهاء بأسفل درك في النار موقفه من آلاء ربه ، و ذلك بمدى تصديقه أو تكذيبه بها ، و مدى انتفاعه منها ، و مدى حسن تصرفه فيها.

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

ما هو مدى التكذيب بها ، فقد يكون مستوى التكذيب هو الكفر و الجحود ، و قد يكون عدم استغلال النعمة كما ينبغي ، فهو الآخر نوع من التكذيب بالنعمة قد لا يقصده الانسان ، و لكنه ينعكس على مستقبله في الآخرة ، و ربما يؤدي أحدنا شكر نعمة دون اخرى ، فيؤدي شكرنعمة العلم ، و يقصر في نعمة المال ، أو يطبق آية من القرآن و يترك اخرى ، او يعصي بعينه من خلال النظر الى ما حرم الله ، بينما لا يستمع الى الغيبة و النميمة ، فيكون قد ادى شكر نعمة الاذن دون نعمة العين.

[65 - 64]و يضع الوحي امامنا صورا عن ذات النعم التي ذكرها فيما يتعلق بالجنتين الاوليتين للمقارنة بينهما ، لنختار الأفضل بينهما و نجعلهما هدفا نسعى نحو تحقيقه ، بأقصى ما يمكن من السعي.

]مدهامتان[

و الدهمة سواد الليل ، و قولنا : ليل ادهم يعني شديد الظلام ، و يعبر بها عن(١) تفسير نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٠٠.

سواد الفرس (١) و الخضرة الشديدة الغليظة المتواصلة لانها تضرب الى لاسواد ، و يقرب الإمام الصادق عليه السلام صورتهما حين يقول : " يتصل ما بين مكة و المدينة نخلا " (٢) و حينما نعقد مقارنة بين كلمة " مدهامتان " وما يقابلها في وصف الجنتين الاوليتين " ذواتا أفنان " نعرف ان الاوليتين خضراوتان أيضا ولكن أشجارها ذوات اغصان كأشجار الفاكهة ، و لعل أغلبها منها ، بينما الجنتان اللتان دونهما ليستا كذلك ، و هذه الاشجار اذا انضمت الى بعضها الى بعض و اتصلت تضرب الى الخضرة ، و تكون جميلة ذات السوق الطويلة ، و لكن جمال ذوات الافنان و فوائدها أكثر ، و لعل أحد أبرز أسباب التفاضل بين النوعين من الجنان هو مدى الشكر لآلاء الله أو التقصير فيها . جاء في الأثر عن العلا بن سيابه عن أبي عبد الله (ع) قلت له : ان الناس يتعجبون منا اذا قلنا : يخرج قوم من النار فيدخلون الجنة ! فيقولون لنا : فيكونون مع أولياء الله في الجنة ؟! فقال (ع) : " يا علي ان الله يقول " : ومن دونهما جنتان " ما يكونون مع أولياء الله " (٣) فاذا كنا نرغب في درجات الأولياء ، يجب ان نستجيب لنداء القرآن المتكرر:

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

قائلين كما قال المؤمنون من الجن ، و كما امر الرسول الأعظم (ص " : (لا ولا بشيء من آلاء ربنا نكذب " (٤. (

[67 - 66]و ياخذنا القرآن الى داخل الجنتين ، و يقف بنا هذه المرة على مقربة من عينين تنبعان بالماء و حيث نقارن بينهما و بين العينين اللتين مر ذكرهما(١) مفردات الراغب.

(2)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٠٠.

(3)المصدر/

(4)المصدر / ص ١٨٨.

نجدهما أقل منهما لانهما لا تجريان.

]فيهما عينان نضاختان[

جاء في المنجد : نضخ الماء اشتد فورانه من ينبوعه ، و عين نضاخة فوارة غزيرة (1)و في تفسير الدر المنثور : اخرج عبد الحميد و ابن المنذر وابن حاتم ، عن البراء بن عازب قال : العينان اللتان تجريان خير من النضاختين و لفظ عبد قال : ما النضاختان بأفضل من اللتين تجريان (٢) . و هذا لا يعني ان ليس في هاتين الجنتين انهار تجري من تحتها ، و لكن الله يضيف الى اصحاب الجنتين الاوليتين سواقي و أنهار تجري من العيون حيث لا توجد هذه الميزة في اللتين دونهما.

و هذا بالطبع لا يقلل من شأنهما ابدا ، ذلك ان مجرد النجاة من النار فوز عظيم . قال تعالى : " كل نفس ذائقة الموت و انما توفون اجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار و ادخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور " (٣. (

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

و هذه الآية يجب ان تكون لنا شعارا ، فأي نعمة من نعم ربنا التي لا تعد ولا تحصى - والتي هي آية على رحمانيته - يمكننا أن ننكرها و نكذب بها ؟! ثم لماذا نكذب بآلاء الرحمن ؟! وانه يكشف لنا عن غيب رحمته ، و يفتح لنا أبوابها ، ثم يدعونا بلطفه لكي لا تفوتنا، بلى . قد تفوتنا الجنتان الأوليتان ولكن دعنا نتقيه ما استطعنا لندخل الجنتين الاخريين ، أو ليست هذه نعمة وآية تدلنا الى رحمته ؟

(1)المنجد / مادة نضخ.

(2)تفسير الدر المنثور / ج ٦ / ص ١٥٠.

(3)آل عمران / ١٨٥.

[69 - 68]ثم لننظر الى آياته و نعمه في الطبيعة من حولنا ، و لنستمع الى كتابه و هو يحدثنا عن جنتين هما دون الدرجات العلى ، و لكنهما مظهر لرحمته تفوقان خير الدنيا و نعيمها.

]فيهما فاكهة و نخل و رمان[

وقد اختلف المفسرون في تحديد العلاقة بين الثلاثة (الفاكهة و النخل و الرمان (فقال بعضهم : ان الفاكهة اسم الجنس العام وما يليها تفريع و تخصيص ، و اعتبر البعض الثلاثة اجناسا مختلفة ، و ليس ثمر النخل أو الرمان من الفاكهة ، و قال آخرون : انه ذكر الجنس(الفاكهة) و اشار الى أفضلها و أحسنها (ثمر النخل ، و الرمان) لقول الامام الصادق (ع) : " الفاكهة مائة و عشرون لونا سيدها الرمان " (١) و لقوله : " خمس من فواكه الجنة : (منها (الرمان و الرطب " (٢) . و الذي يهمنا ان الله ضرب الثلاثة مثلا مما في الجنتين للإشارة لا للحصر . و مع ذلك تبقيان دون الأوليتين علوا و سعة و نعيما ، فهناك قال الله فيهما " من كل فاكهة " ليس واحدة ، بل " زوجان . " و هنا قال " فيهما فاكهة " فقط ، و ربما قصرت ا لكلمة عن استيعابالجنس بكل مفرداته و انواعه ، و هذه المفارقة تشبه الى حد بعيد قوله في سورة الواقعة يصف ما في جنات السابقين المقربين : " و فاكهة مما يتخيرون " (٣) ، و قوله يصف جنات أصحاب اليمين الأقل منهم درجة : " و فاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة " (٤) . فلأولئك ما يتخيرون و يشتهون حتى ولو لم يكن موجودا قبل التخير والشهوة ، و دون ذلك هؤلاء ، ولا غرابة فربنا يقول وهو الصادق " : لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح و قاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٠١.

(2)المصدر / ص ٢٠٠.

(3)الواقعة / ٢٩.

(4)الواقعة / ٣٢.

بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى " (١. (

ان الجنتين اذا نظرنا الى نعيمهما و ان كانتا دون الأوليتين فهما حقا مظهر لاسم الرحمن ، انه غني أن يخلقنا ولكنه بلطفه و حكمته خلقنا ، ثم لم يدعنا هكذا انما فطرنا على الحق و المعرفة به ، فهدانا الى النجدين ، و علمنا ، ثم أعطانا العقل ، و أمرنا بالطاعةله ، و فتح لنا باب التوبة حتى تبلغ النفس التراق ، وهو قادر بعدا الموت أن لا يبعثنا ، و ان بعثنا عذبنا ، و لكنه خلق الجنة ليكرمنا لا بعملنا ، فنحن لا نستطيع أن نؤدي شكر نعمة واحدة من نعمه ، بل بفضله الذي لولاه ما دخل أحد الجنة حتى رسوله الأكرم)ص) و هو القائل : " و الذي نفسي بيده ، ما من الناس أحد يدخل الجنة بعمله "قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : " ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه و فضل " و قد وضع يده على رأسه وطول بها صوته (٢. (

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

و ليس لنا امام هذه النعمة إلا القول : " لا بشيء من آلاء ربنا نكذب. "

[71 - 70]ثم يقول وصفا لنعيم الجنتين:

]فيهن خيرات حسان[

فلماذا خرج عن التثنية الى الجمع فلم يقل فيهما ؟! هناك وجوه:

الأول : ان ذلك يدل على تعظيم شأن هاتين الجنتين بالرغم من انهما دون ما سبق الحديث عنه في وصف الجنتين الأوليتين.

(1)الحديد / ١٠.

(2)بح / ج / ٧ / ص ١١.

الثاني : ان الكلام متصل بالآلاء في الآية السابقة ، باعتبار الخيرات الحسان من الآلاء.

الثالث :ان الحديث هنا ليس فقط عن الجنتين الأخريين بل عن كل الجنان بما فيها الجنتان الاوليان . و هذا أقرب الى السياق ، بالذات حينما نقول بأن معنى الخيرات الحسان هن النساء المؤمنات باعتبارهن الأفضل و الأجمل ، و هكذا قال الامام الصادق (ع) : " الخيرات الحسان من نساء أهل الدنيا ، و هن أجمل من الحور العين " (١) ، و بقوله : " هن صوالح المؤمنات العارفات " (٢. (

وفي الخبر حدث الرسول (ص) عن نعيم الجنة ، ثم ذكر الحور العين فقالت أم سلمة : بأبي أنت و امي يا رسول الله أما لنا فضل عليهن ؟ قال : " بلى بصلاتكن و صيامكن و عبادتكن لله ، بمنزلة الظاهرة على الباطنة " (٣. (

و من معاني الآية ما قاله رسول الله (ص) : " يعني خيرات الاخلاق ، حسان الوجود (4) "و انما تسمى ذوات الاخلاق بالخيرات ، لأن صلاح المرأة يعود على زوجها وعلى المجتمع بالخير الكثير ، كما ان فسادها يؤدي الى شر كبير . و حينما يسأل النبي (ص) عن خير الخير و شر الشر يقول : " خير الخير المرأة اذا صلحت ، و شر الشر المرأة اذا فسدت. "

و تتجلى هذه النعمة اكثر فاكثر في الجنة فقد جاء في الحديث الماثور عن النبي صلى الله عليه و آله و هو الصادق يصف لنا جانبا من نعمة الخيرات الحسان في الجنة:

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٠١.

(2)المصدر.

(3)بح / ج ٨ / ص ٢١٣.

(4)المصدر.

"وان في الجنة لنهرا حافتاه الجواري قال : فيوحي اليهن الرب تبارك و تعالى :اسمعن عبادي تمجيدي و تسبيحي و تحميدي ، فيرفعن أصواتهن بألحان و ترجيع لم يسمع الخلائق مثلها قط ، فتطرب أهل الجنة ، و انه لتشرف على ولي الله المرأة ليست من نسائه من السجففملأت قصوره و منازله ضوءا و نورا ، فيظن ولي الله أن ربه أشرف عليه ، أو ملك من ملائكته ، فيرفع رأسه فاذا هو بزوجة قد كادت يذهب نورها نور عينيه ، قال : فتناديه : قد آن لنا أن تكون لنا منك دولة ، قال : فيقول لها : ومن أنت ؟ قال : فتقول : أنا ممن ذكر الله في القرآن : " لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد " فيجامعها في قوة مائة شاب و يعانقها سبعين سنة من أعمار الأولين ، وما يدري أينظر الى وجهها أم الى خلفها أم الى ساقها ؟! فما من شيء ينظر اليه منها إلا رأى وجهه من ذلك المكان من شدة نورها و صفائها ، ثم تشرف عليه أخرى أحسن وجها وأطيب ريحا من الأولى ، فتناديه فتقول : قد آن لنا أن يكون لنا منك دولة ، قال : فيقول ما ومن أنت ؟ فتقول : أنا من ذكر الله في القرآن : " فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون. "

قال : وما من أحد يدخل الجنة إلا كان له من الأزواج خمسمائة حوراء ، مع كل حوراء سبعون غلاما و سبعون جارية كأنهن اللؤلؤ المنثور ، كأنهن اللؤلؤ المكنون. (1) "

هذا نزر قليل من آلاء الله و رحمته ، التي تنتظرنا لو آمنا و خفنا مقامه تعالى فلم نعصه و نتجاوز حدوده.

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

أيها الانس و الجن.

(1)بح / ج ٨ / ص ٢١٤.

[75 - 72]انهن يقلن - الحور - : " نحن الخالدات فلا نموت ، و نحن الناعمات فلا نيأس ، أزواج رجال كرام " (١) ، لو أشرفت إحداهن على أهل الدنيا لماتوا رغبة فيها.

]حور مقصورات في الخيام[

قال علي بن إبراهيم : يقصر الطرف عنها ، و تابعه صاحب المجمع ، و قيل : قصر طرفهن على أزواجهن فهو شبه بقوله " قاصرات الطرف " و استلطف الفخر الرازي التعبير فقال : ان المؤمن في الجنة لا يحتاج الى التحرك لشيء ، و انما الاشياء تتحرك اليه ، فالمأكول و المشروب يصل اليه من غير حركة منه ، و يطاف عليهم ما يشتهون ، فالحور يكن في بيوت ، وعند الانتقال الى المؤمنين في وقت ارادتهم ، تسير بهم للارتحال الى المؤمنين خيام ، و اللمؤمنين قصور تنزل الحور من الخيام الى القصور " (٢) فيهن يقصرن.

وفي حديث الامام الصادق (ع) يشير الى هذا المعنى قال : " الحور هي البيض المضمومات ، المخدرات في خيام الدر و الياقوت و المرجان ، لكل خيمة أربعة أبواب ، على كل باب سبعون كاعبا (الجارية حين يبدو ثديها) حجابا لهن ، و يأتيهن في كل يوم كرامة من اللهعز ذكره ، يبشر الله عز وجل بهن المؤمنين "

(٣) وقال النبي (ص) : " الخيمة درة واحدة طولها في السماء ستون ميلا " (٤) فهن ملكات الجنة وحولهن الوصائف.

وهذا مما يعد الله الخائفين مقامه ، ولا ريب أن الوعد الالهي يلتقي بعمق و شمول(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٠٢.

(2)التفسير الكبير / ج ٢٩ / ص ١٣٥.

(3)نور الثقلين / ج ٥ / ص . 202

(4)المصدر

مع تطلعات الانسان ، و ان الجنة هي الصورة الفضلى التي يصيغها الانسان بعمله في الدنيا ، و ان المؤمن لا يتطلع الى أي زوجة ، و انما يبحث في شريكة حياته عن صفات معينة ، و أهمها العفة و الطهر ، لانهما عنوان الاسرة الصالحة ، و ما هي قيمة العيش مع شريكة يمتدطرفها ، و تبيع طهرها و نفسها الى كل من هب و دب ؟! أم كيف تكون الأسرة مصنعا للأجيال الفاضلة ، و تأخذ موقعها ودورها في بناء المجتمع اذا كانت الأم لا تعرف العفاف ؟!

ان وعد الله للمؤمنين ان ينعم عليهم بالحور الباكرات ، ليس فقط ارضاء للتطلعات الجنسية عند الانسان ، بل وقبل ذلك يحقق تطلعاته المعنوية اذ ان الفتاة العذراء أشد حبا لزوجها و اخلاصا من المرأة التي أعطت بكارتها لغيره.

و كلمة أخيرة : لعلنا نستفيد من ذكر القرآن لصفات الحور هنا وهي الاخلاق الطيبة " خيرات " ، و الجمال " حسان " ، و العفة و الطهر "مقصورات في الخيام * ولم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان " ، ان هذه الصفات هي غاية ما ينبغي للمؤمنالتطلع اليها في زوجته ، لتكون حياته معها سعيدة فاضلة.

]فبأء ءالآء ربكما تكذبان * لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جال [نعم .. هذا وعدالله ، و ان المؤمن لتواجهه مختلف الضغوط باتجاه الانحراف عن الحق ، استجابة لشهواتهه ، و ربما لعبت شهوة البطن ، و الجنس ، و حب الراحة دورا في تخلفه عن مقام الخائفين من مقام ربهم ، ولكنه اذا ما تذكر الآخرة وما وعد الله المطيعين له الخائفين منه من النعيم ، فسوف يقاوم الضغوط و يميت فيه الشهوة الحرام ، و يستجيب لنداء ربه:

]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

يقول :لا بشيء من آلائك رب اكذب ، ويعمل على تحقيق ذلك في حياته ، ثم لماذا يكذب بها وهو يعلم ان ذلك النعيم لا ينال إلا بالتصديق ؟!

[76]لان المؤمن يشتري راحة الآخرة بتعب الدنيا لعلمه بان الذي يتخلف عن الحق هنا للراحة لا يجدها في الآخرة ، أما المؤمنون وقد رهنوا أنفسهم للحق ، و أجهدوها من أجله فانهم يجلسون في غاية الراحة.

]متكئين على رفرف خضر و عبقري حسان[

جاء في المنجد : الرف : ما تهدل من الشجر و النبات ، و كل ما فضل فثني ، و الرقيق من ثياب الديباج ، و هي خرقة تحاط في أسفل الفسطاط (والخيمة) و العرب تقول : ضربت الريح رفرف الفسطاط أي ذيله ، و هو ما تدلى من الدرع ، و رفرف الدرع زرد يشد بالبيضة يطرحهالرجل على ظهره (١) و قالت العرب لكل ثوب عريض رفوف ، و الذي يجمع هذه المسميات انها ترف بفعل الريح او الحركة ، و لعل الرفوف المعني في الآية هي الوسائد و المساند المصنوعة من الديباج ، و الغير محشوة كثيرا ، فهي ترف كلما

اتكأ عليها ، بل الحرير يرف لرقته ،و نعومته كلما حرك أو ضربته الريح ، أما العبقري فهي : البسط الموشاة بالحرير ، و تقول العرب للثياب الحرير المصنوعة بدقة و ابداع عبقريات ، مبالغة في حسنها ، و يقال للانسان : عبقري اذا تفتق عقله ، و تفجرت مواهبه بما هو فوق المألوف ، و ربنا لم يقل : " عبقري " و حسب بل أضاف اليها صفة "حسان " مبالغة في حسنها ، كما وصف الرفرف باللون الأخضر لانه أجمل ما يمكن أن تكون عليه الوسائد لونا.

] [77]فبأي ءالآء ربكما تكذبان[

(1)المنجد مادة (رف) بتصرف.

وان نعم الله التي تحيط بالانسان و الخليقة في الدنيا ، و نعيمه الذي ينتظر المؤمنين به في الآخرة ، لدليل على أنه الرحمن.

]]78]تبارك اسم ربك ذي الجلال و الإكرام[

و تبارك من الاسماء الاربعة الرئيسية لله وهي " سبحان ، تعالى ، و تبارك ، و الله " ، و قال العلامة المجلسي (رض) : واما تبارك فهو من البركة ، و هو عز وجل ذو بركة ، وهو فاعل البركة وخالقها وجاعلها في خلقه ، و تبارك و تعالى عن الولد و الصاحبةو الشريك و عما يقول الظالمون علوا كبيرا (١) و لعله الاسم الذي يتصل بجانب الفعل الإلهي في الخلق ، فهو مستمر و متكامل و يزداد بركة ، فهو اذا قريب من إسم (الرحمن) و لعلنا نستطيع القول بأن السورة ابتدات بالجانب المعنوي لتبارك (الرحمن) و انتهت بالجانبالظاهر منه (تبارك. (

كما يبدو ان (الرحمن ، وذو الجلال و الاكرام) من الاسماء الفرعية لتبارك ، و مظهر له ، و حينما نجاور الآية ٢٧ " و يبقى وجه ربك ذو الجلال و الاكرام " بهذه الآية ، نهتدي الى حقيقتين:

الاولى : ان وجه الله هي اسماؤه ، كالرحمن ، و الباقي ، و ذو الجلال و الاكرام.

الثانية :ان أسماء الله منزهة كما ذاته تعالى . فهناك قال " ذو الجلال و الاكرام "يعني وجه الرب ، وهنا قال " ذي الجلال و الاكرام " يعني ذات الرب ، و لكن تنزيه الاسماء ليس ذاتيا انما هو بالله ، كما لا نعني بذلك أن اسماء الله هي ذاته .. كلا .. فقد قال الامام أبو عبد الله (ع) : " الله غاية من غياه ،(١) بح / ج ٤ / ص ٢٠٨.

فالمغيا غير الغاية ، و توحد بالربوبية ، و وصف نفسه بغير محدودية ، فالذاكر الله غير الله ، و الله غير اسمائه ، و كل شيء وقع عليه اسم شيء سواه فهو مخلوق ، ألا ترى قوله : العزة لله ، العظمة لله ، و قال : " ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها " و قال: " قل ادعو الله أو ادعو الرحمن أياما تدعو فله الأسماء الحسنى " فالأسماء مضافة اليه . وهو التوحيد الخالص " (١. (

و الجلال اسم يحتوي على كل معاني العظمة و الكبرياء ، بينما الإكرام يدل على كل معاني الجمال ، فهو رحيم ، حنان ، غفور ، منان ، عطوف ، عالم ، قادر ، و أسماء الرب أساسا تنقسم الى نوعين : الأول : تبين انه منزه عن النقص ، و الثاني :تبين جوانب الكمال.

و كلمة أخيرة : هناك علاقة بين سورة الرحمن التي تحدثنا عن ثلاث فئات من الناس (المجرمين أصحاب الجنتين الاوليين - و أصحاب الجنتين التاليتين) و بين سورة الواقعة التي تحدثنا أيضا عن ثلاث فئات هي (السابقون - أصحاب اليمين - أصحاب المشأمة) ، و بالتدبرنكتشف أن المجرمين هم أصحاب المشأمة ، و السابقون هم أصحاب الجنتين الأوليين ، و أصحاب اليمين هم أصحاب الاخريين.

(1)المصدر / ص ١٦٠

سورة الواقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة
الاطار العام

إن فلاح الإنسان في الحياة ينطلق من وعيه بحقائقها و معيشتها ، و أخذها بعين الإعتبار عمليا بأخلاقه و سعيه ، و مع أنه مطالب بوعي مختلف الحقائق ، إلا أن الأمر يكون أشد ضرورة و أهمية بالنسبة للحقائق الكبرى ذات الأثر الحاسم في حياته و مصيره . (و الواقعة)هذه السورة المكية التي نستقبل آياتها تذكرنا بواحدة من أعظم الحقائق و أخطرها بالنسبة للإنسان و هي الساعة التي إذا وقعت تطبع آثارها على كل ذرة في الدنيا ، فالأرض و الجبال تستحيل هباءا منبثا ، و تنطوي صفحة هذه الحياة التي خلقت لابن آدم ، لتفتح صفحات الحياة الآخرة في فصول أولها هلاك هذا الوجود بما فيه من البشر ، و آخرها الجزاء الذي يمتازون فيه ، و بينهما البعث و الحساب.

فبقدر حضور الواقعة في وعي الإنسان و معايشتها عمليا تكون منزلته هناك ، فاما مع السابقين من الأبرار في أعلى عليين ، و أما مع أصحاب الشؤم و للفجور في أسفل سافلين ، و أما بينهما حيث أصحاب الميمنة ، و لكن من أين له الوعي بالواقعة وهيجزء من الغيب الذي حجب عنه ؟!

بلى . إنها غيب كما الملائكة و الجن و المستقبل ، و لكن تعالى الله أن يلزمنا الإيمان بحقيقة حاضرة أو غائبة إلا و الآيات الهادية إليها قائمة و كافية أن تكون حجة بالغة لمن ألقى السمع و أعمل النظر و الفكر وهو شهيد . فما هي آيات الواقعة ؟

اولا : و قبل كل شيء ليس هنالك دليل ولا آية تكذب هذه الحقيقة " ليس لوقعتها كاذبة " ، و هذه من طبيعة الحق أنه لا دليل منطقي على خلافة ، و الذي يكذب به هو الذي يحتاج الى تبرير موقفه.

ثانيا :إن الإنسان يبرر غالبا ريبه في هذه الواقعة بالشك في إمكانيتها ، لأنه ينظر إلى هذه الحقيقة العظمى من خلال قدراته المحدودة فيكفر بها . أما إذا تفكر فيها من خلال قدرة الله التي لا تحد ، و سننه الحكيمة التي لا تتبدل ، فإنه سيراها (حق اليقين. (
و الإيمان بإرادة الله يأتي من التفكر في آيات قدرته المتجلية في النفس وفي الآفاق ، فإن ذلك يهديه إلى عظمة ربه و تنزيهه عن العجز ، و الآيات (٥٧ / ٧٣) تثير العقل البشري بالحقائق و تجعل الشهود جسرا إلى الغيب.

ثالثا : و القرآن الكريم هو الآية العظمى التي تهدي إلى كل حقيقة ، بشرط أن يكون الإنسان عندما يتدبره و يأول آياته طاهرا من كل دنس مادي (خبثا و حدثا) ، و نفسي)صفات و عقدا) ، و عقلي (الافكار الضالة) و ذلك لتجاوز الحجب التي تمنعه من لمس معانيه و تأويلاته العميقة الحقة ، فإنه يرى بالفطرة السليمة ، و العقل المتقد الحقيقة مكشوفا عنه غطاءها ، وبما أن مشكلة البشر ليست عقلية و حسب ، بل هي نفسية أيضا فقد يسر الله هذه الحقيقة العظمى بالشواهد العقلية و الوجدانية و الواقعية ، بإسلوب أدبي بليغ ، و منهج نفسي مؤثر تضمن الترغيب

و الترهيب ، بما يقود كله إلى التسليم لها ، تسليما واعيا و عميقا ، يحمل صاحبه على المعادلة بين

الحاضر و المستقبل ، و السعي بجد و فاعلية للفوز في الآخرة ، فإذا به و قد وقعت الواقعة مستعد للقاء ربه و الفوز بالجنة مع المؤمنين السابقين ، أولا أقل مع أصحابااليمين .

ولأن الموت هو الواقعة الصغرى لكل إنسان فرد ، و الحق الذي يحدد به مصيره ، يتعرض له السياق في نهاية السورة كآية على الجزاء ، و معبر الى المصير والعلم اليقين بذلك الغيب الذي يكذب به الضالون المكذبون.

و السابقون السابقون أولئك المقربون

هدى من الآيات

تكاد فاتحة السورة تهز القلب حتى تقلعه من مراسيه حينما تصور واقعة القيامة الرهيبة التي لا تكذيب لها ، هنالك عندما تخفض فريقا إلى النار ، و ترفع آخر إلى الجنة ، عندما تهتز الأرض ، و تتفتت الجبال ، و تنتشر هباءا في الفضاء.

و لكن لماذا هذه الكلمات في فواتح تلك السور ، التي تذكر العباد بيوم المعاد الرهيب ؟ ربما لأن الناس في غفلة شاملة ، لا ينتفعون شيئا بالعبر و العظات ، فهم بحاجة الى هزة عنيفة لعلهم يستمعون الى النذير .

ثم تمضي السورة تحدثنا عن الفرق الثلاث الذين تفرزهم عن بعضهم الواقعة : المقربون ، و أصحاب اليمين ، و أصحاب الشمال . المقربون الذين هم ثلة من الاولين و قليل من الآخرين في نعيم مقيم ، يتكئون على سرر منسوجة بالذهب ، مشبكة بالدر يتقابلون مع بعضهم براحةو سكينة ، وزوجاتهم حور عين كأمثال

اللؤلؤ المكنون ، يعيشون في صفاء و هناء بعيدا عن اللغو و التأثيم ، في حياة كلها سلام و وئام.

بينات من الآيات

هذا نزلهم يوم الدين

من الآيات

في هذا الدرس يحدثنا ربنا عن مصير الفريقين الآخرين (أصحاب اليمين ، و أصحاب الشمال) ، " و شمائل ضد اليمين ، يقال : فلان عندي بالشمال إذا خست منزلته ، و هو عندي باليمين أي بمنزلة حسنة " (١. (

و أصحاب اليمين يدخلون الجنة إلى نعيم مقيم ، و لكنه دون نعيم السابقين كثرة و تنوعا و كيفا ، كما أنهم دونهم في الإيمان و العلم في الدنيا ، و ينتمي إلى هذا الفريق عامة المؤمنين و المسلمين من الناس ، الذين عنوان مسيرتهم الصلاح ، فهم و إن دخل بعضهم النار ، أو تأخر في الحساب ، إلا أنه لا يلبث أن ينقلب إلى نعيمه و أهله مسرورا برحمة من الله ، و بسبب أعماله الصالحة ، أو شفاعة السابقين . و هم ثلة من كل أمة و جيل ، و لا يطيل القرآن الحديث عنهم ، بل يختصره في أربعة عشرة(١) المنجد / مادة شمل.

آية قصيرة ، ثم ينتقل بنا إلى بيان مصير أصحاب الشمال ، حيث أنواع العذاب المؤلم المهين (سموم الحميم ، و ظل اليحموم ، و شجر الزقوم ، و شراب الحميم) ، و كل ذلك تذكره السورة في كلمات ترعب النفوس ، و بلاغة تنفذ إلى أعماق من يلقي السمع شهيدا ، بما يكفيزاجرا للإنسان و علاجا للترف ، و الإصرار على الضلال و التكذيب بالآخرة.

و حين يقسم القرآن الناس إلى هذه الطوائف فلكي يكون التقسيم المشروع هو القائم على أساس الإيمان و العمل ، أما الأسس الأخرى فهي لا تصلح سببا لتفريق الناس مثل اللغة و اللون و العنصر.

بينات من الآيات

[30 - 27]ما هي صفات أصحاب اليمين ، و ما هو جزاؤهم ؟

]و أصحاب اليمين ما أصحاب اليمين [

الميمنة من اليمن أي النصيب الحسن ، و قد جعل الله إعطاء الكتاب للإنسان بيده اليمنى يوم القيامة دليلا على العاقبة الحسنى ، و لأن كاتب الحسنات على اليمين و كاتب السيئات على الشمال فإن أصحاب اليمين هم الذين زادت حسناتهم على السيئات ، و الصحبة من التلازم و المقارنة ، فقد يكون هؤلاء ذوي الصلة المتينة بملائكة الحسنات لكثرة الصالحات عندهم ، فهم لا يبرحون يصلونهم بها بين الحين و الآخر ، فيصحبهم أولئك الملائكة عند الحساب ، يبينون حسناتهم ، و يشفعون لهم عند الله . و من كانت هذه صفته فإنه يصير إلى منزلة عظيمة من الجزاء و الرضوان عند الله.

]في سدر مخضود[

يعني منزوع الشوك ، مما يجعل قطف ثماره خال من الأذى و المشقة ، و المخضود : مثني الأغصان من غير كسر (أيضا) إشارة إلى كثرة ثمارها و ورقها اللذان يثقلان الغصن فيثنيانه ، و السدر : شجر النبق (الكنار) (١) ، و له فوائد جمة منها : ثمره ، و ظله ، و منظره الجميل.

جاء في الحديث عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب النبي (ص) يقولون : إنه لينفعنا الأعراب و مسائلهم ، قال : أقبل أعرابي يوما فقال : يا رسول الله ! لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية ، وما ارى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ؟ قال رسول الله : وما هي ؟ قال : السدر فإن له شوكا مؤذيا ؟ فقال (ص) : أوليس يقول : " في سدر مخضود " ؟ خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فإنها تنبت ثمرا يفتق الثمر منها عن اثنين و سبعين لونا من الطعام ما فيه لون يشبه الآخر (2) " و قال سعيد بن جبير : ثمرها أعظم من التلال . (٣(

و الحرف " في " يفيد الإحاطة و الدوام ، فهم محاطون بما يذكر من النعم.

]و طلح منضود[

أي متسق منظم مضموم بعضه إلى بعض ، و تنضدت الأسنان تراصفت (٤) ، و عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال : " بعضه إلى بعض " (٥) و قال تعالى : " و النخل باسقات لها طلع نضيد " (٦) متسق ، و اختلف في الطلح على أقوال(١ (قال صاحب المنجد : الكنار النبق (بالعامية و الفارسية. (

(2)القرطبي / ج ١٧ / ص ٢٠٧.

(3)المصدر

(4)المصدر مادة نضد.

(5)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢١٥.

(6)ق / ١٠.

أشهرها و أقربها أنه الموز ، و هو من ألذ الفواكه و أشهاها.

]و ظل ممدود[

أي دائم متصل واسع ، و قال تعالى " : مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم و ظلها . (1) "

وفي حديث آخر عن الرسول (ص) قال : " في ظل ممدود في مثل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس " (٢) وفي الخبر : " إن في الجنة شجر يسير الراكب في ظلها مئة سنة لا يقطعها . إقرأوا إن شئتم : " و ظل ممدود " (٣) و كان الظل يعني شيئا كثيرا في محيط الجزيرة العربية حيث يتعرض الناس عادة لأشعة الشمس الحارقة.

[33 - 31]و نعمة أخرى لأصحاب اليمين هي الماء (قوام الحياة) ، يشربونه و يتلذذون بمنظره الرائع ، و هو ينحدر من عل منسكبا لا ينقطع.

]وماء مسكوب * و فاكهة كثيرة[

تنوعا و عددا ، و هي لاتنفذ مهما بالغ المؤمنون في التفكه بها ، كما أنها ليست محدودة ثمرتها بموسم بل هي دانية قطوفها دائما ، و من جانب آخر لا يمنعهم عنها ولا يمنعها عنهم مانع ابدا ، فهي مباحة شرعا ، نافعة أبدا ، لا شوك في أشجارها يمنعهم ، ولا ارتفاعيصعب عليهم الإنتفاع بها.

]لا مقطوعة ولا ممنوعة[

(1)الرعد / ٣٥.

(2)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢١٦.

(3)المصدر.

قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) يصف شجرة طوبى : " و أسفلها ثمار أهل الجنة و طعامهم متذلل في بيوتهم ، يكون في القضيب منها مئة لون من الفاكهة مما رأيتم في دار الدنيا و مما لم تروه ، و ما سمعتم به و ما لم تسمعوا مثلها ، و كلما يجتنى منها شيء نبتت مكانها أخرى ، لا مقطوعة ولا ممنوعة " (١. (

و قال (صلى الله عليه و آله و سلم) حاكيا حال أهل الجنة : " و الثمار دانية منهم و هو قوله عز وجل : " و دانية عليهم ظلالها و ذللت قطوفها تذليلا " ، من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الذي يشتهيه من الثمار بفيه وهو متكىء ، و إن الانواع من الفاكهة ليقلن لولي الله : يا ولي الله !! كلني قبل أن تأكل هذا قبلي " (٢. (

و للمتدبر أن يلاحظ مدى أثر الوعد بهذه النعم في مجتمع يحلم بالماء و يتقاتل عليه ، و يتنقل عبر المفاوز الشاسعة بحثا عن الماء بل سعيا وراء االسراب ! كما لا يعرف الفاكهة التي لا تنبت في محيطه إلا كبراؤه ، يجلبونها في تجارتهم و بكميات قليلة محدودة ، أويزرعون شجرها طمعا في بضع وحيدات منها !و هي مع قلتها تقطعها الأسباب ، و تمنعها الموانع المختلفة عنهم ، فكيف بهم و هم يجدون ِأنفسهم أمام تلك النعم العظيمة الوافرة ؟ إن العاقل منهم لا ريب يسعى لنيلها حينما تطمئن بها نفسه.

و هنا فكرة لطيفة تفسر اهتمام القرآن بالتركيز على التذكير بجوانب من نعيم الآخرة ، و التفضيل فيه و التشويق إليه في كثير من المواضع ، و هي : إن ذلك يأتي لمقاومة كثير من الإنحرافات المعنوية و العملية في حياة الإنسان ، و الناتجة من(١ (المصدر

(2)المصدر

الإغترار بنعم الدنيا ، و الخضوع لجاذبيتها ، فقد جاء في كلام الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام " : (فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات " (١. (

] [38 - 34]و فرش مرفوعة[

افترش الشيء : و طئه ، و عرضه : استباحة بالوقيعة فيه ، و حقيقته : جعله لنفسه فراشا يطؤه (٢) ، فالكلمة فيها دلالتان : الأولى : الفراش الذي ينام عليه الإنسان ، و الثانية : الزوجةالتي يستبيحها و يطؤها ، و هذا من بلاغة القرآن أن يشير إلى نعمتين بكلمة.
و قد ورد في النصوص الإسلامية استخدام للكلمة في المعنى الثاني . قال العلامة الطبرسي : و يقال لامرأة الرجل هي فراشه ، و منه قول النبي (صلى الله عليه و آله وس لم " : (الولد للفراش ، و للعاهر الحجر " (٣) ، و قال الإمام الصادق (عليه السلام (يصف إناث الجنة : " نعم . ما يفترش منهن شيئا إلا وجدها كذلك " (٤) (يعني باكرا. (

و مرفوعة يعني عالية المكان ، و هي أصلح في الفراش من الآخر الذي على الأرض ، كما تعني الكلمة ارتفاع الشأن حسنا و كمالا أيا كان المقصود ظاهر الفرش أو الزوجة.

]إنا أنشأناهن إنشاء[

و الانشاء هو الإبداع و الصناعة ، و قد خلق الله لكل مؤمن زوجات مخصوصات به ، و هذا من عناية الله و لطفه بالمؤمن ، و على هذا المعنى يكون المراد حور العين ، و قال البعض : إنهن من نساء الدنيا أنشأهن الله من جديد فتيات جميلات و أبكار ،(١) قصار الحكم المعجم المفهرس لالفاظ نهج البلاغة ص ٧٠٤.

(2)المنجد مادة فرش.

(3)مجمع البيان / ج ٩ / ص ٢١٩.

(4)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢١٧

هكذا روي عن أم سلمة أنها سألت النبي (صلى الله عليه و آله وسلم) عن الآية فقال لها : " يا أم سلمة هن اللواتي قبض في الدنيا عجائز شمطا غمشا رمصا جعلهن الله بعد الكبر أترابا على ميلاد واحد في الإستواء " (١. (

و هكذا قيل حور العين للسابقين ، بينما العرب الأتراب لأصحاب اليمين.

]فجعلناهن أبكارا[

و كلمة الجعل تشير إلى أن بكارتهن دائمة ، و هكذا جاء في الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) أنه قال : " كلما أتاهن أزواجهن و جدوهن أبكارا " فلما سمعت عائشة بذلك قالت : و اوجعاه ! فقال رسول الله) صلى الله عليه و آله وسلم : ليسهناك و جع " (٢) و من صفة الحور عروبتها و انسجامها.

]عربا أترابا[

في تفسير علي بن إبراهيم : " لا يتكلمون إلا العربية " (٣) و هي لغة أهل الجنة ، و العروبة من النساء الضاحكة (٤) فهي تعرب و تفصح عن ثناياها حين الإبتسام ، و البشاشة عن جمال المرأة ، و قال الراغب الأصفهاني : و امرأة عروبة : معربة بحالها عن عفتها و محبة زوجها (٥. (

و قيل الغنج و الدلال عن أمير المؤمنين (ع) في رواية هذا نصها : قال عليه السلام(١) القرطبي / ج ١٧ / ص ٢١٠.

(2)جوامع الجامع في الموضع.

(3)تفسير القمي / ج ٢ في الموضع.

(4)المنجد / مادة عرب.

(5)مفردات الراغب مادة عرب.

يصف غرف الفردوس : " في كل غرفة سبعون خيمة ، في كل خيمة سبعون سريرا من ذهب ، قوائمها الدر و الزبرجد (فهي مرفوعة إذا) موصولة بقضبان الزمرد ، على كل سرير أربعون فراشا ، غلظ كل فراش أربعون ذراعا ، على كل فراش زوجة من الحور العين عربا أترابا " فقال (أحد) : أخبرني يا أمير المؤمنين عن عروبة ؟! قال : " هي الغنجة ، الرضية ، الشهية ، لها سبعون ألف وصيف و سبعون ألف وصيفة ، ضعف الحلي ، بيض الوجوه ، عليهن تيجان اللؤلؤ ، على رقابهن المناديل ، بأيديهن الأكوبة و الأباريق " (١. (

و في الأتراب أقوال : فمن علي بن إبراهيم : يعني مستويات الأسنان ، و قيل أنهن متماثلات ، يقول الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم) لأم سلمة : " جعلهن الله أترابا على ميلاد واحد في الإستواء " (٢. (

و قيل وهو الأشهر و الأظهر و الأشمل : أنهن ينسجمن مع أزواجهن من المؤمنين في ظاهر أجسامهن و في خلقهن و سلوكهن و نفسياتهن.

وللام في " لأصحاب " وجهان : أحدهما : أنها موصولة بما قبلها مباشرة فيكون المعنى المتقدم (متاربتهن لهم) ، و الآخر : أنها موصولة بكل ما تقدم فهو ملك لأصحاب اليمين و من أجلهم ، و هذا أظهر .

[40 - 39]أما عن نسبة هذا الفريق في البشرية وفي كل جيل من أجيال المسلمين فهي ثلة (أكثر من القليل) لأن المنتمي إليه هم عامة المؤمنين و المسلمين.

]ثلة من الأولين * و ثلة من الآخرين[

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢١٨.

(2)المصدر / ص ٢١٩.

قال الإمام الصادق (عليه السلام) (يعني الأولين) : " من الطبقة التي كانت مع النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) ، (و يعني الاخرين) : " بعد النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) من هذه الامة " (١) ، و هذه النظرة الواقعية المتوازية تنفي موقف المغالات في الأولين من المسلمين بانهم كلهم سابقون ، و أن الهداية تتحقق باتباع أي منهم ، على التفسير المطلق للحديث " :أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " ، فإن الجيل الأول وإن كانت الحضارة الإسلامية تأسست بجهودهم ، و سطروا الملاحم و المجد ، إلا أن بعضهم السابقون و أقل من ذلك أصحاب اليمين ، كما أن بعضهم المنافقون بصريح القرآن : " و ممن حولكم من الأعراب منافقون و من أهل المدينة " (٢) ، و هي تنفي موقف اليأس من حال المسلمين اليوم ، كلا .. فقد يصبح الواحد منا من السابقين أولا أقل من أصحاب اليمين كما الجيل الأول سواءا بسواء.

ذلك لأن الأمة الإسلامية كانت ولا تزال خير أمة اخرجت للناس ، و في رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال النبي (صلى الله لعيه و آله و سلم) : " إني لأرجو أن يكون من تبعني ربع الجنة " قال :

فكبرنا . ثم قال : " إني لأرجو أن يكونوا ثلث أهل الجنة " فكبرنا ، ثم قال : " إني لأرجو أن يكونوا شطر أهل الجنة " ثم تلا (صلى الله عليه و آله و سلم) " الآيتين " (٢) . و في الخصال للشيخ الصدوق (رض) قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم " : (أهل الجنة مأة و عشرون صفا ، هذه الأمة منها ثمانون صفا " (٤. (

و يكفي بالثلة هنا كثرة إذا اعتبرنا الأولين هم الامم السابقة حسب بعض(١) المصدر

(2)التوبة / ١٠١.

(3)مجمع البيان / ج ٩ الموضع.

(4)الخصال / ج ٢ / ص ١٠١.

الروايات ، و الآخرين هي أمة الاسلام ، و قد عدلها الله بهم ، فقال : ثلة من أولئك و ثلة منها.

[42 - 41]و يبدأ السياق شوطا جديدا من الحديث يتمحور حول الفريق الثالث من الناس وهم أصحاب المشأمة و الذين يتسلمون كتابهم بشمالهم أو من وراء ظهورهم ، و الذكر الحكيم لا يكتفي بذكر مصيرهم البئيس و حسب - كما هو الحال بالنسبة للسابقين و أصحاب اليمين - بل يبين أهم الاسباب التي تصير بالبشر الى ذلك ، هداية لنا الى النجد الصحيح ، و انذارا من التورط فيها.

]و أصحاب الشمال ما أصحاب الشمال [

و الشمال كناية عن الشؤم (١) ، و هذا المعنى و اضح إذا فسرنا الكلمة هنا بالآية التاسعة ، فهذا الفريق هم المعنيون بالمشأمة ، و مع أنهم يعطون كتابهم بشمالهم " و أما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه " (٢) ، إلا أن القرآن لا يسميهم بأصحاب اليسار ، لانها مأخوذة من اليسر تفاؤلا كالمفازة للصحراء ، ذلك ان قوة الانسان في يمينه ، و يستخدمها بيسر و سهولة ، بينما يواجه حرجا و عسرا في إعمال شماله ، فقيل يسار رجاء اليسر . و نستوحي من ذلك ان سيرة المتقين و المؤمنين هي المسيرة الطبيعية التي تنسجم مع واقع الانسان و الحياة، و ان مسيرة أهل النار هي الشذوذ عن مسيرة الخليقة . أوليس كل شيء في العالم يسلم لله و يخضع لسننه و يسبح بحمده ؟ و كيف لا يكونون كذلك " وإن من شيء إلا يسبح بحمده " ؟ (٣ (، بينما نجد هؤلاء يكفرون بالله ،و يشركون به ، و ينكرون الحقائق الكبرى كالبعث ، و يخالفون سنن الله و أوامره.

(1)المنجد مادة شمل بتصرف.

(2)الحاقة / ٣٥.

(3)الاسراء / ٤٤.

و إذا كان تجلي الشمال و اليمين و المشأمة و الميمنة في يوم الدين هو إعطاء الكتاب باحدى اليدين فان تجليهما في الواقع الاجتماعي و السياسي هو القيادة الصالحة بالنسبة لليمين ، و الفاسدة بالنسبة للشمال ، و قد و ردت بهذا التأويل روايات كثيرة من بينها : قول رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) للامام علي (عليه السلام) : " هم شيعتك " (١) يعني أصحاب اليمين ، و قول أبي عبد الله (عليه السلام) : " و الكتاب الامام ، و من انكره كان من أصحاب الشمال الذين قال الله : " الآيات) " (2، و من هذه الاخبار و أمثالها استلهم علي بن ابراهيم (رض) تفسيره للآية : " يعني من كان من أصحاب امير المؤمنين (عليه السلام) (٣) ، و مثل الشمال : الجبارون و المشركون و الكافرون و الطواغيت و من اريد هوانه و شقوته " (٤. (

و هنا نجد السياق القرآني يختلف عما سبق ، فحين ذكر أصحاب اليمين من بعد السابقين لم يبين صفاتهم ، بينما هنا يذكر صفات أصحاب الشمال مما يثير التساؤل : لماذا ؟ و يبدو أن الاجابة تتوضح إذا عرفنا أن الانسان خلق اساسا ليكون من اصحاب الجنة . أوليس خلقنا ليرحمنا ؟ فدخول النار شذوذ عن هدف الخلقة لابد ان نبحث عن سبب له ، و هكذا يبين القرآن عوامل دخول النار التي من تجنيها تفضل الله عليه بالجنة ، و الاسلوب القرآني بديع في بيان موجبات النار حيث يجعل بيانها مسبوقا ببيان جانب من العذاب الشديد ، ثم يلحقه باشارةالى الوان اخرى منه ايضا ، و ذلك لكي يخوفنا من مصيرهم ، فما هو مصيرهم ؟ إنهم:

(1)نور الثقلين / ج٥ / ص ٢٢٩ نقلا عن روضة الكافي.

(2)المصدر / ص ٢٢١.

(3)تفسير القمي / ج ٢ / ص ٣٥٠.

(4)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢١٤.

]في سموم وحميم[

و السموم الريح الحارة التي تدخل مسام الجسم ، و لعله في الآخرة نوع من النيران يعذب به أصحاب المشأمة ، قال تعالى : " و الجان خلقناه من قبل من نار السموم " (١. (

و لعل اللفح بريح السموم يوم القيامة متولدة من حركة السنة النار و تداخلها في بعضها (المرج) ، و هو يصيب (اصحاب الشمال) بحره إضافة الى كونهم في جهنم مباشرة تحيطهم من كل جانب و صوب.

اما الحميم فهو السائل الفائر المغلي الى درجة ، من حم الماء اذا وضعه على النار و سخنه ، قال تعالى : " فشاربون عليه من الحميم " (٢) ، و قال " : كمن هو خالد في النار و سقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم " (٣) ، من شدة حرارته . و الحرف " في " يفيد الاحاطة الشاملة.

و الذي يظهر من تعبير القرآن بفي أنه يسقط الزمن من الحساب ، بالرغم من ان ظاهر الايات - الذي يلاحظه المتدبر - أنها تنصرف الى المستقبل " يوم الدين " ، وقد أراد ربنا بذلك هدايتنا الى حقيقتين:

الاولى : ان العذاب و الثواب حقائق واقعية يعيشها الانسان في الدنيا فور مبادرته الى عمل الخير و الشر ، لان ذات السيئات و الحسنات هي التي تصير نارا أو جنة في الآخرة ، بيد ان الناس محجوبون عن هذه الحقيقة الحق . قال تعالى : " كل امة(١) الحجر / ٢٧.

(2)الواقعة / ٥٤.

(3)محمد / ١٥.

تدعى الى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون " (١) ، و قال : " إنما تجزون ما كنتم تعملون " (٢) ، و " و قيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون " (٣. (

الثانية :ان جزاء الانسان ليس بعيدا عنه من الناحية الزمنية ، فالدنيا و ان طال عمره فيها - الى المأة عام مثلا - لا تكاد تبين في ميزان الخلود الاخروي ، "و ان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون " (٤) ، و لكن أكثر الناس لا يستوعبون هذه الحقيقةولا يدركونها بعمق الا في الآخرة " إذ يقول أمثلهم طريقة ان لبثتم الا يوما " (٥) ، " و يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون " (٦ (.

[44 - 43]فلا يظن أصحاب الشمال ان العذاب بعيد عنهم ، فهم الآن و غدا محاطون به.

]و ظل من يحموم[

قال صاحب المنجد : الاسود من كل شيء (و يسمى بذلك) الدخان (٧) ، و قال علي بن إبراهيم : ظلمة شديدة الحر (٨) ، و هذا النوع يقابله الظل الممدود في جنان المؤمنين ، و لعله المشار اليه في قوله تعالى : " لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل "(٩) . وهو إن صح فاليحموم نار سوداء تجعلهم في ظلام حالك.

(1)الجاثية / ٢٨.

(2)الطور / ١٦.

(3)الزمر / ٢٤.

(4)الحج / ٤٧.

(5)طه / ١٠٤.

(6)الروم / ٥٥.

(7)راجع مادة حم.

(8)تفسير القمي / ج ٢ ص ٣٤٩.

(9)الزمر / ١٦.

]لا بارد[

كظلال الجنة ، و ظل الدنيا.

]ولا كريم[

فهم يلقون من جهة عذابا للجسم بسبب الحرارة في ذلك الظل ، و من جهة اخرى يتلقون الاهانات و الاذلال و الخزي ، و يعيشون انعدام الكرامة على خلاف المؤمنين و السابقين الذين تتابع عليهم كرامات الله و نعمه ، و لا يسمعون "إلا قيلا سلاما سلاما. "

و قيل : الكريم : العذب ، و قال بعضهم : حسن المنظر ، و قال آخرون : كل ما لا خير فيه فليس بكريم.

[48 - 45]و هذه الألوان من العذاب التي تحيط بأصحاب المشأمة في الآخرة ، لا شك انها تجليات لما قدموه في الدنيا ، و ما كانوا عليه من الاعمال السيئة و الافكار الضالة ، و نتيجة لمنهجهم فيها ، فما هي العوامل التي جعلتهم من هذا الزوج المشؤوم لعلنا نتعرف عليها و نتجنبها ؟

اولا : الترف . قال تعالى:

]إنهم كانوا قبل ذلك مترفين[

قالوا :ترف النبات كثر ماؤه و نضر ، و انما سمي صاحب النعمة بالمترف لانه كثرت لديه النعمة و ظهرت عليه نضارتها ، و لعله لا يسمى كل صاحب نعمة مترفا ، انما الذي جاوز الحد في الاهتمام بنفسه ، و جعل النعم هدفه الاساسي ، و قد توالت آيات الذكر في ذم هذا الفريق ، و بيان صفاتهم الذميمة التي أبرزها كفرهم بكلرسالة جديدة.

قال الله : " وما أرسلنا في قرية من رسول إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون " (١) ، و إنهم يجعلون النعمة قبلتهم فيتبعونها أنى كانت ، و هي - بالطبع - تجرهم إلى ألوان من الظلم و الانحراف و الجريمة ، كما قال تعالى : " و اتبع الذينظلموا ما أترفوا فيه و كانوا مجرمين " (٢) ، كما انهم يعتمدون اعتمادا كليا على ما اترفوا فيه فلا يسعون لعمل الصالحات ، " وقالوا نحن أكثر أموالا و أولادا وما نحن بمعذبين " (٣) ، بل و يزداد المترفون ضلالا و ذنوبا ، و بالتالي قربا من النارکلما ازدادت النعم عليهم ، قال تعالى : " انما نملي لهم ليزدادوا إثما و لهم عذاب مهين " (٤) ، و لا يعلم هؤلاء بان اعتمادهم على المال و القوة و سائر صنوف النعمة كان خطأ إلا في الآخرة ، حيث يغمرهم الندم ولا حيلة لهم يؤمئذ ولا هم ينصرون ، قال تعالى:

"و أما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * يا ليتها كانت القاضية * ما أغنى عني ماليه * هلك عني سلطانية " (٥) ، وفي صفة المترفين من أهل الدنيا قال الامام علي (عليه السلام) : " سلكت بهم الدنيا طريق العمى ، و أخذت بأبصارهم عن منار الهدى ، فتاهوا في حيرتها ، و غرقوا في نعمتها ، و اتخذوها ربا ، فلعبت بهم و لعبوا بها ، و نسوا ما وراءها " (٦ (.

و السؤال : لماذا يقول ربنا " مترفين " بصيغة المبني للمجهول ، كأنما قد(١) سبأ / ٣٤.

(2)هود / ١١٦.

(3)سبأ / ٣٥.

(4)آل عمران / ١٧٨.

(5)الحاقة / ٢٥ - ٢٩.

(6)نهج كتاب / ٣١ / ص ٤٠١.

جرهم الى الترف شخص آخر ، و اذا كان الامر كذلك فلماذا يعذبهم الله ؟ و الجواب :ان الله هو الذي ينعم على العبد ، و لكن الانسان هو الذي يختار ان يجعلها و يلة يتسابق بها الى الخير و الفضيلة و الرضوان ، أو يصيرها سببا للتسافل و العذاب ، و بتعبير آخر : انهقادر ان يبتغي بالنعم ان شاء الدار الآخرة ، و ان شاء الدنيا فيتبع هو بنفسه ما يترف فيه.

و كلمة أخيرة:

إن المفسرين اختلفوا في معنى هذه الآية ، فقال بعضهم : المراد انهم تنعموا بالحرام ، و قال الآخرون : معنى المترفين المشركين ، بيد ان كلمة المترف قد أصبحت علما لفئة معينة من الناس ذكر القرآن الكريم صفاتهم و أعمالهم ، مما أخرج الكلمة عن وضعها اللغوي البوضع جديد فلا نحتاج فيها الى تأويل.

ثانيا : الاصرار على الحنث.

]و كانوا يصرون على الحنث العظيم [

الحنث :هو الميل الى الباطل ، و في اليمين : لم يف بموجبها (١) ، و هو من الذنوب الكبيرة ، لذلك

فسر البعض الكلمة بانها الكبائر ، و قال آخرون منهم ابن عباس انها اليمين الغموس ، و عليه كثير من المفسرين المتقدمين و المتأخرين ، و لعل الحنث هو مخالفة الميثاق عموما ، و لكن بما أن أعظم ميثاق هو الذي قطعه الانسان علىنفسه امام الله في عالم الذر فان أبرز مصاديق الحنث العظيم هو الشرك ، قال تعالى : " إن الله لا يغفر ان يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما مبينا " (٢ (، وكيف لا يكون المشرك من أصحاب المشأمة و قد قال

(1)المنجد مادة حنث.

(2)النساء / ٤٨.

الله " :إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة و مأواه النار وما للظالمين من أنصار " (١) ، ولا ينحصر الشرك في قول النصارى : " إن الله ثالث ثلاثة " (٢) ، ولا في قولهم : " إن الله هو المسيح ابن مريم " (٣ (، ولا في عبادةالاصنام والأوثان ، بل في التسليم لأي منهج او قيادة باطلة ، فقد يكون الشرك سلوكا اجتماعيا وقولا باطلا ، قال الله تعالى : " فاجتنبوا الرجس من الأوثان و اجتنبوا قول الزور * حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير اوتهوي به الريح في مكان سحيق " (4) .

و الآية تبين لنا حجم الذنب الذي يمارسه فريق المشأمة بثلاثة حدود : الأول : هو الاصرار الذي يجعل الذنب الصغير كبيرا ، فكيف وهو اوقع على ذنب كبير ؟ و الثاني : الحنث أي مخالفة ما تعهد به الشخص ، و ألزم نفسه باتباعه . ولا ريب ان مخالفته لا تنعكس على ضياع حقوق المجتمع ، بل على سحق كرامة المحنث نفسه ، حيث يسقط اعتباره و شخصيته فلا يعود احد يثق به ، بل لا يعود يثق هو بنفسه ، ذلك أن أساس الاخلاق احترام الانسان لنفسه ، و ثقته بكرامته ، فاذا فقد ذلك فلا يبقى لديه أي اساس للالتزام بالقيم ، و الثالث : الشركالذي هو أعظم الحنث ، و عموما كل حنث عظيم ، و الذي يهتك أعظم عهد و يمين في حياته هل تبقى عنده حرمة و اعتبارات لاي يمين و عهد آخر ؟!

ثالثا : الجحود بالآخرة ، الذي كان يتناسب مع الترف الذي يحصر الانسان في حدود الدنيا ، و مع الشرك الذي يبرر للنفس انحرافاتها و تبريها من المسؤولية ، و هم لا يكفرون بها و حسب بل و يسفهون فكرتها و قيمها عند الآخرين بالتشكيك(١) المائدة / ٧٢.

(2)المصدر / ٧٣.

(3)المصدر / ٧٢.

(4)الحج / ٣٠ - ٣١.

فيها. .

]و كانوا يقولون أئذا متنا و كنا ترابا و عظاما أءنا لمبعوثون]للحساب و الجزاء ، و قولهم هذا يكشف عن شكهم في قدرة الله ، و سعيهم لتشكيك الآخرين فيها ، بانه تعالى لا يقدر على بعث الخلق ، و ربنا يرد هذه الشبهة في الايات القادمة : ٥٧ - ٧٤.

و ليس القول هنا مجرد الكلام ، بل يشمل مجمل مواقفهم و سلوكهم ، و كانوا يتساءلون تعميقا لشبهتهم : هل أن آباءها الأولين الذين صاروا عظاما نخرة يبعثون ؟!

]أو ءاباؤنا الأولون[

و ربما يستهدف تعرضهم لذكر الآباء الأولين بالذات اثارة ثقافة التخلف التي كانت تقدس الآباء في أعينهم

، إثارتها في نفوس الناس لتكون حاجزا دون الايمان بالبعث ، ذلك ان الرسالة كانت تخبرهم بأن الآباء سوف يبعثون من جديد ، و يحاكمون علنا ، و يلقون الجزاء العادل إن خيرا فخير و ان شرا فشر ..و كان من الصعب على من يقدس آباءه انى كانوا قبول فكرة محاكمتهم و مجازاتهم ، على ان بعث الاباء أبعد في ذهن السذج من بعث من هو لا يزالون أحياء . و الشيء الآخر انهم لا يرون حديثهم عن المستقبل كافيا لتدعيم فكرتهم و نظرتهمالشيئية المغرقة بواقع محسوس ، و الآباء الأولون هم تراب و عظام بالفعل ، و هذا يتناسب مع ضلالهم و إضلالهم غيرهم عن فكرة الآخرة والتي هي جانب من الغيب المستقبل.

[50 - 49]و يرد ربنا على هذه الشبهة ردا موضوعيا صاعقا على لسان رسوله (ص) بالوحي:

]قل إن الاولين و الآخرين[

و ربما كان في فعل الأمر " قل " تحقيرا لهم بانه تعالى لا يكلمهم مباشرة ، و لعل اهم ما يوحي به ظلال " قل " أن هذه الحقيقة يجب ان تقال صراحة ، و أنها من مفردات الدعوة الى الله و رسالاته ، كقوله سبحانه : " قل هو الله أحد."

و قال بعضهم : إن كلمة " قل " تدل على أن هذه الحقيقة من القضايا العامة التي يشترك فيها العوام و الخواص (١) ، و قدم ربنا الأولين على الآخرين لأنهم استبعدوا بعثهم ، و لكي لا يتوهم أحد بأن بعث الأقدمين الذي تحللوا و تبعثروا ولم تبق منهم حتى الآثار أصعب عليه (سبحانه) كلا " ..فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون " (٢) جميعهم ، لا فرق بين مالك و مملوك ، و ذكر و أنثى ، ولا أول و أخير ، و هذا هو القرآن يؤكد مرة أخرى بعد " إن " على البعث ، و أن الناس:

]المجموعون إلى ميقات يوم معلوم[

عند الله ، و كونه جزء من العلم فهو واقع ، و ليس يظن او تخرص او كذب ، و بالنظر إلى آيات قرآنية فإن علم الساعة أختص به الرب ، و لعله سبحانه لم يحدد لها وقتا كما يستوحى من قوله سبحانه : " إن الساعة آتية أكاد اخفيها "، من هنا فإن اليوم معلومالوقوع لا معلوم الوقت . و هنالك يقف الجميع أمام الله للحساب ، لا فرق بين أحد و أحد ، و " يجزي والد عن و لده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا " (٣) ، فلماذا الاعتماد إذا على الآباء بدل الحق ؟! و لعل " ميقات " هنا إسم للمكان ، بينما " يوم " يشير الى الزمان ، كما تقول : مواقيت الحج ، و ربما تتسع الآية لمعنى آخر : أن الناس يبقون مختلطين مع بعضهم و هكذا المجرمون إلى يوم(١) راجع الرازي في تفسير الآية.

(2)الصافات / ١٩.

(3)لقمان / ٣٣.

القيامة حيث يصبح الناس أزواجا ثلاثة ، حسب التعبير الوارد في هذه السورة ، و تتقطع الوشائج كما قال ربنا سبحانه : " و يوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون. (1) "

و توحي كلمة " إلى " في هذه الآية بالسوق ، و كأنهم يجمعون ثم يساقون إلى ذلك الميقات ، كما قال سبحانه : " مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر " (٢) ، و مثل التعبير في آية الواقعة نجده في قوله سبحانه : " قل الله يحييكمثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة " (٣. (

[55 - 51]و يوجه القرآن الخطاب إلى أصحاب المشأمة مثيرا الى أهم صفتين تميزهم:

]ثم إنكم أيها الضالون المكذبون[

فالأمر يومئذ لا ينتهي عند البعث ، فهناك ما هو أعظم مما يليه وهو الجزاء ، الذي يشكل إنكاره العامل الحاسم و الرئيس في كل انحرافات البشر . و يزعم البعض أن تكذيبه بالآخرة يخلصه من مسؤوليته ، و

كأن من يصدق بشيء هو وحده يتحمل مسؤوليته ! كلا .. ان التكذيبليس فقط لا ينجي صاحبه من عاقبة أفعاله ، بل هو بذاته جريمة توجب عقابا شديدا ، و كما التكذيب الضلالة فإنها لا تبرر الجرائم إذ أنها من فعل الإنسان نفسه ، كما أن الهداية من مسؤولياته . أو ليس قد و فر الله لنا أسباب الهداية ، فمن ضل فإنما يضل على نفسه.

و لعل تقديم التكذيب على الضلالة في آخر السورة (الآية ٩٢) خلافا لما عليه هذه الآية يهدينا إلى أن (الضلال و التكذيب) كلاهما سبب للآخر و مسبب له ، (1)الروم / ١٢ - ١٤.

(2)القمر / ٨.

(3)الجاثية / ٢٦.

فالمكذب بالحق يضل ، و الضال يكذب بالحق ، و لأن الضال ربما يهتدي بالحكمة البالغة و الموعظة الحسنة إلى الحق ، و يعود عن ضلاله ، فقد و صف ربنا المعنيين بالمكذبين (صيغة مبالغة) ليبين بأنهم من المتعمدين الضلال المصرين عليه .أما عاقبة تكذيبهم و ضلالهم فهي العذاب الشديد . إنهم:

]لاكلون من شجر من زقوم[

قالوا :إنها كريهة المنظر ، و ثمرتها سوداء مرة منتنة ، و هي تنبت في قلب جهنم ، و يمتد منها غصن إلى كل منزل و فرد فرد ، و جاء في القرآن " إنها شجرة تخرج من أصل الجحيم * طلعها كأنه رؤوس الشياطين " (١) ، و الذي يجعلهم ينجبرون على الأكل منهازجر الملائكة ، و كونهم لا يجدون سواها ، و لعلهم بسبب السموم و الحميم و ظل اليحموم قد بلغت حاجتهم إلى الأكل أقصى حدها ، و قد جاء في الحديث : " إن الله عز وجل خلق ابن آدم أجوف لابد له من الطعام و الشراب " (٢. (

و لعل هذا العذاب ياتي جزاء الترف الذي اتبعوه في الدنيا ، على حساب حقوق الله و حقوق الناس ، فلم يكونوا يحسون عندما كانوا يتلذذون بألوان النعم بمن حولهم من المستضعفين و المحرومين و الفقراء ، وكانوا يجمعون المال و يكنزون الذهب و الفضة دون أن يتورعوا عن الحرام ، فنظامهم الإقتصادي قائم على أساس الإستبزاز ، و الظلم و الربا و الإحتكار و .. ، و القرآن يصرح بهذه الحقيقة حينما يحدثنا في سورة الحاقة عمن يؤتى كتابه بشماله : " إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يحض على طعام المسكين * فليس له اليوم ها هنا حميم * و لا طعام إلا من

(1)الصافات / ٦٤ - ٦٥ وللمزيد راجع تفسيرنا هناك.

(2)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٢٢.

غسلين *لا يأكله إلا الخاطؤون " (١) و لأنهم كانوا في الدنيا متخمين على حساب ملايين الجائعين من حولهم ، دون أن يشبعوا من التهام الحرام ، يسلط الله عليهم الجوع حتى أنهم ليملأون بطونهم من الزقوم على ما فيه من العذاب ، فلقد قال رسول الله (ص) يصفه : " ولو أن قطرة من الزقوم و الضريع قطرت في شراب أهل الدنيا مات أهل الدنيا من نتنها " (٢) ، و حينما يبلغ طعامها بطونهم يجدون الحاجة الملحة إلى الشراب بما لا يمكن التصبر عليها ، فلا يجدون إلا الحميم فيشربون طمعا في ري ظمئهم ، و إطفاء التهاب الزقوم و استعاره في أمعائهم.

]فمالئون منها البطون * فشاربون عليه من الحميم[

و لكنهم لا يشربون قليلا ويكتفون أو يتوقفون ، إنما يشربون كالرمال التي لا تروى ، أو كالإبل التي ضربت في الصحراء هائمة (لا تدري إلى أين) (٣. (

]فشاربون شرب الهيم[

قالوا :الهيم الإبل العطشان التي لا تروى لداء يصيبها ، و قيل : الهيم الأرض السهلة ذات رمل (التي لا يستقر عليها الماء) و يقال لكل مالا يروى من الإبل و الرمل أهيم (٤. (

و من هذه الآية عكس الإمام الصادق (عليه لاسلام) حكم الكراهة في الشرب بنفس واحد . قال أبو بصير (رض) : سمعت أبا عبد الله (عليه اللام) يقول : " ثلاثة(١) الحاقة / ٣٣ - ٣٧.

(2)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٢٢ نقلا عن روضة الواعظين.

(3)المنجد / مادة هيم.

(4)القرطبي / ج ١٧ / ص ٢١٥.

أنفاس أفضل في الشرب من نفس واحد . و كان يكره أن يتشبه بالهيم " (١. (

[56]و إلى جانب هذا العذاب و السابق ذكره (الآيات ٤٢ - ٤٤) ألوان كثيرة و مريعة من العذاب المؤلم المهين تصب كلها على أصحاب المشأمة في النار.

]هذا نزلهم يوم الدين[

قالوا :النزل القرى الذي يقدم للضيف ، و كأنهم ضيوف وقراهم هذا النوع من الطعام و الشراب ، و قال بعضهم : النزل هو أول الطعام و الشراب الذي يستقبل به الضيف.

أما المؤمنون فإنهم يفدون دار ضيافة الله " فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون " (٢) ، " كانت لهم جنات الفردوس نزلا * خالدين فيها لا يبغون عنها حولا " (٣) . و لك أن تقارن بين المنزلين " : أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم " (٤) ؟

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٢٣.

(2)السجدة / ١٩.

(3)الكهف / ١٠٧ - ١٠٨.

(4)الصافات / ٦٢.

خلقناكم فلولا تصدقون
ى من الآيات

بعد أن درس أعقد مضامين الفلفسة كنظرية الفيض و الدور و التسلسل ، و قانون العدم و الوجود ، مر أحدهم بعجوز تحرك المغزل ، و سألها : كيف عرفتني مدبر الكون ؟ فأجابته بفطرتها و إيمانها البسيط - بعد أن أوقفت النسج - : هكذا عرفت أن للكون مدبرا . لكنه ظل حائرا لم يدرك شيئا من قصدها ، فبادرته :إن المغزل يقف حينما لا أعمل ، فكيف لا يكون لهذه الارض المدحية ، و السماء المبنية على ما فيهما من الحياة و الحركة و التحول مدبر ؟!

هكذا الكثير من الحقائق التي نعيش معها كل لحظة نبقى ساهين عنها دون أن نهتدي العبرها ، فالخلق ، و الموت ، و النشأة ، و الزرع ، و الماء ، و النار كلها من أقرب الحقائق الينا و أكبرها شهادة و هدى لو وعيناها ، ، و الانسان قادر على أن يجعل الحياة كلها مدرسة ، و ما فيها من الظواهر و العبر

دروسا يكمل بها إيمانه و معرفته ،فيهتدي بالشهود الى الغيب ، و بالحاضر الى المستقبل ، و بالمخلوق الى الخالق ، الا ان المشكلة لا تكمن في قلة العبر و انما هي في قلة الاعتبار و المعتبر ، فالمواعظ على كثرتها و وضوحها كالشمس هل يراها من غض بصره أو استتر بحاجب ؟!

من هنا فان اهم اهداف الرسالات الالهية رفع الحجب التي بيننا و بين الحقائق (الاصر و الاغلال) العلمية بالتعليم ، و النفسية بالتزكية لنلمسها مباشرة ، قال الله : " هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته و يزكيهم و يعلمهم الكتاب و الحكمة و إن كانوا من قبل لفي ضلال مبين " (١) . أرأيت الذي ضل عن إبنه فدل عليه ؟ أرأيت كيف يعرفه ؟ كذلك الذي عاش في ضلال مبين عن حقائق يعشو عنها و هي قريبة منه كيف يهتدي اليها لو كشف عن بصره الستار ؟ و قد لا تكون حاجة الانسان لكي يستوعب الحقائق التي تهدي الآيات اليها ، و يؤمن بها الى المعلومات و المعارف ، بقدر حاجته الى يقظة الضمير و إثارة العقل.

و انما يترف الانسان ، و يصر على الشرك ، و يكفر بالاخرة بسبب ضلاله عن ربه ، و قدره حق قدره . و لذلك يذكره القرآن بآيات معرفته الدالة اليه ، و قد تكون تلك الآيات اقرب شيء اليه (كالخلق) و لكنه غافل عنها.

بينات من الآيات

[57]لان الانسان مخلوق فان خلقه هو أقرب الاشياء.

هل حدث أن بحثت عن شيء ثم اكتشفت انه كان في يدك أو جيبك و أنت ساه عنه ؟ أو تدري أين كان الخطأ ؟ إنه في المنهج . لقد بحثت عنه طويلا في درج مكتبك ، أو رفوف مكتبتك ، أوعند أهلك و أصدقائك ، لقد حسبته بعيدا عنك(١) الجمعة. 2 /

فضللت عنه ، و حين عدت الى نفسك و فتشت عنه لديها وجدته ، كذلك الحقائق الكبرى إنما ضل عنها البشر حين فتشوا عنها بعيدا ، بينما هي أقرب إليهم من حبل الوريد ، هل سمعت عن ذلك الفيلسوف الذي بحث عن الحقيقة في النظريات المعقدة فلما وقف على عجوز تغزل و سألها بمعرفت ربها أوقفت مغزلها وقالت بهذا ، و أضافت : أنا حينما تركت المغزل و قف . فكيف لا تقف السماء عن الحركة . أليس لها محركا مدبرا ؟ وكان درس العجوز أقرب الى قلبه من كل نظريات الفلسفة لماذا ؟ لانها تحدثت معه بلغة الوجدان .. بأقرب الاشياء اليه ، كذلك نحن امام حقيقة الخلق ، من الذي خلقنا واوجدنا ؟ حيث ان الانسان يجد نفسه أمام افتراضات ثلاث:

اولا : فهل الانسان هو الذي أوجد نفسه ، فيكون ذاته الذي خلق ذاته ؟ و هذا لا يقره عقل ولا علم ، فقد بدأ نطفة لا علم له ولا إرادة ، ثم نشأ حتى صار طفلا سويا لا حول ولا طول لديه ، و كفى بجهله نفسه و عقله و بدنه دليلا على أنه ليس الخالق . أم أن والديه خلقاه مع أننا نعلم يقينا بأن تقلبه في صلب أبيه ، ثم تناميه في رحم أمه قد تم بعيدا عن علمهما و إرادتهما.

و ثانيا : و يقول البعض أنه الدهر يميتنا و يحيينا ، و قد يعبر عنه البعض بالطبيعة ؛ هذه السماء و الارض والماء و الطين . أفلا يرجعون الى أنفسهم و يسألون : من الذي خلق الطبيعة ، و أركز فيها قوانينها ، و فتقها بعد رتقها ، و ألف بين أزواجها ، و نظم شؤونها . أوليس الخالق العليم المدبر الحكيم ؟

ثالثا :و يقولون أن الكون جاء صدفة و يسير بغير دليل . سبحانه الله ! ما هي الصدفة ؟ اولا تعني الصدفة ان حادثتين وقعتا في حالة واحدة، و كان لكل واحدة منهما سببا ، إلا انه كانت في وقوعهما معا نتيجة جديدة ؟ هذه هي الصدفةالتي نعرفها ، و لا نعرف الصدفة عملا بغير عامل ، أو خلقا بدون خالق ، أو حادثا بدون سبب (١. (

و يسخر بعض الباحثين من هذا الزعم و يضرب مثلا ويقول : لو فسر احد ظهور دائرة المعارف البريطانية بمجلداتها الضخمة وعلومها المتنوعة بان انفجار وقع في مطبعة ، ففاض الحبر على الاوراق صدفة ، و ارتسمت عليها صور الكلمات صدفة ، و خرجت مجلدات دائرة المعارف بما فيها من ثقافة العصر ، لو فسر احد نشوء أعظم موسوعة عصرية بهذه الصدفة كم يكون كلامه باعثا لسخرية ؟! كذلك الذي يدعي وجود

خلية واحدة صدفة.

وإن شواهد العمد و التصميم السابق متوافرة في كل حركة في الكون ، فبالرغم من وجود سنن كونية تجري عبرها الكواكب و المنظومات ، فانها ليست كآلة ميكانيكية ، بل انما هي كسيارة في عراء قد استوى عليها صاحبها ، و سيرها بقدرة و خبرة بالغة (٢) . (و حتى الحركةالميكانيكية تحتاج الى محرك . (

رابعا : ان الكون و من ضمنه الانسان لم يحدث بل كان أزليا . هل هذا صحيح ؟ كلا .. إن جميع شواهده تدل على حدوثه (تطوره ، تناميه ، تناقصه ، حاجة بعضه الى بعضه ، تركيب أجزائه بدقة و تناسق) إن هذه آيات الحدوث .. بل كل اكتشافات العلم تهدي الى أن للوجود عمرا محدودا ، فالحرارة المتاحة للحياة تتناقص ، و عمر النجوم محسوب (٣. (

]نحن خلقناكم فلولا تصدقون[

(2 /1)للمؤلف بحوث طويلة في كتابه) الفكر الاسلامي مواجهة حضارية تقع في مئات الصفحات بهذا الشأن فراجع.

(3)المصدر / ص ١٦٧.

كل شيء في الانسان و في الافاق يهديه الى تلك الحقيقة العظمى ، و حتى أولئك الجاحدون لا ينكرونها بقناعة إنما كفروا " و حجدوا بها و استيقنتها أنفسهم ظلما و علوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين " (١) . إذا فنحن نحتاج فقط الى النظر و التفكر في آيات الله بعيدا عن الحجب و الخلفيات الخاطئة ، حتى نصدق بذلك.

[59 - 58]و يبدد القرآن الحجب التي تحول دون رؤية هذه الحقيقة و التصديق بها ، فيقول:

]أفرءيتم ما تمنون[

هذه القطرات التي تتدفق منك و التي لا تعرف منها شيئا كثيرا ، هل تزعم أنك الذي تصنعه من صلبك ، أو تهيء أدوات قذفه حتى تحسب أنك الذي تخلقه ؟

و كان يستطيع القرآن ان يلقي علينا الحجة البالغة لو ساءلنا عن خلقه آدم و حواء و لكنه يدع ذلك الغيب الى شهود يراه و يعايشه كل بشر (الامناء) و يطرح السؤال التالي:

]ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون[

من الذي أنشأ المني و هل كان بامكانك ايجاده قبل البلوغ ؟ و حين بلغت هل تكون بتدخل منك و علم و تخطيط و ارادة ؟ ثم كيف تطور الحيمن و نمى من مرحلة الى اخرى حتى يصير انسانا سويا ، إنه لا ريب ليس من صنع الانسان ، ولا بعلمه . انما يتطور ضمن القوانين و السنن الالهية ، و بارادة الهية . إذ لا تعمل القوانين إلا باذنه ذلك بأن " لله ملك السموات و الارض يخلق من يشاء يهب لمن يشاء إناثا و يهب لمن يشاء ذكورا * او يزوجهم ذكرانا و إناثا ويجعل من يشاء عقيما " (٢) . ثم إذا(١) النمل / ١٤.

(2)الشورى / ٤٩ - ٥٠.

خرجنا من بطون امهاتنا الى الحياة ، فاننا لا نملك امام نمونا الا التسليم بأنه ليس بفعلنا ، انما بفعل ارادة خارجة عن اختيارنا ، هي ارادته عز وجل ، فنحن لا نستطيع ان نمنع نمو شعرة واحدة في رأسنا ، ولا ظفر واحد لانهما ينموان بعيدا عن إرادتنا.

[61 - 60]و من حقيقة الخلق تنطلق بنا الآيات الى الموت ، انه ايضا مفروض علينا فرضا فلا نعلم أجلنا . ولا نقدر على دفعه إذا حل بساحتنا ، و لو كنا الذين خلقنا أنفسنا فلماذا لا نخلقها بطريقة تتحدى الموت ؟ إذا فربنا هو الذي خلق الموت و الحياة ، وهو الذييحيي و يميت ، متى يشاء و أين و كيف.

]نحن قدرنا بينكم الموت[

فهو يجري بحكمة إلهية دقيقة ، فبالرغم من تعرض البشرية لألوان من الموت الجماعي ، بسبب الوباء ، و الحروب الطاحنة ، أو الفردي بالأسباب الطبيعية إلا أنها تزداد يوما بعد يوم و تبقى في توازن من الحفاظ على الجنس . ولو كان يجري الموت إعتباطا وبلا حكمة لربماانقرض النوع البشري منذ زمن بعيد في مثل طوفان نوح (ع) . إنما الله هو الذي يقدر الموت بين الناس ، و يقهرهم به " وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير (١) ، " فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون " (٢. (

] =وما نحن بمسبوقين * على أن نبدل أمثالكم[

و السبق هنا بمعنى الغلبة و العجز ، فربنا القاهر فوق عباده ، و ليس سبحانه مقهورا بقوة أنى كان نوعها ، فكما سبق الأشياء بالخلق لامن شيء فهو سبحانه يعدمهم متى ما شاء كيف شاء ، لا يسبقه شيء ، ولا يعجزه او يغلبه . و تأتي كلمة(١) الانعام / ١٨.

(2)النحل / ٦١.

مسبوقين لتوحي إلى حقيقة تظهر قدرة الله من زاوية اخرى ، و هي انه تعالى ابتداعا ، من غير مثال يحتذي به سبقه به غيره و السؤال ماذا يعني تبديل الأمثال ؟

- 1هلاك الانسان او جيل وا ستبداله بغيره ، و البشر لا يقدرون على الوقوف امام الارادة الالهية و منع تبديلها قال تعالى : " فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون * على ان نبدل خيرا منهم ومانحن بمسبوقين * فذرهم يخوضوا و يلعبوا حتى يلاقوا يومهمالذي يوعدون " (١. (

- 2تبديل مثل الانسان بالنظر الى صفاته المادية و المعنوية ، فان مثل الانسان المحدود لا تستحيل عودته عند المقتدر القوي ، فانها ليست باعظم من خلق السموات و الارض ، و تدبير شؤونهما ، و تنظيم عمليات التغيير و التبديل التي تجري كل لحظة فيها الا ترى كيفيدبر الرحمن امر الحياة فيميت الارض ثم يحيها بالغيث ، او يعجزه اعادة الانسان بعد الممات في الحياة بمثل هذه الطريقة ؟ قال الله تعالى : " قالوا أإذا كنا عظاما و رفاتا ءإنا لمبعوثون خلقا جديدا * أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات و الارض قادر على أن يخلق مثلهم " (٢) ، و قال عز من قائل : أوليس الذي خلق السموات و الارض بقادر على ان يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء و إليه ترجعون " (٣. (

- 3و قد يكون المثل الآباء الذين ماتوا و تآكلت أجسامهم ، حيث ضربوهم مثلا لانكار البعث ، و زعموا بانه يستحيل نشرهم كما قال الله يصف ذلك الخصيم " و ضرب لنا مثلا و نسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . (4) " و يشير القرآن(١) المعارج / ٤٠ - ٤٢.

(2)الاسراء / ٩٩.

(3)يس / ٨١ - ٨٣.

(4)يس / ٧٨.

إشارة واضحة الى هذا المعنى اذ يقول تعالى يخاطب نبيه : إنظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا

يستطيعون سبيلا * و قالوا إذا كنا عظاما و رفاتا ءإذا لمبعوثون خلقا جديدا * قل كونوا حجارة أو حديدا * أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم اول مرة فسينغضون اليك رؤوسهم و يقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا " (١. (

]و ننشئكم في مالا تعلمون[

فكما يبدل الله جيلا مكان جيل بنشىء الجيل الغابر في صورة جديدة لا يعلم عنها شيئا و هي نشأة الآخرة . و هكذا توحي الآية بأن عملية تبديل الاجيال دليل على وجود تدبير حكيم في نظام الخلق يهدينا بدوره الى أن ربنا سبحانه لا يذهب بالجيل الماضي الى العدم ، بلالى نشأة اخرى لانه حكيم كما لا ياتي بالجيل الجديد عبثا بل للامتحان و تكون الدنيا كقاعة امتحان يدخلها جماعة بعد جماعة والذين يخرجون مها يذهبون للحساب ، كما ان الذين يدخلون فيها يتعرضون للامتحان.

و لعل المعنى ان حقيقة الانسان لا تتغير بعد الموت ، و انما تتبدل صورته الظاهرية فقط ، حيث ينتقل الى حياة تتغير فيها المقاييس و نحن لا نعلم عنها شيئا.

[62]و كفى بجهل الانسان اين يصير بعد الموت دليلا على انه مدبر مخلوق و انه ليس القادر المتصرف في نفسه ، و كفى بعلمه بالخلق الأول إثباتا للبعث . و ان الذي خلقه من نطفة من مني يمنى ، قادر على بعثه للجزاء إذا وقعت الواقعة.

]و لقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون[

ان الانسان لا يستطيع ان ينكر قدرة الله على الاحياء في خلقه الاول ، فلماذا(١) الاسراء / ٤٨ - ٥١.

يشك فيه تعالى وفي قدرته على البعث ؟ " ألم يك نطفة من مني يمنى* ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر و الانثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى " (١) ؟! بلى إنه قادر و كفى بالنشأة الاولى مذكرا لنا بهذه الحقيقة المودعة في فطرتنا وعقولنا.

و دعوته الى التذكر هنا بعد قوله : (فلولا تصدقون الآية ٥٧) ، يهدينا الى ان المسافة بين الانسان و بين التصديق بالله و باليوم الآخر قريبة جدا لا تحتاج الا الى التذكر و ذلك بالتوجه الى مقاييسه العقلية التي يمارس بها فعاليات حياته.

[64 - 63]و يلفتنا الذكر الحكيم الى الآية اخرى تهدينا لو تفكرنا فيها الى الخالق اللطيف عز وجل و الذي يتجلى لخلقه في كل شيء حتى لا يجهلوه في شيء ، انها آية الزراعة ، التي تعرفنا من جهة بربنا ، و نضع امامنا من جهة ثانية صورة واضحة و قريبة لواقع البعث و النشور ، حيث تضع البذرة في التراب ، فلا تلبث بعد ان نصب عليها الماء أن تصير نبتة ، ثم تستوي على سوقها تحكي الحياة بكل روعتها و عنفوانها.

]أفرءيتم ما تحرثون[

انه لا يحدثنا عما لا نزرعه من الاشجار و النباتات لان عدم صنعنا فيها ثابت فهي إذا من عند الله ، إنما يحدثنا عما نزرعه بايدينا و نحرث له ، و الحرث هو قلب الارض و وضع البذور فيها ، و الرؤية في الآية منصرفة الى رؤية البصيرة كما هي في الآيات (٥٨ ، ٦٨ ،٧١) ، و نحن بعد ان نرى بهذا المعنى ينبغي لنا ان نجيب على السؤال:

]ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون[

(1)القيامة / ٣٧ - ٤٠.

فنحن حينما نعمل بصرنا و بصيرتنا وتطلع على الواقع الذي تتم فيه الزراعة حيث مئات الالاف من العوامل و القوانين التي نجهل اكثرها ، و لسنا نحن الذين اوجدناها ، أو نسيرها فانه حينئذ يتأكد لنا بانه تعالى الذي يزرع ، أما دورنا في الحقيقة فليس إلا الحرث و السقي و ما أشبه و كل ذلك يكون بنعم الله و حوله و قوته.

و حين تصفو رؤية الانسان و تجلو بصيرته يلامس قدرة الله و تدبيره و يؤمن بمدى سعة القدرة و حسن التدبير ، خصوصا المزارع حيث تحيط به آيات الخليقة ، و يتعامل مع الانواء و التراب و الماء و يتعايش نمو النبات و جماله و تجليات القدرة الالهية فيه.

و ترغب النصوص الدينية المؤمنين في التعامل مع الزراعة بهذه البصيرة ، قال الامام أبو عبد الله (ع) : " إذا اردت ان تزرع زرعا فخذ قبضة من البذر و استقبل القبلة ، و قل (الآيتان ٦٣ - ٦٤) ثلاث مرات ، ثم تقول : بل الله الزارع ثلاث مرات ، ثم قل : اللهم اجعله مباركا ، و ارزقنا فيه السلامة ، ثم انشر القبضة التي في يدك في القراح " (١) الارض الخالية.

و قال (ع " : (ان بني اسرائيل اتوا موسى (ع) فسألوه ان يسأل الله عز وجل ان يمطر السماء عليهم اذا ارادوا ، و يحبسها اذا ارادوا ، فسأل الله عز وجل لهم ذلك ، فقال الله عز وجل : لهم ذلك فأخبرهم موسى فحرثوا ، و لم يتركوا شيئا الا زرعوه . ثم استنزلواالمطر على ارادتهم و حبسوه على ارادتهم ، فصارت زروعهم كأنها الجبال و الآجام (الشجر الكثير الملتف) ، ثم حصدوا و داسوا وذروا فلم يجدوا شيئا ، فضجوا الى موسى (ع) و قالوا : انما سألناك ان تسأل الله ان يمطر السماء علينا اذا أردنا ، فاجابنا ثم صيرها علىناضررا ، فقال : يا رب ان بني اسرائيل ضجوا مما صنعت بهم ، فقال : ومم ذاك يا موسى ؟ قال سألوني ان(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٢٣.

أسألك ان تمطر السماء عليهم اذا ارادوا و تحبسها اذا ارادوا فأجبتهم ثم صيرتها ضررا ، فقال : يا موسى انا كنت المقدر لبني إسرائيل فلم يرضوا بتقديري ، فأجبتهم الى ارادتهم فكان ما رأيت " (١. (

و من دقيق عبارة القرآن انه لم يقل ءأنتم تخلقونه كما هو حال الحيمن و الجنين لانه ليس من عاقل يدعي ذلك و عملية النمو من البذرة حتى الثمرة تتم خارج ارادتنا و بعيدا عن أيدينا ، ولان نفي مجرد الزراعة ينفي الخلق بالتأكيد.

[67 - 65]و الدليل إلى أننا لسنا الزارعين ، ان الله قادر على منع المطر ، أو ان يسلط على حرثنا و باءا فلا تقوم له قائمة ، " كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فاهلكته " (٢) . ولا احد يمنع قدرته عز وجل.

]لو شاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون[

قالوا :تتكلمون في مجالسكم ، من جهة التعجب و التندم على ما أنفقتم في الارض لاجل الزرع ، و المراد انكم لا تقدرون امام قدرة الله بجعله النبات هشيما إلا (على) التكلم فقط (٣) . و لعل أصل الكلمة (فكه) يدل على الحديث غير الضروري و غير الجاد و غير الحق ، و منه سمي المزاح تفكها باعتباره لا يهدف بيان الحقيقة ، كما سمي بالباطل . و منه أيضا سميت (الثمرات (بالفاكهة باعتبارها غير ضرورية . ومن هنا قيل : التفكه : التكلم فيما لا يعنيك و منه قيل للمزاح فكاهة و هذا المعنى اقرب الى الآية.

حيث ان الانسان يفقد الارادة امام المشاكل ، و يتراكم عليه الهم و الغم عند(١) المصدر.

(2)آل عمران / ١١٧.

(3)تقريب القرآن الى الاذهان آية الله الشيرازي.

الخسارة و ويلحقه الندم و الشعور بالهوان " فيقول ربي اهانن " (١) ، حتى ليصبح حديثه عن ذلك أكله و شربه و محوره الذي يدور حوله في كل لحظة ، لعله يروح بذلك عن نفسه بعض الشيء.

و الآراء التي ذكرها المفسرون في هذه الآية قريبة من هذا المعنى إذ قالوا : تعجبون ، و قالوا : تندمون و قال بعضهم تتلاومون نادمين على ما حل بكم (٢) . و ربما كان المعنى الأخير أقرب و السياق التالي يدل عليه حيث انهم كانوا يقولون:

]إنا لمغرمون[

و في اللغة غرم أي خسر في التجارة ، و الغرم ما يعطى من المال على كره (٣ . (فالله القادر على جعل المزارع حطاما ، و فرض الغرم علينا ، بأن يرسل السماء بماء منهمر يغرق الحقول ، أو يرسل أسراب الجراد فلا تبقي زرعا ولا ضرعا ، أو يبعث ملايين الفئران تقضم الأخضر و اليابس فنجد أنفسنا مغرمين خاسرين لكننا إذا تفكرنا بمنهج سليم ، نكتشف أن الخسارة (الغرامة) التي فرضت علينا ليست بالصدفة ، بل هي بارادة متصرف في الحياة و يمضي في مصائرنا وأرزاقنا ما يشاء ، فيرزقنا أو يمنعنا و يحرمنا متى شاء و كيف.

]بل نحن محرومون[

إذن فارزاقنا يقسمها مقسم هو الخالق تعالى ، و مادام هو الزارع ، فبيده الحرمان ، فلماذا نشرك به أو نكفر ؟ و مادامت إرادته نافذة في الحياة لا يمنعها مانع فلماذا نشك في البعث و نصير في لبس من خلق جديد ؟ أولا يكفي ذلك دافعا الى(١) الفجر / ١٦.

(2)القرطبي / ج ١٧ / ص ٢١٦.

(3)المنجد / مادة غرم.

التصديق به و اليقين برسالته ؟

[70 - 68]ثم للنظر الى الماء و بالذات ذلك الذي نشر به و ترتكز عليه حياتنا و حياة كل كائن حي ، إننا لم ننزله من السحاب.

]أفرءيتم الماء الذي تشربون * ءأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون [ولا ريب اننا لا نستطيع الادعاء بانزاله من قبلنا ، و اكبر دليل على ذلك اننا لا ندري متى ينزل . و اذا غطت السحب سماءنا لا نملك التصرف في انزاله و بالكيفية و المقادير الطبيعية ، و هذه الحيقية يقبلها الجميع ، و لكن أورد البعض هنا شبهة ، فقالوا إن المطرنتيجة عوامل و قوانين طبيعية ، تبدأ من تبخر مياه البحار و المحيطات و الانهار بفعل الشمس ، و تنتهي بالغيث مرورا بصعود الابخرة في طبقات الجو العليا ، و هي عملية يفعلها النظام المجرد ، ولا نحتاج معها الى افتراض وجود ارادة (الخالق) تجري العملية بسببها، و هذه من أعقد مشاكل الانسان مع العلم.

يقول الدكتور بخنر الألماني بما اننا لم نجد ظاهرة واحدة في هذا الكون الرحيب من أبعد نقطة أكتشفناها في الفضاء و الى اقرب جرم الينا لم نجدها شاذة عن النظام الكوني .فليس لنا الحاجة الى افتراض وجود الله.

)و لكن الحقيقة) أن عدم وجود شذوذ في النظام ، أو شمولية النظام في الكون لا يكون دليلا على عدم وجود الخالق ، بل يكون دليلا قاطعا على وجود من خلق النظام وهو الله الخالق العظيم وإلا فمن جعل هذا النظام وقدره وأجراه و بعد هذا فهل كله خاضع للنظام ، أو هل أثبت العلم الحديث هذا النظام ، لنسمع " هايز نبرغ " العالم الفيزيائي يقول - في نظام الذرة - : إن من المستحيل علينا أن نقيسبصورة دقيقة كمية الحركة التي يقوم بها جسيم بسيط وأن نحدد في الوقت عينه موضعه في الموجة المرتبطة

به بحسب الميكانيكا الموجبة التي نادى بها "لويس دوبروغلى " فكلما كان مقياس موضعه دقيقا كان هذا المقياس عاملا في تعديل كيمية الحركة ، ومن ثم في تعديل سرعة الجسيم بصورة لا يمكن التنبوء بها ، و مهما تعمقنا في تدقيق المقاييس العلمية إبتعدنا أكثر عن الواقع الموضوعي.

هذا في الذرة الذي نادى فيها بعض بمبدأ النظام في اللانظام . وأما في المجرة أكبر وحدة وجودية فإن أحدث النظريات الفلكية أثبتت أنه بالرغم من وجود نظام متناسق فيها فان فيها مجالا واسعا لما نسميه بالصدف ؟ (١. (

فالنظام إذا ليس كل شيء ، حتى نتخذه ربا - فهو بالاضافة إلى كونه دليلا الى العليم العزيز الذي قدر ، كما أن الأثر دليل على المؤثر - فإن هناك إرادة فوق النظام تمضيه أو تعطله متى ما شاءت و هي إرادة الله ، و لقد أودع الله ثغرة في كل نظام و سنة تدل عليه ،فهذا ماء المزن العذب يصيره ربنا أشد ملوحة من الملح إن شاء ، فلا نقدر على شربه ، أو يستحيل من سبب للحياة ، الى وسيلة للموت و الدمار.

]لو نشاء جعلناه أجاجا[

يعني أشد ما تكون الملوحة ، و ربنا قادر على جعله كذلك حال كونه غيثا أو في مخازن الأرض ، بحيث لا يؤثر قانون التبخر في فصل ماء البحر عن أملاحه ، او يجعل أساس تركيب الماء قائم بالملح فلا يمكن فصله عنه بالتحليل و التحلية كما يفعل الآن لمياه البحار ، أوأنه لا ينزله من السحاب فلا يجد الناس إلا ماء البحر الأجاج ، و لكنه بلطفه جعل درجة تبخر الماء تختلف عن الأملاح ، كما نظم دورة(١) الفكر الاسلامي مواجهة حضارية : ص ١٨٨ - ١٨٩ للمؤلف.

سقوط الغيث و جميع جوانب الحياة بالصورة التي تنسجم مع متطلبات حياتنا. و عدم جعله ماء شربنا أجاجا ليس لعجز في مشيئته ، أو لأن القانون يفرض نفسه عليه بل لرحمته بنا ، فلم يرد ذلك حيث وضع القوانين الأساسية للغيث و إذا شاء في المستقبل تغييرها فله البداء " يمحو الله ما يشاء و يثبت و عنده أم الكتاب. "

و إدراكنا لهذه الحقيقة يعرفنا بخالقنا و يسوقنا إلى التصديق به و بقدرته المطلقة ، و بما يجب هو أن يصير التصديق مسؤولية و برنامجا عمليا في حياتنا ، يفرض علينا التزامات يعبر عنها القرآن بالشكر.

]فلولا تشكرون[

إذ لا فائدة من معرفة لا تقود إلى العمل ، و لا معنى للتصديق إذا فرغ من أهم مضامينه و أهدافه أي الشكر . و المهم هنا التذكير بان الشكر لا ينحصر في تلك الأذكار المتعارف عليها ، فهي جانب منها أو هي رمز لها أما الشكر الحقيقي فهو معرفة المنعم و تذكر نعمتهعليه ، و التصرف في النعمة حسب تعاليمه . و بالتالي التسليم الشامل له.

قال الامام الصادق (ع " : (ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فعرف أنها من عند الله إلا غفر الله له قبل أن يحمده " (١) و قال : " شكر النعمة اجتناب المحارم ، و تمام الشكر) أي ما يكمله) قول الرجل الحمد لله رب العالمين " (٢) وقال في تفسير الآية :لئن شكرتم لأزيدنكم : " نعم من حمد الله على نعمة ، و شكره ، و علم أن ذلك منه لا من غيره " . (٣)(١) اصول الكافي / ج ٢ / ص ٩٦.

(2)بح / ج ٧١ / ص ٤٠.

(3)المصدر / ص ٥٣.

و قال الامام العسكري (ع) : " لا يعرف النعمة إلا الشاكر ، ولا يشكرها إلا العارف " (١) و قال الإمام زين العابدين (ع) : " الحمد لله الذي لو حبس عن عباده معرفة حمده على ما أبلاهم من مننه المتتابعة ، و أسبغ عليهم من نعمه المتظاهرة ، لتصرفوا في مننه فلم يحمدوه ، و توسعوا في رزقه فلم يشكروه ،

ولو كانواكذلك لخرجوا من حدود الإنسانية إلى حد البهيمة ، فكانوا كما وصف في محكم كتابه : " إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا " (٢. (

و ما شكر الله من أسرف في نعمه ، او تقوى بها على معصيته ، و نستوحي من أمر الله بالشكر بعد الإنذار المبطن المتمثل في قدرة الله على تحويل الماء أجاجا ؛ أن سلوك الإنسان فيما يتصل بربه أو بنعمه سبحانه ينعكس على الطبيعة من حوله . فلربما ضرب الجفاف بلدا ،فقلت المياه و انعدمت لعدم شكرهم ربهم.

[72 - 71]و النار هي الاخرى نعمة هامة و أساسية تتدخل في كثير من مرافق حياتنا ، فهي مصدر للطاقة ، و وسيلة للتدفأة و الطبخ و الإضاءة ، و عامل أساسي في الصناعة إلا أن القرآن في هذا السياق لا يريد الفاتنا إلى هذه الجوانب على أهميتها ، بقدر ما يريد الحديث عن النار باعتبارها آية من آياته و نعمة عظيمة لابد من شكر الله عليها.

]أفرءيتم النار التي تورون[

أي توقدون و تشعلون ، و الملاحظ أن الله يوجهنا إلى أشياء متميزة (الحيمن و الجنين ، و الموت ، و الحرث ، و الماء ، و النار) ، و تميزها ليس فقط في كونها من أبرز و أهم الاشياء ، بالنسبة للانسان أو لانها من أعظم تجليات الله في الخليقة ، بل لأنها قد أصبحت لا تثير اهتمامنا كثيرا ولا تدعونا إلى التذكرة والاتعاظ ، إنما(١) المصدر / ج ٧٨ / ص ٣٧٨.

(2)الصحيفة السجادية الدعاء الاول.

نتعامل عادة معها باعتبارها متوفرة قد تعودنا عليها ، فمنذ أن بدأنا ندرك الحياة تعايشنا مع الماء و النار و ما أشبه ، و لكن ألا فكرنا في مدى حاجتنا أليها ؟ و كيف أن الله وفرها لنا ؟ و ماذا لو انعدمت عنا ؟ هنالك يتحول موقفنا منها تماما .. إنها سوف تنطق بأسرار الحياة و تسبح بحمد الرب الذي وفرها و تصبح جسرا بيننا و بين معرفة الخالق العظيم.

]ءأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون[

قالوا إنها المرخ و العقار الذين كانت العرب توقد النار بضربهما ببعضهما و يبدو أنها كل شجرة تتقد فهل كنا نحن الخالقين لها أم الله ؟ أفلا نؤمن بقدرة ربنا الذي خزن النار في هذه الأشجار الخضر أولا نصدق بأنه قادر على إحياء الموتى ؟

مشكلة البشر في قضية البعث أنه يقيس الأمور حسب قدراته ، فحيث يجد في نفسه الضعف و العجز ينكر الآخرة ، أما إذا نظر إلى القضية من خلال إرادة الله المتجلية في الكون فلن يرى البعث إلا أمرا هينا و ربما تكشف هذه الفكرة سر التساؤل المتكرر (ءأنتم أم نحن) ،فلو كانت الإجابة فرضا أننا نحن (البشر) نخلق و نزرع و ننشيء و ننزل لأمكن الكفر بالبعث ، بينما الإجابة المعروفة لدى كل بشر أن من يفعل ذلك غيرنا ، هنالك نسعى لمعرفته ، و الإيمان به و معرفة أسمائه و بالتالي نعرف واقع البعث و النشور.

[73]و ربنا لم يخلق النار و ينشيء شجرتها و حسب ، و إنما جعل لخلقها أهدافا محددة.

]نحن جعلناها تذكرة[

للناس بربهم من حيث هي نعمة إلهية عظيمة ، كما أنها تذكرنا بنار جهنم الكبرى فهدفها الأول و الأهم هو تزكية نفس الإنسان ، ففي الخبر عن الإمام الصادق)ع) : " إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم ، و قد اطفيت سبعين مرة بالماء ، ثم التهبت ، و لولا ذلك ما استطاع آدمي أن يطفيها ، و إنها ليؤتى بها يوم القيامة حتى توضع على النار فتصرخ صرخة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثى على ركبتيه فزعا من صرختها " . (١)أما الهدف الآخر للنار فهو الإنتفاع المادي بها في مختلف مرافق

الحياة ، و المجالات التي يكتشف الإنسان منافعها فيها و طرق استخدامها سواءا بصورتها المباشرة) اللهب و الشعلة) ، أو غير مباشرة (عموم الطاقة. (

]ومتاعا للمقوين[

قالوا :المقوي الذي ينزل القي و هو الصحراء القاحلة ، و إنما جعلت متاعا لهم بالخصوص لمزيد حاجتهم إليها ليس لتدفىء و الطبخ فقط و إنما لطرد الوحوش في الليل إيضا.

و قال بعضهم : المقوي الجائع كما قال الشاعر:

وإني لأختار القوي طاوي الحشى محافظة من أن يقال لئيمو يقال : أقوى الرجل إذا لم يكن معه زاد . (٢) و هذا أقرب ، و لعل القي سمي كذلك لانعدام الطعام فيه . وفي حالة الجوع و فناء الزاد تكون النار متاعا عظيما خصوصا للمسافر.

[74]و يختم ربنا هذا الدرس القرآني بدعوة إلى التسبيح باسمه للخلاص من(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٢٤.

(2)القرطبي / ج ١٧ / ص ٢٢٣.

النار و مصير أصحاب الشمال و كوسيلة للتقرب إلى رضوانه.

]فسبح باسم ربك العظيم[

و هذه الدعوة هي محصلة طبيعية لحديث الآيات السابقة ، و متممة لها ، فتلك دعتنا إلى التصديق و عرفتنا بربنا من خلال نعمه و آياته المتجلي فيها سبحانه ، و حرضتنا على التذكر و الشكر ، و هذه الخاتمة أوضحت لنا البرنامج العملي لتلك المعرفة و التذكر و الشكر المتمثل في تنزيه الله عن الشريك وعن أي نقص و عجز وحد.

ولأننا لا نعرف كنه ذاته سبحانه فليست لنا وسيلة اليه وإلى تسبيحه إلا أسماؤه الحسنى المتجلية في الطبيعة ، و المذكورة في كتابه ، و أسمى أذكار التسبيح قول العبد (سبحان الله ، و الحمد لله ، ولا إله إلا الله و الله أكبر) و هو سبحانه عظيم و إسمه كذلك عظيم ، و تنكشف لنا عظمته و عظمة إسمه كلما تقدمت و تعمقت معرفتنا بآياته و آثار عظمته في الخليقة كلها.

و الملاحظ في هذه الآيات (٥٨ - ٧٣ (ذكرها لأهم النعم الفطرية و الحضارية بالنسبة للإنسان ، فاهم النعم الفطرية هي خلقة الإنسان التي تبدأ من المني و تستمر ، و بنعمة المطر ، و أهمها حضاريا مما يعتبر إكتشافها أنعطافات كبرى في تاريخ الحضارة البشرية .إكتشاف الزراعة و النار ، ولا ريب أن لنعمة الزراعة تأثيرا في سائر مرافق حياة الإنسان ، فهي مرتكز لحاجاته الأساسية كالتغذية و البناء ، و الكمالية كالزينة والظل و التمتع ، حتى قالوا إنها أصل كل حضارة.

و معرفة هذه الحقائق يهدينا إلى أن الحضارة التي بأيدينا ألان ظاهر الأمر أننا الذين صنعناها و أوجدناها ، إلا أنها من صنع الله و فضله ولأن الحضارة المادية(الانسان + الزراعة + الماء + الطاقة) هي من خلقه و تنشئته ، ثم إنها لا تكتمل إلا بالإيمان مما يأتي التأكيد عليه في الدرس القادم.

أن هذا لهو حق اليقين

هدى من الآيات:

إن خلقنا و موتنا ، و الزراعة والغيث ، و كذلك النار ، من الآيات التكوينية الهادية إلى الإيمان بالله الخالق ،

و باليوم الآخر ، أما الآية التشريعية فهي القرآن الذي هو انعكاس لسائر سنن الحياة و واقعياتها في صورة نهج شامل و كامل ، وهو اعظم آية تجلى فيهاالخالق لخلقه ، إذ لا ينتفع البشر من سائر آيات الله في الخليقة من دون القرآن الذي ترتفع به حجب الغفلة و الشهوات ، و تتكامل به التذكرة و التبصرة ، و تتنامى المعرفة و الإيمان بتلاوة آياته المبصرات.

و في أول هذا الدرس يطالعنا الذكر قسما مؤكدا و عظيما على كرامة القرآن ، و أنه حفظ في كتاب لا تناله إلا الأيدي الطاهرة ، و أنه ليس إلا من عند خالق الوجود و مبدعه ، الأمر الذي يجعل الإيمان به مفروضا على الإنسان المخلوق فرضا.

ثم تلخص الآيات الآخيرة حديث السورة عن البعث (الواقعة) ، و تبدأبالإستنكار على البشر استخفافهم بحديث الواقعة ، و تتحداهم بالموت الذي قهر الله به عباده ، و الذي هو في نفس الوقت دليل الجزاء و المسؤولية اللذان يزعم الإنسان القدرة على تحديهما . ثم تؤكد الآيات انقسام الناس إلى ثلاثة ازواج ، و أن التحاق كل امرء بأصحابهيتم عند الموت ، فأما من المقربين ، و أما من أصحاب اليمين ، و أما من أهل الشؤم و النار . و هذه الحقيقة واقعية ، و حق يقين لا يغير فيه تكذيب المكذبين و ضلالهم شيئا ، كأي واقع آخر لا ينتفي بمجرد انكاره . و كفى بحتمية وقوعه أنه وعد من ربنا القادر العظيم.

وفي الأخير يأمرنا بالتسبيح لأنه السبيل إلى النجاة من النار ، و إلى المزيد من القربى اليه و التي ينتمي بها الإنسان الى المقربين أفضل الأزواج ، أوليس هو النهج الأنجح لمقاومة دواعي الشرك به و التكذيب بوعده ؟

بينات من الآيات

[76 - 75]إن عظمة الله و أسمائه تتأكد لدى الإنسان كلما لاحظ الوجود من حوله و تفكر فيه ، لأنه بكله آيات هادية إلى تلك الحقيقة ، و عرصة تتجلى فيها العظمة والأسماء ، فبعظمة الخلق و روعته نهتدي إلى أسمائه الجمالية فهو الحي القوي المقتدر الجميل الرحمن.

وبما في الخلق من صفات التحول ، و العجز ، و الضعف ، و المحدودية ، نهتدي إلى صفات الخالق الجلالية، و أنه القدوس السبحان المتعالي الواسع ، و لعل هذا ما يفسر إشارته بالقسم إلى الكواكب و النجوم المتوزعة في الفضاء الرحب ، فإنها بحسنها و نظامها الدقيق و علاقتها بالحياة على الأرض تكشف جانبا من عظمة الخالق عز وجل و ربنا يفتح أفق البشرية و يثيرها نحو التطلع إلى علم الفضاء ، و لكن ليس في هذا العصر الذي تقدمت فيه معارف الإنسان بهذا الجانب منالعلم ، و تخصص فيه الباحثون والمراقبون ، إنما قبل عدة قرون ، وفي وقت كانت معلومات البشر بهذا العلم و توجهاته ضئيلة و محدودة ، بل و مخلوطة بالخرافات و الأساطير.

]فلا أقسم بمواقع النجوم[

ولم يقل بذات النجوم ، و ذلك ليبين حقيقة علمية مهمة وهي أن الكواكب ليست منثورة في السماء أعتباطا ، كما يظن الجاهل بنظرته الخاطفة إلى ظاهرها ، بل هي خاضعة لنظام دقيق و محكم بحيث تأخذ كل نجمة موقعها فيه ، بما يجعل النظام متكاملا ، و يجعلها تؤدي دورهاالمطلوب و المناسب في الوجود . ولا ريب أن هذه الحقيقة حرية بالدراسة و البحث من جانب المختصين لما فيها من فوائد علمية تهم الإنسان ، و تجليات لعظمة خالقها و مدبرها تزيد إيمانه و تصديقه و تسبيحه.

"و يقول الفلكيون : إن من هذه النجوم و الكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم (تزداد كلما تقدم العلم بالإنسان) ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، و ما يرى إلا بالمجاهر و الأجهزة ، و ما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه ، هذه كلها تسبح في الفلك الغامض ، ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من نجم آخر ، أو يصطدم بكوكب آخر ، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي ، يسيران في اتجاه واحد ، و بسرعة واحدة ، وهو احتمال بعيد ، جدا ، إن لم يكن مستحيلا) "
. (1

و يقول العلماء المختصون أنهم اكتشفوا لحد الآن نصف مليارد مجرة ، ولا يزالون يكتشفون المجرة تلو

الأخرى في هذا الفضاء الرحب ، و إنما يدرك عظمة قسم الله بمواقع النجوم الذي يطلع على مثل هذه الحقائق ، أما الذي يجهلها فان القسم بها(١) في ظلال القرآن / نقلا عن كتاب : الله و العلم الحديث / ص ٣٣.

عنده ليس ذا أهمية.

]و إنه لقسم لو تعلمون عظيم[

فكلما تقدم الإنسان خطوة في العلم كلما ظهرت و تأكدت له عظمة هذا القسم ، و كفى بذلك عظمة أنه قسم منه تعالى بمواقع النجوم . و نخلص الى القول بأن عدم قسمه مباشرة بها يعود الى أمرين رئيسيين : أحدهما : أن القسم بشيء يحقق غرضه حينما تكون عظمته معروفة عندالطرف المقابل ، و الآخر : لأن الناس في الجاهلية كانوا يعتقدون في النجوم و مواقعها بالخرافات و الشرك فلم يقسم الله بها لكي لا تتعمق اعتقاداتهم الباطلة ، أو يتخذونه مبررا لها . قال الامام الصادق (عليه السلام) : " إن مواقع النجوم رجومها للشياطين ،فكان المشركون يقسمون بها ، فقال سبحانه : فلا أقسم بها " (١) ، و قال (عليه السلام) : " كان أهل الجاهلية يحلفون بها ، فقال الله عز وجل : " الآية. (2) "

و لعل في الآية ايحاء و اشارة من قبل الله الى الناس بعدم جواز حلفهم هم بها ، حيث لا يصح للمخلووق القسم إلا بالخالق ، وفي الروايات تصريح بذلك ، قال الامام الصادق (عليه السلام) بعد ان تلى الآية " عظم إثم من يحلف بها " (٣) ، وفي هاتين الآيتين دعوة الى نبذ الظنون و الاساطير في موقف الانسان من النجوم ، و التي تضر اكثر مما تنفع ، الى العلم ، مما يظهر اهتمام الاسلام و موقفه من العلم ، و دعوته الرائدة اليه ، و أنه ليس كما يظن البعض او يصورونه يعارض العلم و الحضارة .

[79 - 77]و بعد التمهيد الآنف بالقسم يصارحنا الوحي بتلك الحقيقة(١) مجمع البيان / ج ٩ الموضع.

(2)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٢٥.

(3)المصدر.

العظمى ، و التي كانت الغرض من القسم العظيم.

]إنه لقرءان كريم[

أليس يتجلى فيه ربنا بكل جماله و جلاله ، و أي كرامة اسمى من كتاب تنفتح آياته عن جمال الخالق ، و روعة المخلوق ، وعن جلال الخالق ، و عظيم خلقه ؟

قالوا : الكرم مجمل الصفات الحميدة . (1)

و كيف لا يكون القرآن كريما و قد رغبنا الى مكارم الاخلاق و حسان الاداب ، الى العدل و الحرية والفضائل الانسانية ، كما نهانا عن الخبائث و الرذائل و السيئات ؟

و إذا عدنا الى انفسنا وما فطرت عليه من حب الخير و الفضيلة لعرفنا ان القرآن كتاب ربنا أو ليس يدعو الى ذات الصفات الحسنى التي نحبها ونعتقد ان ربنا يحبها ، فكيف يكفرون به و كل آية آيه منه شاهد على انه من عند الله ؟

و السؤال هنا : ما هو وجه ذكر السياق للقرآن و بهذه الصورة المؤكدة ؟

اولا :لان الدرس السابق ذكرنا بالآيات الهادية الى التصديق بالخالق . فكان من البديهي ان يأتي ذكر القرآن ، لانه السبيل الى معرفة الآيات ، و البصيرة لرؤية تجليات الرب ، و من لا يهتدي بالقرآن كيف

يتسنى له وعي حقائق الخليقة ، و فك رموزها ، و مشاهدة غيبها ، و العروج منها الى معرفة خالقها ؟

ثانيا : لان التصديق بالخالق ، و التذكر ، و الشكر ، و بالتالي التسبيح باسم الرب العظيم الذي دعى اليه الدرس السابق ، لا يتم بالوجه الأكمل الا بالقرآن ،(١) راجع مفردات الراغب.

فالقرآن معراج السابقين ، و منهج اصحاب اليمين . أنه شريعة سمحاء لمن أراد الذكر ، و ابتغى الشكر ، و بحث عن سبيل التقوى . إنك تسأل كيف أصدق بالخالق ؟ و كيف اتذكر و أشكر ؟ و كيف أسبح ؟ كل ذلك بالقرآن " يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه و يهديهم الى صراط مستقيم " (١) فالتسبيح الحقيقي الذي يأمر به الله بقوله : " فسبح باسم ربك العظيم " (٢) لا يتلخص في الذكر ، انما يكون باسم الله العظيم و قرآنه أعظم اسمائه الظاهرة ، بل وفيه الاسم الاعظم.

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : " من أعطاه الله القرآن فرأى ان أحدا اعطي شيئا أفضل مما أعطي فقد صغر عظيما و عظم صغيرا " (٣) و قال (صلى الله عليه و آله) : " فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه " (٤) و قال " :القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم إن هذا القرآن هو حبل الله ، و هو النور المبين ، و الشفاء النافع ، فاقرأوه فان الله يأجركم على كل تلاوته بكل حرف عشر حسنات . أما اني لا أقول (الم) حرف واحد ، ولكن الف ، ولام ، و ميم ثلاثون حسنة" (٥) و قال : " القرآن أفضل كل شيء دون الله ، فمن وقر القرآن فقد وقر الله ، ومن لم يوقر القرآن فقد استخف بحرمة الله ، و حرمة القرآن على الله كحرمة الولد على والده " (٦) و قال " : إن أردتم عيش السعداء ، و موت الشهداء ، و النجاة يومالحسرة ، و الظل يوم الحرور ، و الهدى يوم الضلالة ، فادرسوا(١) المائدة / ١٦.

(2)الواقعة / ٧٤.

(3)بح / ج ٩٢ / ص ١٣.

(4)المصدر / ص ١٩.

(5)المصدر.

(6)المصدر.

القرآن فانه كلام الرحمن ، و حرز من الشيطان ، و رجحان في الميزان " (١) و قال:

"من استظهر القرآن و حفظه ، و أحل حلاله ، و حرم حرامه ، أدخله الله به الجنة " و شفعه في عشرة من أهل بيته ، كلهم قد وجب له النار " (٢) و قال) صلى الله عليه و آله) يعظ سلمان المحمدي : " يا سلمان ! المؤمن إذا قرأ القرآن فتح الله عليه أبواب الرحمة ، و خلق الله بكل حرف يخرج من فمه ملكا يسبح له الى يوم القيامة .. وان أكرم العباد الى الله بعد الانبياء العلماء ثم حملة القرآن ، يخرجون من الدنيا كما يخرج الانبياء ، و يحشرون من قبورهم مع الانبياء ، و يمرون على الصراط مع الانبياء ، و ياخذون ثواب الانبياء ، فطوبى لطالب العلم و حامل القرآن مما لهم عند الله من الكرامة و الشرف " (٣. (

و لكننا نحن المسلمين لا زلنا بعيدين عن القرآن ، بالرغم من هذه التأكيدات ، و بالرغم من تجربتنا معه ، أوليس قد انقذنا من ظلمات الجاهلية ، و شيد لنا حضارة كانت ولا زالت منارا للبشرية ، فلماذا هجرناه حتى عاد بيننا غريبا ؟ أفكارنا لا تشير الى بصائره ، وسلوكنا لا تستوحي من قيمه . و بكلمة : خسرنا كرامة القرآن و عزه ، ولا يزال يدعونا الى مأدبته وكرامته ، بيد أننا لن نبلغه الا بسعي منا ، ذلك لانه كما يصفه الله عز وجل:

]في كتاب مكنون[

فلابد اذا نستظهره كما يقول رسول الله (صلى الله عليه وآله) (٤) ، و نستنطقه كما يقول الامام علي (عليه السلام) ، حتى نطلع على مكنونه ، فهو بالرغم من اشتماله على تبيان لكل شيء لن ينطق ، " ذلك القرآن فاستنطقوه ، و لن ينطق ،(١) المصدر.

(2)المصدر.

(3)المصدر / ص ١٨ و لمزيد راجع المصدر.

(4)المصدر / ص ١٣

و لكن أخبركم عنه ، فيه علم ما ياتي ، و الحديث عن الماضي ، و دواء دائكم ، و نظم ما بينكم " (١) ، و قد أراد الامام (عليه السلام) من قوله : " ولن ينطق " أننا لن نقرأ في ظاهر القرآن كل المناهج الحضارية للحياة ، ولا مضامينه العلمية ، انمانجدها بالتفكير و التدبر في آياته ، الذي يفتح لنا كن الذكر الحكيم و يبصرنا محتوياته و تأويلاته الواقعية في جوانب الحياة المختلفة ، و العقل اذا أعمل على هدى الايات و السنة و العلم الصحيح هو مفتاح القرآن . قال تعالى : " و ما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الالباب " (٢) ، و قال : " و تلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون " (٣) و قال " :كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته و ليتذكر اولو الألباب " (٤. (

ولأننا تعودنا على الافكار الجاهزة ، ولان العملية الفكرية عملية مجهدة ، ولان مناهجنا في فهم القرآن و تفسيره متخلفة و خاطئة في أغلبها ، فلازلنا بعيدن عن الثقافة القرآنية التي نحتاجها في حياتنا الفردية و الاجتماعية ، و لم ننتفع عمليا بالرغم من الحاجةالملحة إليها . وما أشبه حالنا بظمآن يجري بقربه نهر فرات لم يكتشفه ، أو فقير تحته كنز كبير!

ولا يفوتنا القول بان من معاني " مكنون " محفوظ ، لم و لن تصل اليه يد التحريف ، و لن يطفىء نوره المشركون ولا الكافرون . و قال بعض المفسرين ان معنى الاية انه كتاب محفوظ عند الله ، و الكتاب هنا كتاب في السماء (٥) .. و لكن(١ (المصدر / ص ٢٣ عن أمير المؤمنين (ع. (

(2)آل عمران / ٧.

(3)العنكبوت / ٤٣.

(4)ص / ٢٩.

(5)القرطبي / ج ١٧ / ص ٢٢٤.

يبدو ان الاية التالية تفسر هذه الاية ، فهو مكنون عن غير المطهرين.

]لا يمسه إلا المطهرون[

قال المفسرون و الفقهاء تبعا للآيات يعني لا يجوز ان يمس القرآن الا من كان مسلما طاهرا . قال أبو الحسن (عليه السلام) : " المصحف لا تمسه على غير طهر ، و لا جنبا ، ولا تمس خطه ولا تعلقه . ان الله يقول : " الآية " (١ (، و سئل الامام الصادق (عليه السلام) عن التعويذ تعلقه على الحائض ؟ قال : "نعم لا بأس ، تقرأه ، و تكتبه ، ولا تصيبه يدها " (٢. (

و هذا التفسير هو ظاهر الاية ، و اذا تدبرنا في الآية أكثر لعرفنا ان الطهارة الجدسية بعد واحد من

الطهارة ، و البعد الاخر هو طهارة الروح التي هي الاهم.

و لا يمس حقائق القرآن الا المطهرون ، عن الاثم و الفواحش ، البعيدون عن العقد و الافكار الدخيلة و المسبقة ، و الاغلال و الاصر ، و سائر الادران التي تحجب الانسان عن كتاب الله . قال ربنا سبحانه : " و اذا قرأت القرآن جعلنا بينك و بين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا * و جعلنا على قلوبهم أكنة ان يفقهوه و في آذانهم وقرا و اذا ذكرت ربك في القرآن و حده ولوا على أدبارهم نفورا " (٣) و قال : " أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها " (٤) ، كما جاء أمره تعالى بالاستعاذة من الشيطانفي قوله : " و إذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان " (٥) لأنه لون من ألوان النجاسة المعنوية التي تحجب الانسان عن الآيات.

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٢٦.

(2)المصدر / ص

(3)الاسراء / ٤٥ - ٤٦.

(4)محمد / ٢٤.

(5)النحل / ٩٨.

و أئمة الهدى الذين تنزل الوحي في بيوتهم هم الاعلم بمعاني القرآن ، لانهم أظهر مصاديق الطهر لقوله تعالى : " انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا " (١. (

و من الدقة في التعبير انه تعالى لم يقل الطاهرين انما قال " المطهرين " مما يؤكد تأويل هذه الآية في أهل البيت العصمة (عليهم السلام) حيث طهرهم الله ، و لذلك قال أمير المؤمنين)عليه السلام) : " فان القرآن الذي عندي لا يمسه الا المطهرون و الاوصياء من ولدي " (٢) و لعل المراد مما عنده القرآن بتفسيره و تأويله وما تلقى من الاحاديث عن النبي (صلى الله عليه و آله) فيه.

و قد قال الامام الصادق (عليه السلام) : " و انما القرآن امثال لقوم يعلمون دون غيرهم ، و لقوم يتلونه حق تلاوته ، و هم الذين يؤمنون به و يعرفونه ، فاما غيرهم فما أشد اشكاله عليهم و أبعده من مذاهب قلوبهم ، و لذلك قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) : إنه ليس شيء بأبعد من قلوب الرجال من تفسير القرآن ، و في ذلك تحير الخلائق أجمعون الا ما شاء الله ..الى ان يقول يخاطب السائل .. و إياك و تلاوة القرآن برأيك فان الناس غير مشتركين في علمه كاشتراكهم فيما سواه من الامور (يعني كعلم الائمة(، ولا قادرين عليه ولا على تأويله الا من حده و بابه الذي جعله الله له ، فافهم انشاء الله ، و اطلب الامر من مكانه تجده انشاء الله " (٣. (

[82 - 80]و انما يقصر غير المطهرين عن مسه ولا يجوز لهم ذلك لانه كلام الله رب العالمين.

(1)الاحزاب / ٣٣.

(2)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٢٦.

(3)بح / ج ٩٢ / ص ١٠٠ - ١٠١.

]تنزيل من رب العالمين[

و قد تجلى الرب فيه باسمائه ، و آياته ، و رسالاته ، و شرائعه ، و كتاب هذا شأنه يحجب عنه من اتبع هواه ، و تمكنت الشهوات من قلبه ، لان معرفة الله معراج القلب اليه ، و حضور النفس في مقامه الاعلى ، فكيف يسمح لمن تراكمت عقد الذنوب على قلبه بذلك ؟! حاشا بذي العرش ان يسمو الى مقامه الذي اخلدوا الى الأرض واتبعوا أهواءهم!

]أفبهذا الحديث أنتم مدهنون[

انه حديث عظيم لابد من أخذه بقوة و عزم ، و الاستقامة عليه في مواجهة الضغوط . أما اللين في أمره ، و الاستسلام للضغوط بالاعراض عنه ، فهو لا يتناسب و عظمة القرآن . و هذا المعنى هو المفهوم من مختلف الاراء في تفسير المدهن ، قالوا : مكذبون ، و قالوا : منافقون ، و قال بعضهم : ممالقون الكفار على الكفر به ، و قال آخر : المدهن الذي لا يعقل ما حق الله عليه و يدفعه بالعلل ، و قال بعض اللغويين : مدهنون تاركون للجزم في قبول القرآن (١ . (و قال آية الله الشيرازي : متهاونون ، كمن يدهن في الامر أي يلين جانبه تهاونا ، و أصله استعمال الدهن للين الجسم (٢) ، و منه قول الله : " ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله و هو أعلم بالمهتدين * فلا تطع الكافرين * ودوا لو تدهن فيدنون * ولا تطع كل حلاف مهين " (٣. (

و نستفيد من الاية انه لا يجوز لاحد التهاون في احكام القرآن في اي حال ، ولأي سبب ، لانه حديث الله المفروض تطبيقه و الالتزام به على الخلق ، ولا يجوز ان يبرر(١) القرطبي / ج ١٧ / ص ٢٢٨.

(2)تفسير تقريب القرآن للاذهان / الموضع .

(3)القلم / ٧ - ١٠ .

ذلك بانه قد تعرض للضغط لان علامة الايمان تحدي الضغوط ، و تفضيل الاخرة على مصالح الدنيا و شهواتها.

و انما سقط الغابرون عندما خارت عزائمهم عند مواجهة التحديات فأخذوا يتهاونون في أمر الدين ، و يلينون أمام الصعاب .

]و تجعلون رزقكم أنكم تكذبون[

كذب الذي يزعم ان رزقه من العباد فاخذ يداهنهم ، او من الانواء فطفق يستدرها بدل ان يشكر بارءها ، فقد يكون الناس سببا للرزق ، و لكن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، فلا يجوز مداهنتهم و تكذيب الحق للحصول على لقمة الخبز ، بل الله يجب ان يخاف و يتقي ، لانه اذا منع الرزق لا يقدر احد على منحه ، و اذا منح فلا يقدر احد على منعه . و بهذا نعرف ان تفاسير الآية المختلفة تعود بالتالي الى تفسير واحد : انهم قد زعموا خطأ ان رزقهم بالتكذيب مداهنة للناس ، و لعل هذا الزعم هو مورد استشهاد النصوص التي جعلت الرزق بمعنى الشكر حسب مورد النزول المروي ، ذلك ان زعم اهل الجاهلية بأن الانواء هي التي تمطرهم هو كزعم هؤلاء ان التكذيب سبب لرزقهم.

و هذا التفسير ينسجم مع السياق الذي يستهدف تركيز الايمان بالله وحده و التصديق بانه الخالق الرازق (الايات ٥٧ / ٧٤) و بالأخص اذا لاحظنا قوله " : فلولا تشكرون " في الآية (٧٠. (

قال الامام علي (عليه السلام " : (تجعلون شكركم انكم تكذبون ، (وأضاف يعني اهل الجاهلية) و كانوا اذا امطروا قالوا : امطرنا بنوء كذا و كذا ، وفانزل الله " الآية " (١) ، و جاء في تفسير القرطبي يعلل استبدال كلمة الرزق بالشكر في(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٢٧.

المعنى : (لأن شكر الرزق يقتضي الزيادة فيه ، و يكون الشكر رزقا على هذا المعنى ، فقبل " و تجعلون رزقكم " أي شكر رزقكم الذي لو وجد منكم لعاد رزقكم ، انكم تكذبون بالرزق ، اي تضعون الكذب مكان

الشكر ، كقوله تعالى : " وما كان صلاتهم عند البيتإلا مكاء و تصدية " اي لم يكونوا يصلون ، و لكنهم كانو يصفرون و يصفقون مكان الصلاة . ففيه بيان ان ما اصاب العباد من خير فلا ينبغي ان يروه من قبل الوسائط الذي جرت العادة بان تكون أسبابا ، بل ينبغي ان يروه من قبل الله تعالى ثم يقابلونه بشكر ان كانتنعمة ، او صبر ان كان مكروها. (

و روي عن ابن عباس قال :مطر الناس على عهد النبي (صلى الله عليه و آله) فقال النبي (صلى الله عليه و آله) : " أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر ، قالوا : هذه رحمة الله ، و قال بعضهم : لقد صدق نوء كذا و كذا (أي نجم) . فنزلت الايات " فلا أقسم بمواقع النجوم ؟؟ (حتى بلغ قوله :) و تجعلون رزقكم انكم تكذبون (1) " أي تجعلون رزقكم انكم تكذبون بالله ، و تصدقون بالأنواء.

[87 - 83]و يعالج القرآن الانحراف الذي يقع الانسان فيه بالشرك ، سواء الصريح منه كالاعتقاد بالأنواء ، أو المبطن كالاسترزاق و المداهنة اللذان هما من ألوان الشرك ، حيث يساوم الانسان بالحق ، و يتنازل عنه الى الباطل ، او يكذب به استجابة لعوامل معينة داخلية او خارجية ، يعالج هذا وذاك بوضعه امام الموت الواقعة الصغرى التي هي أخطر و أصعب و أحسم حوادث الدنيا ، فهو حينئذ لا ينفعه شيء ولا شخص ، ويأتي التأكيد على هذين الأمرين لان مداهنة الانسان بالحق و تكذيبه به و شركه ينطلق من كفره بالآخرة و الحساب ، و اعتماده على الآخرين.

]فلولا إذا بلغت الحلقوم[

(1)تفسير القرطبي / ج ١٧ / ص ٢٣٠.

يعني النفس عند الاجل ، و بلوغها الحلقوم كناية عن قرب خروجها ، بل هي حقيقة يعاينها كل من حل اجله . اما الجالسون حول المنازع للموت فانهم لا يرون من الامر الا ظاهر صاحبهم ، اذ يلف ساقا بساق ، و يقبض يدا و يبسط أخرى.

]و أنتم حينئذ تنظرون[

باعينكم اليه لا تستطيعون الا التسليم للواقع ، بينما تستل رسل الله روحه على أقرب من حبل الوريد.

]و نحن أقرب إليه منكم و لكن لا تبصرون [

كما أنهم إذا صاروا إلى مثل أمر من ماتوا سيدركون بيقين و يرون رسل الموت بأبصارهم و بصائرهم ، و إنما يدعونا ربنا الى الاتعاظ بمن يمضون قبل أن نكون بانفسنا الموعظة ، و الإمام علي (عليه السلام) يؤكد لنا هذه الحقيقة إذ يقول : " فإنكم لو قد عاينتمما قد عاين من مات منكم لجزعتم و وهلتم ، و سمعتم و أطعتم ، و لكن محجوب عنكم ما قد عاينوا ، و قريب ما يطرح الحجاب ! و لقد بصرتم إن أبصرتم ، و أسمعتم إن سمعتم ، و هديتم إن اهتديتم ، و بحق أقول لكم : لقد جاهرتكم العبر ، و زجرتم بما فيه مزدجر ، و ما يبلغعن الله بعد رسل السماء إلا البشر " (١. (

و من دقيق عبارة القرآن أنه لا يقول هنا : " و لكن لا تنظرون " ، لأن ما يريد بيانه عمى البصيرة و ليس البصر و حسب ، فالمؤمنون الموقنون لا يرون الملائكة بأعينهم إذا قضى أحد نحبه على مقربة منهم ، و لكنهم لا شك يدركون الموت ، و يسلمون لهذا الحق، كتسليمهم بكل الحقائق الأخرى ، و يبصرون بقلوبهم حتى ملائكة الله.

(1)نهج / خ ٢٠ / ص ٦٢.

و حيث تبلغ الروح الحلقوم يتيقن الإنسان بكثير من الحقائق التي طالما داهن بها و كذب و استرزق ،

فيذهل عن كل شيء ، و يأسف على ما فرط ، و يرى أن الواقع الذي يعانيه هو نفسه الذي جاء في حديث الله و رسالته للعالمين . " و إنه لبين أهله ينظر ببصره ، و يسمع بإذنه ، على صحة من عقله ، و بقاء من لبه ، يفكر فيم أفنى عمره ، و فيم أذهب دهره ، و يتذكر أموالا جمعها ، أغمض في مطالبها ، و أخذها من مصرحاتها و مشتبهاتها ، قد لزمه تبعات جمعها ، و أشرف على فراقها ، تبقى لمن وراءه ينعمون فيها ، و يتمتعون بها ، ...
ثم ازداد الموت التياطا به فقبض بصره كما قبض سمعه ، و خرجت الروح من جسده ، فصار جيفة بين أهله ، قد أوحشوا من جانبه ، و تباعدوا من قربه " . (١)هكذا قهر الله عباده بالموت ، و به يتحدى غرور البشر و ضلالهم ، و يعالج كفرهم بالجزاء فيقول:

]فلولا إن كنتم غير مدينين[

أي إن زعمتم أنكم غير مجزيين بأعمالكم ، و قيل : أنكم غير مملوكين.

]ترجعونها إن كنتم صادقين[

و لكن كيف يكون الموت دليل الجزاء ؟ و الجواب : إن هذا و ذاك حق واقع مفروض ، و الموت كما الجزاء يخشاه الإنسان فيتهرب من الإعتراف به حتى يكذبه ، حتى جاء في الحديث أنه الحق الذي يشبه الباطل حيث لا يكاد يصدق به أحد لعظيم شأنه في نفوس الناس ، و لكن هل ينتفي الموت بتكذيبه ، أو يمكن الفرار منه ؟ كلا .. كذلك الجزاء . إن الله يأخذ الروح و يدفعها للجزاء . فإذا كان أحد يدعي قدرة على تحدي سنة الجزاء فليردها ممن أخذها ؟

(1)نهج / خ ١٠٩ / ص ١٦١.

[88]و حينما يحل الأجل يزهق كل باطل إلا الحق الذي بشرت به رسالة الله ، فإنه يصير ماثلا أمام ابن آدم ، فما أخبر به الله من انقسام الناس إلى ثلاثة أزواج لا يعود كذبا ولا ظنا ولا حتى مجرد إيمان بل يجده واقعا ماثلا أمامه.

]فأما إن كان من المقربين[

إلى الله بإيمانهم و أعمالهم.

]فروح[

أي راحة و اطمئنان و سعادة.

]و ريحان[

جاء في الأخبار أنه من أزهار الجنة و روائحها يشمه ملك الموت المؤمن فلا يحس بمنازعه الروح و خروجها . ويلقى المؤمن هذين الجزائين عند موته ، قال الإمام الصادق (عليه السلام) وقد تلا الآية : " يعني في قبره. "

]و جنات نعيم[

"يعني في الآخرة " (١) ، و قد تعرضت السورة في أولها إلى ذكر شيء من نعيم السابقين المقربين . قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : " إذا أراد الله تبارك و تعالى قبض روح المؤمن قال : يا ملك الموت انطلق أنت و اعوانك إلى عبدي فطال ما نصب نفسه من أجلي ، فأتني بروحه لأريحه عندي ، فيأتيه ملك الموت بوجه حسن ، و ثياب طاهرة ، و ريح طيبة ، فيقوم بالباب فلا يستأذن بوابا ، ولا يهتك حجابا ، ولا يكسر بابا ، معه خمسمائة ملك أعوان ، معهم طنان الريحان ، و الحرير(١) نور الثقلين / ج ٥ /

الأبيض ، و المسك الأذفر ، فيقولون : السلام عليك يا ولي الله أبشر فإن الرب يقرؤك السلام ، أما إنه عنك راض غير غضبان ، و ابشر بروح و ريحان و جنة نعيم ، قال : أما الروح فراحة من الدنيا و بلائها ، و أما الريحان من كل طيب في الجنة ، فيوضع على ذقنه فيصل ريحه إلى روحه ، فلا يزال في راحة حتى يخرج نفسه ، ثم يأتية رضوان الله خازن الجنة فيسقيه شربة من الجنة لا يعطش في قبره ولا في القيامة حتى يدخل الجنة ريانا ، فيقول : يا ملك الموت رد روحي حتى يثني على جسدي و جسدي على روحي ، قال : فيقول ملك الموت : ليثن كل واحد منكما على صاحبه ، فيقول الروح : جزاك الله من جسد خير الجزاء ، لقد كنت في طاعة الله مسرعا ، و عن معاصيه مبطئا ، فجزاك الله عني من جسد خير الجزاء ، فعليك السلام إلى يوم القيامة ، و يقول الجسد للروح مثل ذلك.

قال :فيصيح ملك الموت : أيتها الروح الطيبة أخرجي من الدنيا مؤمنة مرحومة مغتبطة ، قال : فرقت به الملائكة ، و فرجت عنه الشدائد ، و سهلت له الموارد ، و صار لحيوان الخلد ، قال : ثم يبعث الله له صفين من الملائكة غير القابضين لروحه ، فيقومون سماطين ما بين منزله إلى قبره يستغفرون له و يشفعون له ، قال : فيعلله ملك الموت و يمنيه ، و يبشره عن الله بالكرامة و الخير ، كما تخادع الصبي أمه ، تمرخه بالدهن و الريحان وبقاء النفس و يفديه بالنفس و الوالدين ، قال : فإذا بلغت الحلقوم قال الحافظان اللذان معه : يا ملك الموت ارأف بصاحبنا وارفق فنعم الأخ كان و نعم الجليس ، لم يمل علينا ما يسخط الله قط ، فإذا خرجت روحه كنخلة بيضاء و ضعت في مسكة بيضاء ، و من كل ريحان في الجنة فإدرجت إدراجا ، و عرج بها القابضون إلى السماء الدنيا ، قال : فيفتح له أبواب السماء و يقول لها البوابون : حياها الله من جسد كانت فيه ، لقد كان يمر له علينا عمل صالح . و نسمع حلاوة صوته بالقرآن ، قال : فبكى له أبواب السماء و البوابون لفقده و يقولون : يا رب قد كان لعبدك هذا عمل صالح ، و كنا نسمعحلاوة صوته بالذكر للقرآن ، و يقولون : الله ابعث لنا مكانه عبدا يسمعنا ما كان يسمعنا ، و يصنع الله ما يشاء ، فيصعد به إلى عيش رحب به ملائكة السماء كلهم أجمعون ، و يشفعون له ، وي ستغفرون له ، و يقول الله تبارك و تعالى : رحمتي عليه من روح ، و يتلقاه أرواح المؤمنين كما يتلقى الغائب غائبه ، فيقول بعضهم لبعض : ذروا هذه الروح حتى تفيق فقد خرجت من كرب عظيم ، و إذا هو استراح أقبلوا عليه يسائلونه و يقولون : ما فعل فلان و فلان ، فإن كان قد مات بكوا واسترجعوا و يقولون : ذهبت به أمه الهاوية فإنا لله و إنا اليه راجعون ، قال : فيقول الله : ردوها عليه ، فمنها خلقهم وفيها أعيدهم و منها أخرجهم تارة أخرى ، قال : فإذا حمل سريره حملت نعشه الملائكة ، و اندفعوا به اندفاعا ، و الشياطين سماطين ينظرون من بعيد ليس لهم عليه سلطان ولا سبيل ، فإذا بلغوا القبر توثبت إليه بقاع الأرض كالرياض الخضر ، فقالت كل بقعة منها : اللهم اجعله في بطني ، قال : فيجاء به حتى يوضع في الحفرة التي قضاها الله له ، فإذا وضع في لحده مثل له أبوه و أمه و زوجته و ولده و إخوانه ، قال : فيقول لزوجته : ما يبكيك ؟ قال : فتقول : لفقدك ، تركتنا معولين ، قال : فتجيء صورة حسنة قال : فيقول : ما انت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح ، أنا لك اليوم حصن حصين و جنة و سلاح بأمر الله.

قال : فيقول : أما و الله لو علمت أنك في هذا المكان لنصبت نفسي لك ، و ما غرني مالي و ولدي ، قال :فيقول : يا ولي الله أبشر بالخير ، فوالله إنه ليسمع خفق نعال القوم إذا رجعوا ، و نفضهم أيديهم من التراب إذا فرغوا ، قد رد روحه و ما علموا ، قال : فيقولله الأرض : مرحبا يا ولي الله ، مرحبا بك ، لأحسن جوارك ، و لأبردن مضجعك ، و لأوسعن مدخلك ، إنما أنا روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر الناس " (١.)

(1)بح / ج ١ / ص ٢٠٧ - ٢٠٩ وفي الرواية بقية في المصدر.

[94 - 89]هذا كان حال الإنسان إذا كان من المقربين عند الموت و بعده.

]و أما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين]قيل المعنى أن الملائكة تبشره بالأمن و السلام و العاقبة ، و هو أكبر ما يطمح إليه الإنسان ، فهم يؤمنونه من غضب الله و عذابه الذي يحل بأصحاب المشأمة ، فيقولون له " أنت في سلام لأنك من أصحاب اليمين.

و قيل : يعني إن سألت عنه فهو سلام : كقولنا : أحمد إليك ربي ، أي إن سألت عني فأنا أحمد الله ، و كما لو سألت شخصا عن صاحبك فيقول : كما تحب في عاقبة ، أو يقول : يدعو لك إنه بخير ، أو : يسلم عليك هو في عافية . قال القرطبي : أي لست ترى منهم إلا ما تحب من السلامة فلا تهتم لهم ، فإنهم يسلمون من عذاب الله (1)، و يبدو أن هذا المعنى هو الأقرب.

و يحتمل أن الكلام هنا عن صفة علاقتهم بالرسول (ومن خلاله كل مؤمن نال للقرآن) في الدنيا قبل الموت . إنها ليست علاقة العداء و التكذيب ، و إنما هم في تسليم له ، و سلام تجاهه ، و ليسوا كأصحاب المشأمة الذين يعادونك يا رسول الله و يكذبون برسالتك . و فيروضة الكافي (رض) : قال رسول الله (ص) لعلي (عليه السلام " : (هم شيعتك فسلم ولدك منهم أن يقتلوهم " (١) ، و الآية تتسع إلى هذا المعنى بدليل هذه الرواية.

]و أما إن كان من المكذبين الضالين[

الذين كذبوا الرسالة و الرسول ، و أنكروا البعث فلم يستعدوا للقاء الآخرة ، بل(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٢٩.

أسرفوا في السيئات و الذنوب فضلوا..

]فنزل من حميم * و تصلية جحيم[

قال الإمام الكاظم (عليه السلام) : " إذا مات الكافر شيعه سبعون ألفا من الزبانية إلى قبره ، و إنه ليناشد حامليه بقول يسمعه كل شيء إلا الثقلان ، و يقول : لو ان لي كرة فأكون من المؤمنين ، ويقول : " رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت "فتجيبه الزبانية : " كلا إنها كلمة أنت قائلها " و يناديهم ملك : لو رد لعاد لما نهي عنه ، فإذا أدخل قبره و فارقه الناس أتاه منكر و نكير في أهول صورة ، فيقيمانه ثم يقولان له : من ربك و ما دينك ومن نبيك ؟ فيتلجلج لسانه ولا يقدر على الجواب فيضربانه ضربة من عذاب الله يذعر لها كل شيء ، ثم يقولان له : من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فيقول :لا أدري ، فيقولان له : لادريت ولا هديت ولا أفلحت ، ثم يفتحان له بابا إلى النار و ينزلان إليه الحميم من جهنم ، و ذلك قول الله جل جلاله " : الآيتان " (١. (

و كونه من الضالين المكذبين يبين أن ضلالته متعمدة اصطنعها بتكذيبه ، و ليست عقوبة أو بسبب جهله بالحق و غفلته عنه .

[96 - 95]وفي نهاية السورة يؤكد ربنا بأن الحقائق التي ذكر بها القرآن و أهمها حقيقة الجزاء الأخروي ليست خيالا ، و لم تذكر لمجرد التخويف إنما هي واقع و سوف ينكشف بعينه للإنسان عند الموت.

]إن هذا لهو حق اليقين[

و حيث لا يصل كثير من الناس إلى درجة اليقين إيمانا و علما فإنهم يضيعون هذا(١) امالي الصدوق / ص ٢٣٩.

الحق ، و يكفرون به ، بينما يتجلى لقلوب الصادقين من المؤمنين وهم في دار الدنيا ، و لذلك تكاد أرواحهم تطير من أجسادهم فرحا لذكر الجنة ، و تزهق خوفا لذكر النار ، و السبب أنهم ليسوا في كفر ولا شك بالآخرة ، إنما يتعاملون مع ذلك الحق الغيب ، كما يتعاملون معأي حق محسوس ، فهم حاضرون ببصائرهم هناك كحضورهم ببصرهم هنا.

]فسبح باسم ربك العظيم[

تنزيها له عما يصف المشركون و الكافرون ، كوصفه بالعجز عن البعث و الجزاء ، أو تبرير أخطائهم و خطيئاتهم و إلغاء المسؤولية على الله سبحانه بصورة أو بأخرى كالذين يسبون الدهر و يعيبون الزمان ، وما الدهر إلا سنة الله القائمة فيه ، وما الزمان إلا وعاؤها!
إنما هم المسؤولون ، و قد جاء التسبيح عند ذكر الذنب كما في قوله سبحانه : " و ذا النون إذ هب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين " و لعل حكمة ذلك ألا نلقي اللوم على الله سبحانه ، و هكذا نسبح الله لكي لا نظن به جورا تعالى ربنا عن ذلك كبيرا ، فنعود إلى أنفسنا و نحرضها على العمل لنصبح من أصحاب اليمين بحوله و قوته . نسأل الله أن يوقظنا من سبات الشهوات و غفلة الأهواء ، و يوفقنا للعمل الصالح ، و ينزلنا منزلة المقربين . إنه سميع الدعاء.